شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٦٠ — تشرين الاول / تشرين الثاني (اكتوبر / نوفمبر) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة الفنانة
منى السعودي

المحتويات

صفحة ٤ **دم لا يغيب** ، محمود درويش ٠

٦ **من اوراق مقاتل فلسطيني في الجبل** ، يحيى رباح ٠

٢٦ **ثمانية مكاسب اسرائيلية من الحرب الاهلية في لبنان** ،
المقدم الهيثم الايوبي ٠

٤٢ **الجنوب** ، مروان ناصر ٠

٥٥ **الاتجاهات الامبريالية في مخططات اسرائيل الاقتصادية** ،
حسين ابو النمل ٠

٦٧ **الوحدة الكفاحية بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ٠٠**
طبيعتها ، تطورها ، اشكالها ، سعيد جواد ٠

٩٨ **الطائفية والطوائف في لبنان** ، البرت حوراني ٠

صفحة ١٠٩ **الثقافة والبوليس** ، الياس خوري ٠

١١٨ **صور** ، عباس بيضون ٠

١٢٣ **المرأة الفلسطينية والثورة : ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧** ، غازي الخليلي ٠

١٤٥ **مدينة الرواج ومخاض الحرب الاهلية** ، رئيف كرم ٠

١٥٥ **الدور الاسرائيلي في احداث لبنان** ، ربيع الاسير ٠

١٦٧ **وثيقة:« مشروع كنيغ » بشأن الموقف من العرب في اسرائيل** ٠

١٨٥ **تعقيب على وثيقة « كنيغ » : اعتراف بسياسة الاضطهاد القومي والعنصرية** ، يوسف حمدان ٠

١٨٩ **مناقشات :** حول مذكرات القاوقجي ، نجيب الاحمد ٠

دم لايغيب

■ تنصرف الكتابة الان الى البحث عن ذاتها الموزعة بين التفاصيل والانهيارات والحلم · تجلس ، تنتظر ، تغيب ، وتعود الى النهر · سنحتاج الى كتابة جديدة ـ هكذا نصرخ مع الانفجارات وحرية التجول بين قذيفتين · وحين ياتي السكون ، وهو دائما نسبي ، نكتشف ونحن خارجون من الحماس والغبطة ان الكتابة جديدة دائما · ومع ذلك ، فان المطالبة تاخذ شكل الكفر حين يعيش الكاتب في التجربة الساخنة ، الملتهبة ·· حين يعيش الزلزال الدموي ، فيبحث عن اداة انخراط عاجلة قد لا تكون هي الكتابة · انه السؤال ـ المأزق المزمن لا يجد جوابه الا في المسافة المولودة من الالتحام ·

وللحصى حواس قادرة على الادلاء بشهادة · قد لا يكون لمثل هذا العذاب وصف ، ولكننا نعيشه · واولئك الذين ماتوا ، وحيدين ، مع جلاديهم ورأوا دمهم على السكاكين الهادئة لا يدخلون الان الا في الرعشة والغضب ولا تسعهم عبارة · تبقى الكتابة غريبة عنهم وفيهم وتموت في التجربة · وتلك الطفلة الصغيرة الخارجة من تل الزعتر ، مضافة الى تراكم البساطة في الموت ، وهي تطير في الفضاء ·· تطير ولا تربطها باليابسة الا كف قاتلها الممسكة بالجديلة ··· لن تستطيع أن تدلي بعفويتها وعذابها لانها طارت وماتت · في هذا الزمن ، تخجل الكتابة من طبيعتها وتعترف ، نعم تعترف بانها عاجزة عن تقديم الخدمة الفورية للناس ، فليس بوسعها أن تنقذ طفلة من سادية قاتل ، ولا ان تسرق رغيفا من زحام شظايا ، ولا ان تقدم الماء لمحاصرين قريبين من البحر وفلسطين · هل نلغي الكتابة اذن ؟ انها تتمرد على ذاتها وتعرف انها تتحول ، في لحظة من اللحظات ، الى ترف · ولكن الحياة ذاتها تاتي دائما وتعترف بانها قاسية حتى السخرية التي لا ترحم حين تاخذ وجهتها وتسير استجابة لطبيعتها مزودة بسرها ونسيانها·

ونحن ايضا سنكتب · نمشي الى النهر بتجربة جديدة ، وبقلوب اشد ازدحاما

بالناس · ان أشياء كثيرة تسقط ، ومراحل كثيرة تغلق دوائرها ، ولا يسقط الحلم ، ولا يتوقف النهر · نكبر في التجارب ونصبح اكثر قدرة على الاقتراب من الانسان الذي لا تنقذه الا الثورة · ينمو فينا الفلسطيني والعربي الى الانساني ، وليس العكس هو الصحيح كما قد يتراءى للضيقين · ان للمؤقت جاذبية قصيرة العمر ·· وفي البرهة امكانيتان : اما ان تتصل بالمدى ، واما أن تقيم في لذة الغريزة · والذين حاصروا انفسهم بالبرهة وقطعوها عن سياق التاريخ يشعرون الان برغبة صادقة في البكاء · اما الذين الحقوا البرهة بسياقها التاريخي فلا يكفرون بأحلامهم ·

وباختصار : ان جيلا جديدا جديدا قد ولد ، وتبلور ، وعرف كيف يعرف وكيف يقاتل ·لقد انتصر الفرد الجديد على سهولة الهزيمة الاولى، وعلى فضيحة حزيران ، ودخل بوعي جديد مرحلة الصراع الطويل مع تردد تشرين · لقد بدأ الخطو في الطريق الذي لا يخلو من تعرجات · ولن نسمي البرهة الراهنة بأكثر من اسمها · انها مفترق بداية ونهاية وتقاطع حاسم ، والوعي الثوري الجديد هو الذي يحمل البوصلة · ولن يكون تمجيد المقاتل الفلسطيني الجديد ، اينما كان ، مجرد اغنية · هو الذي نقل الدفاع الى مواجهة · وهو الذي انقذ الامة ، حين انقلبت التحالفات ، من خطر الابادة وانهيار الحلم ·

ان جيلا جديدا قد تبلور ، والصراع ما زال في الاوج ، وهو الذي يربط الكتابة بفاعليتها · وان الذاهبين في البداية الجديدة هم الذاهبون الى المستقبل ·والذين استشهدوا في معركة الحلم العربي الجميل هم الذين أسسوا هذه الفاتحة · كانوا يعرفون الوجوه التي قاتلوها · وعلينا الان أن نقاتل الايدي التي تحاول أن تسرق نارهم ودمهم · ولن يسقط الحلم وقد تسلح !

محمود درويش

من أوراق مقاتل فلسطيني في الجبل

يحيى رباح

١٩٧٦/٣/٢٨

بعيدة هي المسافة بين سفوح جبل الشيخ حيث العرقوب ، وبين قمم جبل لبنان، حيث صنين والزعرور وجبل الكنيسة وتلال عينطورة ٠٠٠بعيدة هي المسافة في المكان وفي الزمن النفسي ايضا ٠٠٠ ولكن كل شيء الان يتغير بطريقة انقلابية حادة ، طيلة السنوات الماضية كنا نفخر باننا في العرقوب ، ننطق الكلمة باعتزاز ، تتوهج مشاعرنا ، تلمح بريق الاعجاب في عيون الاخرين حين يسألون ٠

ـ أين انتم ؟

ـ نحن في العرقوب ٠

العرقوب بوابة فلسطين ، العرقوب نقطة التماس الساخنة ، العرقوب خط الصدام الاول ، وحينئذ يصبح الموت ٠٠ والقصف ٠٠ والمطر الذي يغرق الخيام والخنادق ، وضيق التنفس خلال الصعود فوق نتوءات الصخور ، يصبح كل ذلك شيئا جميلا ، مشعا ضمن حالات من الشعور بالخطر والفخر والتقدم ٠٠٠ ولكن كل شيء يتغير الان بطريقة انقلابية ، القتال يتسع ٠٠ وتصبح المواقع الامامية في متاريس الشياح ، وقرى طرابلس ، وعلى حافة البحر في الدامور ٠٠٠ وكنا قد سيطرت علينا حالة من الحزن ونحن ندير حوارا فاترا في خيمة محفور لها في الارض ٠٠٠ المطر يهطل بتدفق منتظم ، ودخان سجائرنا يرسم في فراغ الجنحة دوائر وعلامات غامضة ٠

ـ كنا في الخط الاول ٠٠٠ صرنا في الخط الاخير ٠

ولعل كل واحد منا اخذ نفسا اعمق من سيجارته ، لكن صفير جهاز اللاسلكي أعاد الينا التوتر القوي من جديد ٠

ـ التحرك فورا الى الجبل ٠

ليس للثورة خط أخير ، كل مواقع الثورة ، وأشكال وجودها هي خطوط اماميه ... حيث يوجد الفدائي والبندقيه يوجد الخط الامامي ، وتفتح على مصاريعها جبهة القتال .

قمة الزعرور عالية جدا ، الفي متر عن سطح البحر ... ابو فراس يقود الفصيل الاول ، الثلج ضيع الطرق ، يتراكم ماحيا حدود المسافات من السفح حتى القمة العالية .. وأبو عيسى مساعد قائد الكتيبة يصدر الاوامر للمدافع بالرمي ، عليه أن يؤمن سدا ناريا لاسناد المقاتلين الزاحفين الى أقرب خمسين مترا .. أصيب ابو ابراهيم بجرح في عملية الصعود نزفت من ساقه الغائصة في الثلج بضع نقاط من الدم ... قال معلقا :

ـ هذه هي العلامة الاولى .

علامة الفدائي هي دمه .

دم وثلج ولهب متفجر ، وعند الفجر وصل أبو فراس مع فصيله الاول الى القمة ، وعندما كانت قدماه تتركان بصمة الوصول فوق وجه الثلج عند اعلى نقطة ، أصابت طلقة من فلول الاعداء المهزومين المقاتل محمد دعيبس فسقط شهيدا . منذ بضع سنوات كان محمد دعيبس شبلا في مخيم اليرموك ، صار الان شهيدا فوق القمة العالية ... حين تكتمل دائرة القذيفة يحدث الانفجار ، وحين تكتمل دائرة التضحية يحدث الاستشهاد .. وقال أبو خالد وهو في مركز القيادة المتقدم .

ـ أمسكنا الان بالنقطة الاولى .

ثم بدأ بعد ذلك يصدر سلسلة من الاوامر التي تتعلق بأدق التفاصيل ، أبو خالد أشبه بنحات ماهر .. تتجذر الفكرة في رأسه ، وفي البداية تبدو قطعة الصخر لا معنى لها ، ثم بعد ذلك تتلاشى الاستحالة ، ويتكامل أمامنا شيء متناسق عظيم ، وفي البداية علق الكثيرون من منطلقات مختلفة ، كيف يمكن ان يصمد المقاتلون فوق هذه القمم الثلجية العارية ؟ لكن ابوخالد ، كان يجابه اسئلة الاستحالة بالصمت ، وبمتابعة المزيد من التفاصيل .

هنا الجبل ،

قمم صنين والزعرور والتلال الغربية وجبل الكنيسة وتلال عينطورة تتنامى

فيها الحياة ٠٠ صارت القمم الثلجية العارية اشبه بالمدن التي تمتليء بالنـاس والعلاقات والمواسم ٠٠٠ هنا الجبل

ـ أنا قادم من الجبل

ـ أنا ذاهب الى الجبل ٠

مزيج خاص متوهج من القسوة والاعتـزاز والاعجـاب ، دم وثلج ولهـب متفجر ، نحـن في الخـط الامامي الاول ، ولن نكون فـي الخط الاخير ٠

١٩٧٦/٤/١١

زارنا منذ يومين عـدد من أعضاء القيادة ، وكان يرافقهم هاني جوهريـة المصور السينمائي في السينما الفلسطينية ٠٠ كانت آخر مرة رأيته فيهـا ، في ايلو عمان ١٩٧٠ ، سألته مازحا :

ـ ماالذي جاء بك الى هنا ؟

قال وهـو يبتسم :

ـ جئت أتبع الوميض ، انني استطيع أن أتجاهل كل شيء ، ما عـدا الوميض٠ هاني جوهرية ، هـو الذي حفظ لنا عـن طريق ذاكرة الكاميرا ،صور المجزرة والبطولة في ايلول ، ثم لم نعـد نراه بعـد ذلك ، رفضت المخابرات الاردنيـة منحـه جواز السفر ، وظـل يحـاول الـى ان خرج من عـمان قبل أربعـة شهور ، وها هو يأتي الينا مسرعـا ٠

ـ أريد ان اصور فيلما حيا ٠

ـ ولكنك التقطت بما فيه الكفاية من الصور ٠

ـ هـذه صور لاستهـلاك الصحـف اليوميـة لا بـد ان نحتفـظ بوثيقـة حيـة للتاريخ ٠ كان ضوء الشمس باهـرا ، والقمـم الثلجية تضحـك من شدة البريق ، وفي الليل نهض هانيجوهرية من نومـه مشحونا بالتوتر ٠٠ سألني :

ـ هل يوقد المقاتلون نارا للتدفئة الان ؟

ـ نعـم ٠

ـ اذن انهض ٠٠ سنذهب الى موقع يوقد فيه المقاتلون نـــارا ٠

ـ ولكـــن ٠٠٠

ـ ولكن أنا مصمم عـلى ان اسجـل بكاميرتي في هذا الليل القـارس ،العلاقة بين توهج الجمر ، وعـيـون الفدائيين ٠

اليوم صباحا ، قال هاني جوهرية للرائد ابو عيسى ،

ـ أنا ذاهـــب معـــك ٠

ـ ولكني سأشرف على رماية المدافع ٠٠ ومواقع الانعزاليين سترد ٠

ـ وأنا أريد ان اصور تقاطع القذائف ٠

وصعـد الرائد ابوعيسى ومعـه هاني جوهرية الى التلال الغربية ٠٠ فـــي الساعـة الواحدة والنصف ظهرا ، كان هاني جوهرية قد تابع بالكاميرا ، وميض كل القذائف ، بما في ذلك القذيفة التي اضاءت في وجهه ومزقته ، واصيب الرائـد ابوعيسى اصابة بالغـة ، واكتمل المشهد الاخير ٠٠٠ لكن التلال والقمم صارت هي البند السري الاول في جدول أعـمال الضغوط والمساومات والتحضيرات ٠٠

ـ كيف استشهد هاني ؟

ـ مثلما يمكن ان يستشهد أي فدائي يتواجد تحت مظلة القصف ٠

وصار معروفا لنا في الجبل ، ان هناك فرقا هائلا بين بريق البطولة ،وتكاليف الصمود ، في المسافة من ترشيش الى عينطورة ، لم يبق من الاهالي سوى ابـو ابراهيم ، وهـو رجل عـجوز طاعـن في السن ، يبلغ من العمر خمسة وثمانين عاما ، بقي في المنطقة كأنه يحرس الذكريات ، او كانه شاهد عيان لما حدث، ولما سوف يحـدث فيما بعـد ، ومعـه بقى ابنه ابراهيـم الذي يبلغ من العمر خمسة وخمسين عـاما ، والـذي فقد عـقله منذ كان صبيا صغـيرا ٠٠

ابراهيم المجنون يصرخ فـي الفراغ ، يتشاجر مع اشياء الطفولة التـــي لم يعـد لها وجـود الا فـي عـقله المضطرب ، وابو ابراهيم العجوز الطاعـــن يتذكر كل شيء ، حدود قطع الارض المغطاة بالثلوج ، ومواقع ينابيع المـاء التي تجف بعـد ذوبان الثلج، والتي تستمر طوال العـام ، والقنوات المخفية التـي تغذي المنطقة ، وانواع الكرز البلدي والايطالي ،وموعد نضوج التفـاح ٠٠٠٠ وكنا نتساءل دائـما :

ـ متى يذوب الثلج ؟

فيرد ابو ابراهيم بلهجة الواثق :

ـ أيام ٠٠ أيام بسيطة ويبدأ الثلج في الذوبان ٠

فجأة يتساقط الثلج بكثافة ، ثم يهطل المطر كأنه انهار دافقة من السماء ٠

موجات متعاقبة من الثلج والمطر والضباب ، وابو ابراهيم حارس هـذه التلال عبر السنوات الطويلة ، يختلط عليه الامر ، يتمتم باندهاش ٠

ـ شيء عـجيب ، من خمسين سنة ما حصل شتاء مثل هذا ٠

والمقاتلون يعلقون بمراره :

ـ لماذا نحن الفلسطينيون ، تحـدث معـنا الاشياء النادرة ؟؟

في اعوام الرحيل الاولى داهمنا المطر حتى انه اغـرق الخيـام فجرفتهـا السيول ، وازال عـن وجـه الارض اكواخـنا الطينية ٠٠ وقالوا يومها ٠

ـ هذا شيء نادر يحدث لاول مرة ٠

ثم الاوبئة ، والجوع ، والجراد ٠٠ والعـذاب الذي لا يصدق ، كل ذلـك لم يحـدث للاخرين من قبل ٠٠

في التلال الغربية يختلط المطر مع القصف ٠٠٠ يختلط الغرق مع الموت ٠٠ يضعف الشباب في احـد المواقع ٠٠ يضعـفون ويحاولون التراجع الى السفوح اتقاء للمطر والشظايا التي تضيء وتمزق الاجساد ٠٠ ولكن ابو محمد قائد الموقـع يقول لهـم :

ـ تذكروا جيدا ٠التراجع معـناه ان تعـود مخيماتنا حظائر للحـزن ، وان تعـود أحذية الجلادين تدوس رؤوسنا ٠٠كل من يدافـع عـن خندقه ٠٠ يدافـع عن شرف امه حتى لا يهـدر من جديد ٠

ويرسل ابو محمد برقية عـلى الجهاز عـن اخـر تطورات الموقف ٠

ـ يستمر المطر ٠٠ يستمر القصف بمدفعية الهاون ومدافع الدبابات ، لكننـا

جزء من هـذه التلال ولن نرحـل ابدا ٠

والان البرقيات تتوالى من المواقع :

ـ تقطعت الخيام

ـ امتلات الخنادق بالميـــاه ٠

ـ ملابسنا وأغطيتنا اختلطـت بالوحـل ٠

ـ يوجـــد عـندنا حـالات تجمـــد ٠

ـ القصف كثيف فـــوق كافـــة المواقـــع ٠

ـ صامـــدون ٠٠٠ والمعنويـــات عالية ٠

يبتسم الرائد داوود ابو الحكم ، تخرج ابتسامته مشحونة بالسخط ، يعـلق قائلا :

ـ القمم قريبة من السماء ،

لنرسل برقية استغاثة الى السماء ٠

ابو خالد قائد المنطقة ينادي بانفعـال مسيطر عـليه :

ـ الى السماء ٠٠ الى السماء ٠

مطلوب وقف الثلج ٠٠ مطلوب وقف المطر ٠

يعلق أحد المقاتلين قائلا :

ـ لم يتوقف شيء ، يبدو ان السماء صمّاء ولا تسمع ٠

نضحـك ، نضحك كثيرا فيهدأ الانفعال ، وتنتشر الدعابة في كافة المواقـــع وعـلى السنة كل المقاتلين ٠

ـ لن نرسل برقيات الى السماء ، لانهـا طرشاء ولا تسمع ٠

تضيء الابتسامات في الوجوه المرتعشة من الارهاق والصقيع ، ولكنهـا ابتسامات تلمع بين حافة الموت وحافة الموت ، ويصبح الوضع عندنا اكثر تعقيدا ٠٠٠ فوق التلال لا نستطيع ان نرسل للمقاتلين سوى ارزاق ناشفة ، حيـث عـملية الطهو مستحيلة تماما ، يضاف الى ذلك ان الفصيل من المقاتلين الموجود في اية نقطة ، يحتاج الى فصيل اخـر لكي يوصل اليه التموين والذخائـر والاسلحة ، والطرق الشاقة مغـلقة امام الاقدام التي اهترأت احذيتها ، بشكـل عشوائي ، لكن الجبل صار يعبق برائحتنا ، ويتوهج بدمنا ، ويحمل اسمنـا وملامحنا واثار خطواتنا العارية ٠

١٩٧٦/٥/١٠ـ٧

كل التفاصيل اصبحت تؤكد ان الهجوم سيقع فجرا ، حركة اليات الانعزاليين وحشودهم في المروج وبولونيا وبسكنتا ٠٠ ورماية مدفعيتهم التي كانت تسجـل مواقعـنا ، والمعـلومات القادمة من خـلف خطوط العـدو في بتغرين وغيرها ، والرموز التي تم التقاطها من خـلال التنصت عـلى أجهزة اللاسلكي ، وها نحـن ننتظر وقوع الهجوم ، وصل أبومازن من اجازته من دمشق ، سألناه :

ـ كيف الاجازة ؟

ـ ليست مريحـة ٠

ـ لمـاذا ؟

ـ لان دمشق أصبحت غير مريحة ٠

وصل أبومازن من اجازته بعد الظهر ، واندفع فورا الى موقعه في التلفريك، واعطيت الاوامر من قبل قائد المنطقة الى الجميع بالاستنفار ٠٠ والى المدافـع بأن تكون جاهزة للعمـل ، والى كافة المواقع باليقظة التامة ،والى جميع محطات اللاسلكي بان تفتح باستمرار وبتمرير أية معلومات مهما كانت صغيـرة باقصى سرعـة ، وفـي مثـل هـذه الحـالات يستنفر الجسم البشري ، تنهض فيـه طاقة كامنة لم تكن ظاهرة من قبل ، اكتشفنا هذه الحقيقة منذ سنوات ، فـي

الظروف العادية يشعر الانسان بالنعاس فلا يستطيع ان يغالب النوم، يشعر بالجوع ٠٠ بالعطش ٠٠ بالمرض ٠٠ فيضعف وينهار ٠٠٠ ولكن الان تنهض طاقة سرية ٠٠ يصبح الجسم جهازا شديد التعقيد ، شديد التحمل ، شديد الحساسية ٠٠ وفي حالات من هذا النوع ايضا ٠٠ يتبلور فهم خاص للاشياء وعلاقات خاصة معها ٠٠ أذكر انني كنت أتبادل الدعابات الجادة مع يونس ضابط المدفعية ، وكان يقف معنا أبو نضال وابو راكز عامل الاشارة، وكنا نتحدث بمرح عن النسبية الجديدة ٠٠

ـ أيهما افضل ، ان تعيش بساق واحدة ، أم الموت ؟ بذراع واحدة ام الموت ؟؟؟

وقال يونس ضابط المدفعية ٠

ـ أي شيء احسن من لا شيء ٠

وكانت مناسبة الحديث ان مقاتلا فقد أحد اصابع يده اليسرى بفعل احدى الشظايا ٠٠ ولعلنا كنا نريد تعزية انفسنا ٠٠ ذلك اننا في جبهة القتال حين يصاب واحد منا ٠٠ يشعر كل واحد من الباقين ان الدور سوف يحل عليه بعد ذلك ٠

بدأ الهجوم في تمام الساعة الخامسة والنصف فجرا ، تمهيد بقصف مدفعي كثيف على كافة المواقع ، تتشابك نداءات اجهزة اللاسلكي تنقل المعلومات والاوامر ٠٠ وتتشابك في تشكيل عجيب قذائف المدفعية من عيارات مختلفة، وقذائف مدفعية الدبابات ٠٠ والرشاشات المختلفة ، وتصبح الدقائق خطوط اتصال نارية لا تنتهي ٠٠ تحطمت موجة الهجوم الاولى في صنين وتحطمت موجة الهجوم الاولى في التلفريك ، موجات الهجوم تتوالى ، الآليات المعادية تقترب اكثر من الكمائن المتقدمة ، سقط موقع الدوشكا ، الانعزاليون اقتحموا موقع الفنادق ، ابو نضال بقي وحيدا على رشاش الـ ٥٠٠ وابو مازن يقود هجوما معاكسا ، ابو مازن يطارد فلول الانعزاليين ويستعيد موقع الفنادق ، يشتد القصف من مدفعية الدبابات على رشاش ابو نضال ، تتكالب عليه القذائف حتى يسقط شهيدا ٠٠٠ وابو مازن يقاتل على رشاشه ٢٤ ساعة متواصلة ثم يستشهد وابو راكز تصدعه قذيفة دبابة فيتهدم مثل الجدار الصلب ٠

اعترف الانعزاليون بوقوع قرابة خمسماية اصابة بين قواتهم ، بالاضافة الى احدى وعشرين آلية مختلفة ، وبعض المدافع والرشاشات ، والاسلحة والذخائر التي غنمناها ٠٠ ولكننا فقدنا عددا من الشهداء وفقد ابو مازن ، كان

حادا مثل السيف وقويا مثل الصخرة ، وها هو يتكسر الآن دون ان نتمكن من احضار جثته فورا ·· يونس ينظر في وجهي ويسكت ·· في جبهة القتال تكبر الاشياء آلاف المرات ، او تصغر الاشياء الاف المرات ·· فقدنا ابو مازن ·· ابو مازن مقاتل واحد ·· ولكن في جبهة القتال واحد يمكن ان يكون ثغرة ويمكن ان يكون انتصارا ··والموت ·· الموت كله يمكن ان يختزل في جبهة القتال الى كلمة ، أو أيماءه ، أو الى الصمت في اغلب الاحيان · يزداد عدد شهدائنا الذين نزرعهم في الجبل ، لكن الجبل يصبح كبيرا ووحشيا مثل الحرب ، وأليفا مثل تحية الصباح ·· صار الجبل وتضاربه وطرقه ضمن قاموسنا اليومي ·· موقع الدوشكا ، فنادق الشهيد ابو مازن ·· تلة الشهيد فاخر ··

وحين يستشهد واحد في الصباح وواحد في المساء ·· نقول في اللغة اليومية لجبهة القتال ، الشهيد القديم والشهيد الجديد ···

الجبل ·· صنين ··والزعرور ·· والتلفريك

الجبل ·· عينطورة ·· المتين ·· قرنايل ·· رأس المتن ··

الجبل ·· وهم وحقيقة

صمود ·· وموت

بطولة ·· وشظايا

الجبل موقع متقدم ، ودائرة حصار ، وقرار صعب ، وفعل يومي ، وخنادق وتحصينات ، وجداول رماية ، ومقاتلون ، ومليشيا·· الجبل مجهول كالخرافة·· ومألوف كالبيت الصغير ·· في مقر القيادة كانت ملصقات الشهداء تتكاثر · · ملصقات بألوان مختلفة وأحجام مختلفة ·· ملصق بواحد ، ملصق باثنين ، ملصق بثلاثة ، ملصق بأربعة ··

وكنا في لحظات الاستنفار القصوى ، ننظر الى وجوه بعضنا بحنو غريب·· ويتساءل كل واحد منا بينه وبين نفسه :

– ترى من منا يرتفع الى الجدار في المرة القادمة ؟ يطرد الواحد منا هذه الفكرة المزعجة على الفور ·· لكن الملصقات التي تحمل وجوهنا وتواريخ الميلاد والاستشهاد ·· تتكاثر مثل طحالب البحر فوق الجدران ·

١٩٧٦/٦/١١

حزيـران شهر الهزيمة

حزيران شهر المهزومين

سألني مقاتل من مخيم عين الحلوة ، بينما الطبيب ينظف له جراحه من آثـار الشظايا ٠

ـ هل كنا نعرف طبيعة النظام السوري ؟

ارتبكت ٠٠٠ ولقد تعلمت منذ زمن بعيد ، ان الاسئلة البسيطة هي التي تثيـر الارباك دائما ٠٠ لان الاجوبة عنها تتطلب الحقيقة ٠٠ ومن الذي يريد الحقيقة ؟

ـ نعم ٠٠ كنا نعرف طبيعة النظام السوري ، فلقد جاء على اشلائنا في ايلـول والاحراش ٠ فألح ذلك المقاتل بصوت متعب وحزين ٠

ـ اذن ، لماذا ٠٠لماذا ؟

مرة اخرى ارتبكت ٠٠ وقلت للطبيب ٠

ـ هل جراحه خطيرة ؟

ـ نعم ٠٠ ولكنه سيعيش ٠٠

وخرجت من العيادة الخلفية ، وكان ثمة حوار يدور حول حادث وقع اليوم في البقاع ٠٠ ذلك ان شاحنة تقل عددا من القرويين مرت على حاجز للجيش السوري عند مثلث قب الياس ٠٠٠وحين توقفت الشاحنة تصايح القرويون ببساطـــــة ملوحين للجنود ٠

ـ طريق الجولان ليست من هنا

وحينئذ أطلق الجنود السوريون نيران رشاشاتهم ... فقتل واحد من القرويين واصيب أربعة بجراح .. وكان القرار في الجبل ، أن البقاع لا يجب ان يخلو من الانفجارات والعبوات الناسفة والقنابل .. لا يجب ان يخلو من المقاومة .. وكان الجبل قد تحول من مجرد موقع الى تجربة .. حالة من النهوض .. تمركز حول شيء محدد الملامح ، المقاتلون من مختلف الفصائل أصبحوا مقاتلين في فصيل واحد اسمه الجبل ،

صار الجبل متراسا ..

صار الجبل تجربة متكاملة القوى والعلاقات ..

صار الجبل خيوطا تمتد من البقاع الى بيروت ومن مخيم اليرموك الى مخيم تل الزعتر ..

صار للجبل أبطاله الذين لم تلصق صورهم بعد على الجدران ، أمثال ابو زياد صنين ، والشيخ عمر التلفريك ، وجهاد التلال الغربية ، وأبو خالد هاشم قاع الريم ، وعامر بطل تشريك الصواريخ ، ويونس بطل المدفعية .

وصار للجبل حكاياته أيضا ، من بين هذه الحكايات ان عمر السعدي سائق سيارة اللاندروفر الخضراء ، ارتبط بقصة حب مع آمنة احدى الممرضات في مستشفى الشهيد فاخر .. وهو مستشفى ميداني جهزناه في كفرسلوان ، وأنه كان يعد الايام بسرعة ليكون معها أول عروسين في الجبل

عمر السعدي جاءنا ساخطا

ـ ماذا ؟

ـ جرافة سورية تحرسها دبابة ، تقوم بسد الطريق عند ثعلبايا .

وثارت الاسئلة

هل يقاتلنا السوريون ؟؟

هل نقاتل السوريين ؟؟

وقبل ان تكتمل الاجوبة وجه السوريون انذارا ٠

ـ الانسحاب الفوري أو القتـال

ـ لا ٠٠ الصمود

ثم بعد ذلك ، وقبيل الغروب بساعتين ، تصاعدت أعمدة الدخان والغبـــار من مواقع متعددة في المنطقة ، ثم توترت اجهزة اللاسلكي وهي تنقل اخبـــار الهجـــوم ٠٠

ـ قصف كثيف وتقدم آلي على صوفر

ـ قصف كثيف وتقدم آلي على صيدا

البرقيات تتقاطع

ـ الى جميع المقاتلين

اجعلوا من أجسامكم ألغاما تتفجر في وجوههم : وبسرعة تمت عملية امتصاص الصدمة الاولى ، فأصدر أبو خالد أوامره بأن تندفع مجموعات وتصطدم مـــع الدبابات في صوفر ٠٠ تحطم الهجوم فيصوفر ٠٠ وجاءت برقية من صيدا تقول:

ـ صيدا تسهر على الدبابات المحترقة

الجبل ٠٠ الطموح ٠٠ التجربة ٠٠ مثل صيدا ٠٠ حدد كل الملامح ٠٠ وأعلن الصوت بكل قوة ٠

كيف تحمي التجربة ؟

ماذا سيكون ثمن التجربة ؟

ما أصعب السؤال ٠

ولقد ضاعف من قسوة الاسئلة على نفوس المقاتلين في الجبل أن فاخـــر

النحال قد استشهد ٠٠ كان فاخر بطلا حقيقيا من أبطال حرب الشعب ٠٠ يحفر الخنادق بأصابعه ، ويتسلق كل الصخور ، ويزرع الالغام والدبابات تتقدم نحوه لكي يتأكد انها ستنفجر ، وينام متقدما عن أول مقاتل من مقاتليه ٠٠ وأهم من ذلك كله أنه لا يشكو أبـدا ٠

سألته مرة ٠٠ لماذا ؟

أجـاب :

ـ كلما ساءت الامور أعد نفسي لان تصبح الامور أكثر سوءا ٠

وأذكر ان النقيب فاخر النحال تدرب على نوع جديد مـن الصواريخ لمـدة ساعات فقط ٠٠ ثم انه بعد ذلك اطلق الصاروخ الاول فدمر دبابة للانعزاليين ، ثم أطلق الصاروخ الثاني فابتعد في التلال ٠٠ يومها فقط رأيت فاخر غاضبا ٠٠ وها هو يستشهد ٠٠ ولكنه ظل بيننا مثل الحالة ٠٠ أطلقنا اسمه على احـدى التلال ٠٠ فصار اسمها تلة الشهيد فاخر ٠٠ وأطلقنـا اسمه على المستشفى الميداني الذي جهزناه ، فصار اسمه مستشفى الشهيد فاخر ٠ ولقد حاول كـل واحد منا ان يبدو قويا وخاصة أمام المقاتلين الذين يعشقونه وفجعوا بموته ٠٠ لكن حين يحدث الموت ينظر الواحد ويتساءل :

ـ من منا سترتفع صورته على الجدار في المرة القادمة ٠

١٩٧٦/٧/١٣

لن تعود الاحراش ثانية .

هبت خلال الايام الماضية رياح قوية في الجبل ، رياح كنا نشم معها رائحـة الاحراش . ولقد قام السوريون في مطلع هذا الشهر بنسف جسر قبيع ٠٠ وقطع الطريق بالرشاشات والقصف المتواصل ٠٠٠ وهكذا صار الجبل دائرة مكتملـة الحصار ، اتخذنا كافة الاحتياطات ، شكلنا لجنة من النساء في قرية كفر سلوان مهمتها تحويل أكياس الطحين ، الى أرغفة من الخبز ، وأصلحنا فرنا في المنطقة كان معطلا منذ فترة طويلة ٠٠٠ وكان نبيل وخليل ولؤي ومصطفى قد ثبتـوا جذورهم فوق جبل الكنيسة وعلى امتداد سفوحه التي تصـل الى أحـراش كفر سلوان ، والى قرية بوارج حيث أشرف نبيل وخليل على اعادة النهـوض

بخلايا التنظيم في المنطقة ، واعداد برنامج للشباب هناك للمشاركة في القتـــال ضمن مهمات مختلفة ·· نبيل جاء من متاريس الشياح هو ومصطفى ··

قال لنا ذات مرة :

ـ أن قتال يوم واحد هنا ، يعادل عشرة أيام قتال في متاريس المدن ·

ـ لمـاذا ؟

ـ هنا كل شيء تواجهه مباشرة ، تواجهه عاريا ·· ابتداء منشظايـــا القذيفة ·· وانتهاء بخط سير المؤامرة ·

كنا في الجبل قريبين مـــن كل شيء ·· نلامس كل شيء ·· قريبين مـــن السوريين والانعزاليين ·

من الحصار والنجـاة

من القمـة والقاع

كنا في الجبل في كل لحظة قريبين منالقرار الشجاع ومن الانتظار القاتل ·

ولقد وقع اليوم حادث مؤلم هزنا من الاعماق ·· ذلك أن قتالا نشب في صنيـن على ارتفاع ٢٦٠٠ متر عن سطح البحر ·· قتال برز فيه أبو زياد كبطل حقيقي·· وبرز فيه أبو خالد جورج والشيخ علي ومحمد شبارو وعشرات من المقاتليـــن كانوا يدوسون على نتوءات الصخور باقدامهم العارية ·· وكانوا يقفون فـوق أعلى قمة مثل آلهة جدد ·· ولكن مقاتلا من هؤلاء شطرته قذيفة مباشرة الـــى نصفين ·· وحين أردنا ان نحمل جثمانه ·· لم نجد سوى نصفه العلوى ·· أما النصف الآخر فلم نعثر عليه ·· بحث الشباب طيلة النهار وطيلة الليل ·· لكـــن يبدو ان نصفه الآخر قد تطاير الى الجانب الاخر ·

وصرنا نتساءل :

هل مصير كل شيء أن ينشطر الى نصفين ؟

هل نحن أمة واحدة أم أمتان ؟

هل ... هل ... هل ؟

أسئلة كثيرة تدور .. أسئلة مغموسة بالدم .. معجونة بالاشلاء .. متوهجة بطموح عظيم .. وصلنا ان الصحافة الاجنبية كتبت عنا في تقاريرها ، أننـــا أعدنا للسلاح شرفه المهدور في الشرق الاوسط منذ ثلاثين عاما ... كنت أتحدث مع أبـو شهيد عن ذلك ، فسألني :

ـ ما هو الموقف ؟

ـ أن سلمنا متنا .. وان قاتلنا يمكن ان ننجو ..

أطرق أبو شهيد قليلا ثم قال :

ـ اننا سيف هذه الامة .. كيف تكسر أمة سيفها .. وتبقى عزلاء في وجـــه الغـزو ؟؟

كانت معارك تل الزعتر قد وصلت الى مراحلها القصوى .. وكنا نشـــارك بمدافعنا في صنع الحزام الناري حول المخيم حتى نمنع الاجتياح .. وكان عزمي الصغير يقود المجموعات التي تخترق الحصـار وتصـــل الى تل الزعتـــر .. مجموعات من المقاتلين يحملون الذخائر والتموين وقطرات الماء .. كنا في الجبل بمحاذاة كل شيء ..

بمحاذاة العذاب والبطولة

الحقيقة والخرافة

الحصار والطوفان

كنا في الجبل نشبه بعضنا في الكلمات

في العقـل

في الطموح

الشيوعي والفتحوي والرفض ، كل المقاتلين من كل المنظمـــات والاحزاب ،

صاروا مقاتلين في حزب واحد أسمه حزب الجبل٠٠ حتى أصحاب البغال من القرى المجاورة الذين كانوا يوصلون التموين والذخائر الى المواقع الوعرة ، وأبو عمار القروي من كفر سلوان دليل الطرق الصعبة ، ورعاة الماعز ،وسائقي الجرافات صارت لهم نفس ملامحنا ٠٠ وحازوا على هوية جديدة في وطن جديد اسمه الجبل ٠

١٩٧٦/٩/١ ـ ٨/١

تراكمت عندنا في الجبل مسائل كثيرة دفعة واحدة ، من بينها انمناطق كثيرة الحقت ضمن مسؤولية أبو خالد ٠٠ منطقة المتين وقرنايل وحمانا ورأس المتن ٠٠ وزادت الاعباء ٠٠ وكان آخر تقرير للموقف قدمه ابو خالد قائد المنطقة ان هناك سبعة عشر محورا صالحة لتقدم الآليات السورية والانعزالية ٠٠ وصار واضحا ان فرقا هائلا بين الجبل كتجربة وحالة ٠٠ والجبل كامكانيات ٠٠ وها نحن نعبر الآن المسافة الحرجة بين الهاجس والقرار الشجاع ٠٠ وقد استشهد ابو خالد جورج في صنين ٠٠

كان قد شق الطرق الى القمم ٠٠ وعلم الشباب الذين معه كيف ان كل شيء مهما كان صغيرا ، له أهمية قصوى في جبهة القتال ، وكان الى جانب كل ذلك متواضعا وهادئا مثل نسائم الصيف ، يحدث القصف ، تئز اجهزة اللاسلكي بحالة الاستنفار ، تختلط ذرات الهواء بالرصاص وشظايا القنابل ٠٠ لكن ابو خالد جورج يظل هادئا ٠٠ يتحدث بصوت خفيض ، يبتسم باتزان ويحزن باتزان كذلك ، يحرص على مد جسور من الالفة مع كل الاشخاص ومع كل الاشياء ٠٠ وحين استشهد سيطرت علينا حالته ، اختفى كل واحد منا وراء شجرة تفاح وذرف دموعا صامتة ٠٠

واستشهد ابو سنبل الذي كان نسرا من نسور العرقوب ، قدماه تركتا آثارا فوق جبل الشيخ ، وفي لحظات الموت المحدقة كان يعبر الحواجز النارية ٠٠ استشهد ابو سنبل في المتين ٠٠ قال واحد منا ٠

ـ اقترح ان نقيم مقابر لشهدائنا في كل مكان نصل اليه ٠

ـ لماذا ؟

ـ هذه آثار رحلتنا العظيمة

ـ ولكن لو نجحت المؤامرة . فأنهم سيجتثون حتى قبور الشهداء ٠

فلسطين هي المستهدفة

فلسطين الوطن

فلسطين الشعب

فلسطين الملامح السياسية

فلسطين الحالة الثورية ٠

وها نحن ندافع بآخر ما نملك عن كل شيء ٠٠ وسقط مخيم تل الزعتر ، طوال شهرين من حصاره كنا نشارك في صنع حـــزام ناري حول المخيم لكي نمنـــع اجتياحه ٠ وكان عزمي الصغير يبذل جهودا مستحيلة لدفـــع مجموعـات مـن المقاتلين ، يخترقون الحصار ، ويصلون الى المخيم ، يحملون على اكتافهم الذخيرة والمؤن واوعية الماء وما يتوفر من الادوية ، وكان ابو خالد قد قدم اقتراحا لانقاذ مخيم تل الزعتر ، زيادة المشكلة تفاقما ٠٠ احتلال مواقع جديدة للانعزاليين فـي بولونيا والمروج والصفصاف وضهور الشوير ٠٠ والوصول الى أبواب بكفيا ٠٠ الاقتراح لم ينفذ ٠٠ فلقد كان يعني الدخول في مرحلة كسر عظم للانعزاليين ٠٠ ولم تكن الآفاق السياسية السائدة تتناسب مع ذلك ٠٠

سقط مخيم تل الزعتر مثل انهيار الارض ٠٠ وكنا في الجبل قد وصلنا الـــى مرحلة الحوارات الساخنة ٠٠

قال ابو خالد :

– يجب ان نخرج من حالة الجمود ، يجب ان نكسر حالة الانتظار القاتلة ٠٠

عقد اجتماع للكوادر في المنطقة ، تبلور الموقف عن عدة مبادرات ٠٠واستدعينا أعضاء القيادة واحدا وراء الآخر لمناقشتهم في الامر ، ووضعهم في صورة كـــل التفاصيل ٠٠ وكنا نلح على ضرورة القرار الشجاع ٠

– دفع مجموعات تقاتل الى البقاع ٠

– الامساك بزمام المبادرة

ولكن ذلك كان يعني تحليلا دقيقا للوضع ، واتخاذ قرار بكسر الجرة مـــع

السوريين ..

ـ القـرار الشجـاع

ـ القـرار الشجـاع

وكنا في الجبل قد توحدت رؤيتنا .. كنا نتحدث بنفس الكلمات ، صـارت وجوهنا متشابهة .. خليل من الحزب الشيوعي ، وبلال من منظمة العمـل ، كلنا صارت لنا نفس الملامح ، كلنا صرنا مقاتلين عربا في جبهة واحدة اسمهـا الجبـل ..

١٩٧٦/١٠/١ ـ ٩/١

يقول المثل الفلسطيني « أيلول ذيله مبلول » .

أيلول مبلول بالماء أم بالدم ؟؟

قال أبـو خالد :

ـ سيكون الهجوم في أول الشتاء

وقال الرائد داوود أبو الحكم :

ـ سيكون الهجوم في أول الربيع

ـ هل تراهن ؟

ـ نعم أراهن .

وكان عمر السعدي قد أتى مع عروسه ، جاء سيرا على الاقدام من ثعلبايـا الى توتيا .. كانت في انتظارهما سيارة اللاندروفر المدهونة باللـون الاخضر، كانت العروس ترتدي ثوبا أبيض ، وتحمل في يدها باقة صغيرة من الورد ، وكان هو يبتسم ، يتخيل مع نفسه التعابير المحببة التي سيقولها لهما الفدائيون في الجبل أول عروسين في الجبل .

أدار محرك سيارة اللاندروفر الخضراء ، وانطلق كأنه يمتطي صهوة مهـــرة جامحة ، كانت القمم تقترب اكثر ٠٠ ووجوه الفدائيين تتكاثر ، ثم حدث الانفجار، تطايرت اشلاء السيارة والعروسين في الفراغ ، ثم عادت وارتطمت بالارض ٠٠ ابتسامة جمدها الموت على وجه عمر السعدي ، أما هي فقد تجمدت يدها علـــى باقة الورد الصغيرة الممزقة المغموسة برائحة البارود ٠٠

وقع هذا الحادث في الاسبوع الاول من الشهر ، صارت الشمس تحتجب لبعض الوقت في النهار ٠٠ وصار الضباب عند الغروب يملأ الاودية العميقة ٠٠ فتبـدو التلال والجبال حين تتدافع موجات الضباب وراء بعضها ، كأنها تسبح في بحـر خرافي ليس له حدود ٠٠

وكانت آخر برقية قد ارسلت من قيادة المنطقة الى مركز العمليات الرئيسية في الساعة الحادية عشرة من مساء ٩/٢٧ تقول :

ـ ان هجوما مؤكدا سيقع صباح الغد ٠

ووقع الهجوم فعلا ،

سدود من النيران القت بها راجمات الصواريخ ، والمدافع المتنوعة العيارات ، ومدافع الدبابات ، والرشاشات ، وارتال من الدبابات والمشاة تتقدم على عـــدة محاور لتلتقي عند محور رئيسي حيث مركز القيادة ٠٠ لكي يكتمل الطوق ٠٠ وتتم عملية الابـادة ٠

أبو خالد يحاول ان يسيطر على عملية القتال والتراجع ، فيختار الطريق التي لا يتوقعها الاعداء المهاجمون ، والرائد ابو الحكم ، يقوم بالملاحظة لرماية المدافع يصاب من جراء قذيفة مباشرة ، تفتح الشظية ثغرة في جنبه الايسر فيتدفق الدم ٠٠ يحاول بيده ان يوقف النزيف ويهبط مشيا على قدميه من تلال قرنـــايل ٠٠ يتمتم لنفسه :

ـ لقد خسرت الرهان ٠

يتدفق النزيف ، يصبح على وشك الاغماء فيقول لنفسه :

ـ اذا اغمي علي ٠٠ انتهيت ٠٠ يجب ان اظل مستيقظا ٠

وطوال الطريق الوعرة ، يظل ابو الحكم متشبثا بكل ارادته بحافة التوازن والصحو حتى لا يحدث السقوط ٠

ويتواصل الهجوم والتقدم عبر دائرة كاملة مقلقة ، ابو خالد يسيطر على القتال والتراجع ، من ترشيش ، الى مجدل ترشيش ، الى تلال عينطورة ، الى المتين ، الى رأس المتن حيث يشكل آخر عقدة قتال ، السوريون والانعزاليون لليوم الرابع ، يعزفون لحنا واحدا متناسقا ، اسمه لحن ابادة الفدائيين وخيانة كل شيء ٠٠ ابو خالد يشكل في رأس المتن اخر عقدة قتال ، بما تبقى من القذائف المضادة للدروع مع مدفع واحد يدمر خمس دبابات سورية ٠٠ لكن الثغرة الوحيدة التي يمكن ان يخرج منها مع بقية المقاتلين توشك ان تغلق بالنيران والدبابات ، والمقاتلون الذين بنوا معه تجربة الجبل يقولون :

ـ لقد تحطمت التجربة ٠

لكن ٠٠ لا يجب ان يتحطم الرجل ٠٠

توشك ان تطبق دائرة الحصار القاتل ، ابو فراس على رأس فصيل من المقاتلين يحاول ان يفتح ثغرة في الحصار ، في تمام الساعة الثالثة من يوم الاول من تشرين يتمكن ابو خالد ومن معه من الافلات من اطباق الدائرة ، ويستشهد ابو فراس راسما بدمه الساخن ، آخر المشاهد لقصة عظيمة دامت اكثر من مئتي يوم ، قصة اسمها الطموح والموت في الجبل ٠

ثمانية مكاسب اسرائيلية من الحرب الأهلية في لبنان

المقدم الهيثم الأيوبي

بدأت الحرب الاهلية اللبنانية منذ ١٨ شهرا بين طرفين محليين تصاعد التناقض بينهما الى درجة جعلت من المتعذر الوصول الى حل مقبول بالوسائل السلمية · وكان من الممكن ان يحسم أحد الطرفين النزاع لصالحه ، فيحقق اغراضه، ويفرض ارادته ، ويؤمن بالتالي مصالحه على حساب الطرف الاخر · ولكن الامور لم تجر بهذا الشكل ، فلقد تدخلت في الصراع منذ بدايته (بشكل مباشر او غير مباشر) اطراف عربية ودولية ، فامتنع الحسم السريع ، وطالت الحرب ، وأصبح بالامكان اعتبار الطرفين المتنازعين خاسرين ، طالما انهما تكبدا ما تكبداه دون ان يحققا اغراضهما ·

ورغم الخسارة المتبادلة في المعسكرين الداخليين المتحاربين ، فان هناك اطرافا خارجية رابحة من بينها اسرائيل · وسواء كانت الدولة الصهيونية قد استغلت عدم استقرار التوازن الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ الطائفي في لبنان ، وشاركت في التخطيط لاندلاع النزاع بغية اقتناص المكاسب ، ام انها اغتنمت فرصة الصدام وأفادت منه ، فان من المؤكد أنها كانت على رأس قائمة المنتفعين من الدم العربي المسفوك على الارض اللبنانية · وهذا ما سنبرهن عليه في هذا المقال ·

مشاغلة المقاومة واستنزافها :

اعتمدت اسرائيل في مجابهتها العسكرية مع المقاومة على عدة اساليب متكاملة ومتوازية هي : ١ ـ كشف خلايا الداخل وضربها ، ٢ ـ فصل القواعد الخارجية عن القواعد الداخلية ، ٣ ـ استخدام الحرب السرية لمطاردة قادة المقاومة خارج الارض المحتلة ، ٤ ـ ضرب قواعد المقاومة في الاراضي العربية المضيفة بقوات اسرائيلية برية أو جوية ، ٥ ـ القيام، او التهديد بالقيام ، بعمليات ردعية ضد أهداف فلسطينية أو عربية ، بغيةخلق تناقض بين الامن الفلسطيني وأمن البلد العربي المضيف ، يؤدي الى صدام عربي ـ فلسطيني تقوم به القوات المسلحة العربية بمهمة استنزاف المقاومة واشغالها أو تصفيتها ان أمكن ٠

ولم تكن الاساليب الثلاثة الاولى تلاقي في العادة اعتراضا عالميا عنيفا، كما كانت نتائجها تتناسب مع الجهد المبذول لتحقيقها ٠ في حين كان الاسلوب الرابع ، وخاصة القصف الجوي ، يثير ردود فعل عالمية غير ملائمة ، ويشوه سمعة اسرائيل في المجتمع الغربي ، ويهدد بتفجير خلاف اميركي ـ اسرائيلي على الاسلوب ، ولا يؤدي الى نتائج عملية تتناسب مع الجهد المادي المبذول والخسائر المعنوية والسياسية التي تتعرض لها الدولة الصهيونية، ويعطي المقاومة على العكس فرصة خلق الملاحم البطولية ، واكتساب التعاطف الجماهيري العربي ، وتحقيق مزيد من التوسع والتجذر ٠ ولقد شرح زئيف شيف صعوبة هذا الاسلوب نظرا لانتشار القوات الفلسطينية في جميع انحاء لبنان تقريبا ، وقال : « ان تصفية القوة المحاربة للفلسطينيين ، ستتطلب اكثر من عملية قصيرة ٠ واية عملية تؤدي الى نتائج فعلية ، ستكون طويلة ومرهونة باحتلال مساحات كبيرة من الارض ، بما في ذلك مخيمات لاجئين، وتورط داخل المدن ٠ وستكون هناك ضرورة ، في نهاية الامر ، الى استخدام اجزاء كبيرة من الجيش الاسرائيلي في هذه العملية ٠ ونظرا الى ان هذه عملية طويلة ، فانها قد تتدهور الى حرب مع سوريا ومع دول عربية اخرى ٠ وكانت اسرائيل تتجاهل هذه الاخطار ، لو ارادت حقا جر سوريا اليوم الى حرب شاملة » (١) ٠

لهذا كله كانت اسرائيل تفضل دائما اللجوء الى الاسلوب الخامس الذي حقق نجاحات ملحوظة في نهاية الستينات ، وادى الى شحن القوات المسلحة الاردنية واستخدامها لضرب المقاومة في ايلول ١٩٧٠ : ولقد جرت عملية شحن القوات المسلحة اللبنانية بالشكل نفسه منذ ان بدأ التواجد الفلسطيني المسلح الكثيف في جنوبي لبنان ، وتصاعد التسخين الردعي الاسرائيلي مع تنامي المقاومة على هذه الساحة العربية ، ونجم عن ذلك

عدة مصادمات مسلحة ، وصلت الى ذروتها في احداث ايار ١٩٧٣ ، التي كانت صورة مصغرة لايلول ١٩٧٠ ٠

بيد ان بنية المجتمع اللبناني المعقدة المعتمدة على التوازنات ، وحجم القوات المسلحة اللبنانية وتكوينها الداخلي ، اعطت الضربة اللبنانية خصوصية مميزة ، وجعلتها تختلف عن الضربة الاردنية من ناحية العنف والاساليب ودفعت السلطة الى الاعتماد في العام ١٩٧٥ على الميليشيات الطائفية، التي لم تبدل طبيعة الضربة واهدافها ، وان كانت قد اكسبتها مظهرا مغايرا لما جرى في الاردن ، وحولتها من عملية قمعية تقوم بها القوات النظامية ، الى حرب أهلية تشنها السلطة والميليشيات المؤيدة لها ضد المقاومة والقوى الوطنية المتحالفة معها ٠

وتم استنزاف المقاومة ومشاغلتها بقوى لبنانية طوال سنة كاملة ، فانخفضت عملياتها ضد العدو الصهيوني من نيسان ١٩٧٥ الى اذار ١٩٧٦ الى حوالي ٨٠ ٪ من مجموع عملياتها في الفترة المقابلة من العام السابق ٠ ووصل الاستنزاف الى ذروته عندما تجمعت العوامل التي ادت الى تزعزع الحلف الاستراتيجي بين سورية من جهة والمقاومة والحركة الوطنية من جهة اخرى ، ووقع الصدام بين أصحاب الهدف الواحد والمصير الواحد، فخسرت المقاومة في الصدام اعدادا كبيرة من المقاتلين والكوادر ، وانشغلت بالقتال ضد القوات السورية وبصد الهجمات التي شنتها بقايا السلطة وميليشياتها ، فانخفضت عملياتها ضد اسرائيل في فترة نيسان ايلول ١٩٧٦ بشكل خطير ، مع ان النمو المادي والمعنوي للمقاومة كان يفترض تزايد هذه العمليات بدلا عن تناقصها ٠ ولولا عدد من العمليات المنفذة من قبل خلايا الداخل ، وانتفاضات سكان الارض المحتلة التي زادت خلال الاحداث لساد اعتقاد بان العمل ضد العدو الصهيوني قد توقف ٠

تكريس فكرة فسيفسائية الشرق الاوسط ٠

ان الكيان الصهيوني المزروع داخل العالم العربي كيان دخيل لا يستطيع البقاء على المدى التاريخي في خضم عربي متجانس متماسك ، لانه يبقى مهما اتسع ، جسما غريبا عن المنطقة اتنيا وحضاريا ، ومعرضا بالتالي للانتزاع ٠ ولا تستطيع اسرائيل تثبيت وجودها كدولة اقلية عنصرية تيوقراطية الا اذا كانت المنطقة المحيطة بها عبارة عن مجموعة فسيفسائية ، تضم اكبر عدد من دويلات الاقليات العرقية والدينية ٠ وعلى هذا الاساس حاول وايزمان في كتابه عن القومية العربية ، ودون كبير نجاح ، تقديم البراهين على ان

العرب لم يعرفوا الوحدة طوال تاريخهم ، ولم يملكوا يوما مقومات الامة المتكاملة ، وان العالم العربي مجموعة من دويلات تسكنها تجمعات بشرية من عروق مختلفة لا يجمعها رابط قومي أو حضاري ٠ وعلى هذا الاساس ايضا كانت اسرائيل ، منذ ان وجدت ، تحارب الوحدة العربية ، وتؤيد الفكر القطري والحركات الانفصالية مهما كان نوعها وتعددت منطلقاتها (تدعيم الانفصاليين في جنوبي السودان ، ومحاربة الوحدة المصرية السورية كفكرة وكحقيقة قائمة منذ شباط ١٩٥٨ حتى ايلول ١٩٦١ ٠ ومساندة العصيان الكردي في شمالي العراق تسليحيا وتدريبيا ٠٠٠ الخ)٠ ويذكر اوري دان ان اسرائيل عملت في العام ١٩٥٨ لصالح السلطة اللبنانية بغية عدم تغيير الوضع القائم في لبنان « فعندما نشبت الحرب في لبنان انذاك ، وكان هناك خوف من تغيير الوضع القائم فيه ، سارع حاييم لاسكوف رئيس الاركان ، الى اصدار اوامره بحشد قوات في الشمال ،حتى دون ان يسأل دافيد بن غوريون ،رئيس الحكومة ووزير الدفاع انذاك ،لان الخط الاحمر كان واضحا ٠٠٠ كما ان ايسر هريئيل ، المسؤول عن المخابرات ، ابلغ بن غوريون ، بأنه يعمل من اجل عدم تغيير الوضع الداخلي في لبنان ٠ بل انه سافر في جولات بعيدة لضمان ذلك ، دون ان ينتظر تصديق (بن غوريون) عليه ٠ هكذا اهتم المسؤول عن اجهزة المخابرات ، ورئيس الاركان ـ بتأييد من رئيس الحكومة ـ بتمكين المسيحيين من الصمود في لبنان ، حتى لا تجد اسرائيل نفسها في مواجهة جبهة جديدة خطرة »(٢) ٠

ولقد كان من الطبيعي ان تستغل اسرائيل الاحداث اللبنانية لتكريس فكرة الفسيفسائية وتعميقها ، مستندة في عملية الاستغلال الى الطابع الطائفي الذي اخذته الحرب الاهلية ، والى مقولات بعض اطراف المعسكر اليميني الانعزالي التي لم تهاجر من الفكر العربي الى الفكر القطري اللبناني فحسب ، بل ابتدعت ايضا ما اسمته «الامة » المارونية ، لتكون ملاذها الاخير بعد هجرتها من الفكر القطري نفسه ٠ واذا كان الطابع الطائفي للحرب قد اعطى اسرائيل مجالا لنقض مقولة الدولة الديمقراطية التي طرحتها المقاومة الفلسطينية كحل للنزاع العربي ـ الاسرائيلي (وهو نقض مهزوز سنرد عليه في مقال لاحق)، فان التأكيد على وجود «الامة » المارونية (وهو تأكيد خاطيء يحرف تاريخ الطائفة المارونية العريقة في عروبتها ، ونترك للاخوة مفكري الموارنة المجال لدحضه)، والمناداة بضرورة الدولة المارونية المعزولة عن العالم العربي ، والمرتبطة مباشرة مع الغرب ، يمنح اسرائيل مبررا جديدا لوجودها كدولة عنصرية دينية تشكل رأس جسر غربي متقدم في عالم عربي نام « اسلامي الطابع »٠

ويلاحظ من يتابع الاعلام الاسرائيلي خلال الاحداث اللبنانية ان الدولة

الصهيونية لم تترك الفرصة تفوتها · فلقد اكد البروفسور مردخاي افير تأييد اسرائيل للاقليات العرقية في العالم العربي ، وأشار الى ان القومية العربية كانت تضغط على المسيحيين في لبنان وتسعى لتصفية الطابع الخاص لدولتهم والتوجه الغربي لحضارتهم (٣) · وفي حديث مع مندوبي «البوند» في الولايات المتحدة قال شلومو افنيري ، المدير العام لوزارة الخارجية :«ان في الشرق الاوسط مجالا لتعدد الحركات الوطنية ، وانه ينبغي العمل لافشال المساعي العربية لخلق شرق اوسط موحد يضم العرب المسلمين جميعا » (٤) · والاخطر من ذلك أن أفنيري استعار في الحديث نفسه مقولة متطرفي الانعزاليين حول الكيان الماروني عندما قال : « لا استطيع رؤية حل لبناني لا يشترك فيه ابناء **الشعب** الماروني **كشعب** له حق تقرير المصير » (٥) ·ويضرب بيغال الون على الوتر نفسه عندما يؤكد انه « ليس بوسع إسرائيل التسليم بتسوية لبنانية تؤدي الى تدمير **الشعب** الماروني العريق » (٦) · وهكذا تستغل اسرائيل الحرب الاهلية اللبنانية لتعميق الفكر **الانفصالي** ، وتدعيم الدعوات المشبوهة المعادية للفكر القومي العربي الذي يشكل اكبر تهديد لاسس وجودها المصطنع في المنطقة ·

تشويه سمعة المقاومة سياسيا وعسكريا

لا تزال اسرائيل تتبنى منذ وجودها سياسة عدم الاعتراف بوجود شعب فلسطيني ، وترفض كل القرارات الدولية التي تطالبها بتطبيق حق هذا الشعب في العودة وتقرير المصير ، وتعتبر الفلسطينيين عربا جاؤوا من الصحراء الى « ارض اسرائيل » خلال الفتح العربي ـ الاسلامي ، وليس عليهم اليوم سوى العودة الى الصحراء ، والعيش في الاقطار العربية ، والاندماج مع سكانها (يلاحظ اليوم ان الاعلام اليميني اللبناني يردد هذا القول بلا كلل)·

وما ان رفعت المقاومة البندقية في العام ١٩٦٥ حتى ظهر امام اسرائيلخطران هما : الكفاح المسلح الذي جابهته بالعنف القمعي ، وظهور الشخصية الفلسطينية المستقلة الذي جابهته بحملة تشويه مستمرة · وعندما تنامت المقاومة واخذت حجما سياسيا عالميا ، استخدمت اسرائيل اسلوب الالتفاف واعلنت اكثر من مرة أنها ترفض الاعتراف بمنظمات المقاومة ، ولا تقبل اي مفاوضات مع الفلسطينيين المسلحين ، وتعتبر الاردن الطرف المفاوض الوحيد المؤهل للتحدث باسم الفلسطينيين ، وكان لها في موقف الحكومةالاردنية انذاك مبرر سياسي · ولكن اضطرار الحكومة الاردنية الى التخلي عن تمثيل الفلسطينيين، وموافقتها على مقررات مؤتمر القمة السابع في الرباط (٢٦ـ٢٩ تشرين الاول ١٩٧٤) حول اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الوحيد للشعب

الفلسطيني ، وقيام هيئة الامم المتحدة بدعوة رئيس اللجنة التنفيذيةللمنظمة لحضور جلسات الجمعية العامة في تشرين الثاني ١٩٧٤ ،ووجود مندوب للمنظمة في الكثير من المؤتمرات والهيئات الدولية . افقد اسرائيل حجتها ، ووضع في مجابهتها منظمة فلسطينية معترفا بها دوليا ، ولهذا كان عليها تكثيف حملتها لتشويه سمعة هذه المنظمة وتجريدها من بعض انجازاتها السياسية ٠

ولقد وجدت الدولة الصهيونية في الحرب الاهلية اللبنانية مادة دسمة للتشويه ٠ فاستغلت النزاع السوري ـ الفلسطيني ، وكررت ما تبثه وسائل الاعلام اللبنانية اليمينية من ترهات حول تصرفات المنظمة ونواياها ، وأكدت ان المنظمة ستخرج من الحرب الاهلية اللبنانية ضعيفة ، ودعمت محاولات النظام الاردني الراميّة الى تجاوز مقررات مؤتمر الرباط والعودة الى المسرح كممثل للشعب الفلسطيني ٠ ولقد اعلن اسحاق رابين سياسة اسرائيل في هذا المجال عندما قال : « لقد اثبتت منظمة التحرير الفلسطينية من دون شك انها جسم سرطاني في نسيج العالم كله ٠ والظروف الدولية القائمة حاليا مؤاتية لشن حملة اعلامية واسعة تستهدف ، من ضمن امور اخرى ، الحد من نفوذ المنظمة وتأثيرها » (٧) ٠

وتدخل اسرائيل من نافذة ما يجري في لبنان لاظهار المقاومة كمؤسسة عسكرية غير كفؤة ، وعاجزة عن الصمود امام « القوات اللبنانية » المحدودة ، وعاجزة بالاحرى عن الصمود امام القوات الاسرائيلية الاكبر من القوات اللبنانية بما لا يقارن ، وغير قادرة بالتالي على تطوير نضالها المسلح الى مستوى حرب التحرير الشعبية ٠ وغرض اسرائيل من كل ذلك احباط همة الشعب الفلسطيني ، واطفاء جذوة حماسته للكفاح المسلح ، ودفع الجماهير العربية الى فقدان الثقة بقدرات المقاومة على تحقيق النصر ٠

تفتيت الصف العربي

يشكل التضامن العربي ، حتى في حالاته الاولية البسيطة ، احدى روافع قلب ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي ٠ ولقد اخذ هذا التضامن خلال حرب تشرين شكلا مقبولا الى حد ما ، واعطى عددا من النتائج الايجابية ، وكان مما أثبتته هذه الحرب ، ان اندلاع القتال ضد العدو الصهيوني عامل يجمع كلمة العرب على اختلاف مشاربهم وايديولوجياتهم ، كما أثبتت سنوات الهدوء التي سبقت الحرب وتلتها ، ان طرح الولايات المتحدة لمشاريع السلام (مشروع روجرز قبل حرب تشرين ومشاريع كيسنجر للحل السلمي بعد هذه الحرب) ، وتوقف الصراع المسلح مع العدو الخارجي بانتظار مخرج سياسي ، يخلقان المناخ المناسب لشرخ التضامن العربي الداخلي ٠

وفي الوطن العربي أكثر من سبب محلي وايديولوجي لتفجر الصراعات العربية ولكن السبب الاول والاهم هو تباين المواقف من الصراع العربي – الاسرائيلي · وتباين وجهات النظر حول دور المقاومة السياسي واساليب عملها العسكري ضمن اطار هذا الصراع · وبسبب هذا التباين وقع الصدام الذي تحول الى حرب اهلية متعددة الاطراف · ووجدت كل دولة عربية (وعالمية) المجال لتقديم الدعم المادي والسياسي والاعلامي الى الجانب المنسجم مع استراتيجيتها ، وأصبحت الاراضي اللبنانية مسرح صدام بين عرب التسخين وعرب التهدئة ، عرب اميركا وعرب معاداة اميركا ، ووقفت سورية الى جانب المقاومة والحركة الوطنية ، حليفتها ضد معسكر اتفاق سيناء ، وبقي الامر كذلك حتى الشهور الاولى من العام ١٩٧٦ ، التي باتت فيها امكانات الحسم العسكري ضد اليمينيين الانعزاليين على الابواب ·

· والحقيقة ان اسرائيل كانت تراقب انذاك الاحداث اللبنانية عن كثب . وتستعد لاستغلالها بضربة عسكرية مفاجئة ، مستفيدة من صرخات الاستغاثة التي أطلقها كميل شمعون من السعديات ثم من الكفور ضد ما أسماه « بالاجتياح السوري » · ولم يكن التدخل العسكري بعيدا عن استراتيجيتها المعلنة · ولقد ساد في المستوطنات الاسرائيلية الشمالية قلق كبير في مطلع العام ١٩٧٦ على اثر قيام جيش لبنان العربي ، وسقوط الدامور ، وسيطرة المقاومة والحركة الوطنية على جنوبي لبنان ، ودخول وحدات من الجيش السوري وجيش التحرير الفلسطيني (القادسية وحطين)الىالاراضي اللبنانية وكانت وسائل الاعلام الاسرائيلية تضغط باتجاه خلق المناخ الدولي المناسب للتدخل استنادا الى عدة اعذار يمكن اجمالها بما يلي : حماية المستوطنات ، واملاء الفراغ الامني في جنوبي لبنان ، وحماية المسيحيين ، والابقاء على لبنان القديم الاخذ بالزوال من الخريطة ، ومنع القوات السورية والقوات الفلسطينية النظامية من اجتياز نهر الليطاني (٨) ·

وفي هذه الفترة بالذات تفاقم التفتت العربي ووصل الى اسوأ حالاته عندما دب الخلاف بين حلفاء الامس ، وتحول بسرعة الى صدام مسلح بين المقاومة والحركة الوطنية وجيش لبنان العربي من جهة ، وسورية والمنظمات اللبنانية المتحالفة معها من جهة اخرى · وتضاعفت الخلافات العربية ، وتزايدت امكانات التدخل العربي الخفي لدعم المقاومة وحلفائها ·

ووجد اليمينيون الفرصة المناسبة لالتقاط انفاسهم واستعادة توازنهم والقيام بهجوم مضاد ، فرفعوا شعار « تحرير » لبنان من الفلسطينيين « الغرباء » (وهو شعار اقليمي مرفوض قوميا) وشعار توحيد الوطن الذي كانوا يلوحون

بتقسيمه من مواقع الهزيمة ، الامر الذي يثبت انهم يفضلون الانكفاء الى دويلة صغيرة طائفية عنصرية ولا قومية في حالة احتمال تحول لبنان الى بلد عربي وتقدمي (الى حد ما) · ولكنهم لا يرفضون العودة الى لبنان موحد ، اذا أمن لهم ميزان القوى العسكري تطهيره من الفلسطينيين والقوى الوطنية، واعادة بنائه وفق مفاهيمهم ، ليكون تحت حكم الاقلية المستغلة التي عملت منذ العام ١٩٤٩ على عزل هذا الجزء من العالم العربي عمليا عن قضايا العرب المصيرية ، وعلى رأسها قضية فلسطين ·

وبسبب هذا الوضع الجديد ظهر عامل اخر زاد حدة التناقضات العربية وتفتت الصف العربي · والمستفيد الاول من هذا الوضع هو اسرائيل التي صرح رئيس وزارتها اسحق رابين بقوله ، « ان العالم العربي لا يستطيع ـ في الوقت الذي تتركز فيه جهوده السياسية والعسكرية الرئيسية في لبنان ـ تحرير نفسه للاهتمام بأي نوع من المحادثات مع اسرائيل · سواء حول اتفاق عام او حول انهاء حالة الحرب »··· « وهناك كذلك انخفاض في خطر قيام تنسيق عسكري عربي لمجابهة اسرائيل » (٩) ·

خنق الرئة اللبنانية :

ان وجود بلد عربي مزدهر اقتصاديا ومتطور الى حد ما يشكل تحديا حضاريا لاسرائيل ، ونقضا لادعاءاتها بأنها القلعة الغربية المتقدمة في عالم متخلف · ولقد كان لبنان ـ حتى بشكله القديم وسياسته غير العدوانية ازاء اسرائيل ـ عبارة عن بداية تحد حضاري · وكان من الممكن ان يأخذ هذا التحدي حجما اكبر لو ان لبنان القديم كان دولة علمانية تسود فيها العدالة والمساواة ، وترتفع فيها راية العروبة عاليا ·

ومهما كانت طبيعة النظام الذي سيسود في لبنان بعد انتهاء الحرب ، ومهما تسارعت وتيرة اعادة البناء وارتفع حجم المساعدات العربية خلال المرحلة المقبلة، فان مستوى التحدي الحضاري الذي سيشكله لبنان سيكون ـ ولمدة غير قصيرة ـ منخفضا بسبب : ١ ـ الخسائر المادية الكبيرة التي أصابت البنية التحتية الاساسية للاقتصاد اللبناني ، ٢ ـ اهتزاز الثقة باستقرار النظام ، ٣ ـ هجرة الادمغة والكفاءات واليد العاملة الفنية واحتمال عدم عودة جزء كبير منها اذا ما دامت الحرب الاهلية مدة تكفي لاستقرار المهاجرين في المهجر ، ٤ ـ الدمار الذي أصاب المؤسسات العلمية ومؤسسات الخدمات ، وما تحتاجه عملية اعادة بنائها من جهد ومال ، ٥ ـ الشرخ النفسي الشاقولي الذي أصاب المجتمع اللبناني، ٦ ـ تدهور سمعة الفرد اللبناني في الخارج بسبب الفظائع المرتكبة خلال

الحرب ، والمخالفات الصارخة والثابتة وثائقيا لكل قوانين الحرب واعرافهـا وشرائعها واخلاقياتها ، والتجاهل الكامل للقانون الدولي العام الذي تشكـل المعاهدات الرامية الى تنظيم الحرب وتأنيسها جزءا منه ٠

ومن الطبيعي ان اسرائيل (بالاضافة الى دول اخرى عربية وغير عربية) افادت وستفيد من هذا الوضع ٠ وتعتبر الدولة الصهيونية ان فائدتها ستكون اكبر بكثير اذا ما أمكن التوصل الى حل ينهي حالة الحرب بين العرب واسرائيل، ويعيد العلاقات بين دول المنطقة الى الوضع الطبيعي ، لان انعدام المنافسـة اللبنانية التجارية والثقافية والسياحية ، سيجعل اسرائيل العميل التجـاري الرابح بين منتجي العالم الرأسمالي ومستهلكي العالم العربي ، ومحطة السياحة الاولى على الشاطيء الشرقي للبحر الابيض المتوسط ٠

وبالاضافة الى كل ذلك ، فقد كان لبنـان بؤرة اعلامية مفتوحة على العالم وكان مهاجروه المنتشرون في كل بقاع العالم سفراء غير رسميين يعملون فـي المجتمعات التي اندمجوا بها لمجابهة الاعلام الصهيوني ٠ ولقد حققت اسرائيل من الحرب الاهلية في هذا المجال مكسبين : **اولهما** تحويل جزء من المهاجريـن الى دعاة ضد المقاومة الفلسطينية يقدمون الى اسرائيل خدمة اعلامية مجانية، **أما الثاني** : فهـو منع الاعلام اللبناني من الاشعـاع الـى الخارج بسبـب انقطاع المواصلات والانشغـال بالاعـلام الداخـلي ، وحرمان الاعـلام التقدمي العربي القوي في لبنـان من متابعـة رسالته في تثوير المنطقة العربية وكشف مخططات الامبرياليين والتصفويين ٠

ومن المؤكد ان اسرائيل لا تكتفي بهذين المكسبين ، بل تأمل مع عدد كبير من الدول والقوى الاجنبية والعربية ، **بأن تؤدي الحرب الى وأدبدايات الفكر التقدمي** الثوري المتنامي في لبنان ، والذي يمكن ان يتحول الى «كوبا فكريـة »تشارك في ايقاظ العقل العربي وتثويره وقطع شبكة العنكبوت التي يحيكها حولهالاعلام الرسمي المبستر والمفوت في كثير من الاقطار العربية ٠ كما تأمل مع الـدول والقوى المذكورة ، بأن يتوصل اليمين الى اجهاض بدايات تنظيم القـوى الوطنية والتقدمية ، التي تشكل بفكرها وممارساتها وتحالفها مع المقاومـة نموذجا يمكن ان يشكل ، اذا ما انتشر عـلى امتداد الوطن العربي ، عامـلا ديناميكيا في مسيرة التحول الراديكالي التي لا يمكن أن تكون الا ضد اسرائيل والامبريالية الداعمة لها ٠

الحصول على صك الغفران

بنيت اسرائيل على العدوان ، وتغذت بالعنف القمعي ، وعاشت ولا تـزال

تعيش تحت ظلال الحراب · ولقد ارتكبت الصهيونية خلال تاريخها الدامي الكثير من الجرائم ، ومارست المجازر المخططة ضد الشعب العربي عامة والفلسطيني بشكل خاص ، وبنت مع الايام جدار الدم الذي ما زال يرتفع يوما بعد يوم · ولقد أدان الرأي العام العالمي تصرفات الصهاينة قبل العام ١٩٤٨ وبعده ، واتخذت المنظمات الدولية والاقليمية بحق اسرائيل عدة مقررات ، واعتبرت الصهيونية نوعا من العنصرية · وظهرت اسرائيل ، رغم كل محاولات اميركا لتبرئتها ، دولة عنصرية قمعية لا تختلف عن جنوبي أفريقيا · الامر الذي دفع مفكري العالم المتحررين من عقدتي « اللا سامية » و« الصليبية » الى مهاجمة الكيان الصهيوني كفكرة وكممارسة · ودفع عددا من الاسرائيليين التقدميين (وخاصة من حزب «راكاح» ومنظمة « ماتسبن ») الى كشف فظائع اسرائيل ومخالفاتها لحقوق الانسان · ووصل العنف الاسرائيلي ، خلال عمليات قمع انتفاضات سكان الارض المحتلة، الى درجة دفعت أوري أفنيري الى القول :

« لقد استخدمت اليد القوية ، وعندما لم تنجح استخدمت يدا اقوى » ·· « لقد وصل الاحتلال (الاسرائيلي) الى مرحلة كلاسيكية ، وسيضطر الى ان يكون اكثر شراسة ، واكثر وضوحا ، واكثر انكشافا أمام انظار العالم »(١٠)

ولقد حاولت اسرائيل دائما تبييض صفحتها ، او تبرير اعمالها السادية (النابعة من عقدة القهر الدائم وحياة الغيتو وافران معسكرات الابادة) بحجة الدفاع عن النفس ضد الخطر العربي ، ومقاومة « الارهاب » الفلسطيني · وأعطاها العرب في بعض الحالات فرصا جيدة لتغذية اعلامها « التنظيفي »، ولكن افضل ما قدموه لها في هذا المجال هو الشكل الطائفي الذي اخذته الحرب الاهلية اللبنانية في كثير من مراحلها ·وتتمثل مكاسب اسرائيل هنا بالنقاط التالية :

١ ـ استغلال المجازر الطائفية الوحشية ، وعمليات النهب والحرق والخطف والقتل على الهوية وتدمير اماكن العبادة وقتل رجال الدين ··الخ، لاعطاء العالم صورة رهيبة عن الانسان العربي الوالغ في دم اخيه · وتبهيت صورة مجازر دير ياسين والسموع وغزة ومدرسة بحر البقر ومصنع ابي زعبل ومخيم نهر البارد ، عن طريق مقارنتها مع الصورة الحية للمجازر الجماعية في لبنان (الانطباع الاسوأ يطرد الانطباع السيء) ·

٢ ـ استغلال الخوف الغريزي لدى مسيحيي الجنوب ، والذي زاد من تأججه الاعلام الطائفي ومجريات الحرب الاهلية نفسها ، وتقديم الدولة الاسرائيلية كدولة « انسانية » تحمي القرى المسيحية الحدودية وتدافع عنها

ضد « عـدوان » المسلمين واليساريين والفلسطينيين ، وتسمح بلجوء المسيحيين اليها اذا ما تعرضوا للخطر · ولقد لجأ عـدد من سكان القرى المسيحيـيـن بالفعل الى اسرائيل · في اواخر العام ١٩٧٥ ومطلع العام ١٩٧٦ ،وخاصـة بعد معـركة الدامور ·

٣ ـ استغلال الازمة الاقتصادية الناجمة عـن الحرب للقيام بمبـادرة « انسانية » تتمثل بما يلي :

ـ شراء المحصولات الزراعية وخاصة التبغ · ولقد اقدمت اسرائيل بالفعـل على شراء صفقتي تبغ من رميش (عـدة اطنان)، ثم توقفت بحجة غـلاء الاسعـار التي يطلبها اللبنانيون ·

ـ بيع بعض المحصولات الزراعية كالبيض والملح والبصل الى الفلاحيـن بالعـملة اللبنانية ، عـلى اساس ان سعـر الليرة اللبنانية يعـادل ٥ر٢ ليرة اسرائيلية ، مع ان السلطات المصرفية ترفض صرف الليرة اللبنانية بأكثـر من ٣٥ر٢ ليرة اسرائيلية · وذلك لاقناع الفلاحين بأن الجيش الاسرائيلـي « الطيب جدا » يتحمـل فرق السعـر · وتذكر المصادر الاسرائيليـة ان اللبنانيين اشتروا خـلال شهر اب ١٩٧٦ بحوالي مليون ليرة اسرائيلية ، وأن الملح كان اهـم المشتريات (١١) ·

ـ تشغـيل العـمال اللبنانيين اعتبارا من ٢٨ـ٧ـ١٩٧٦ بناء على قـرار اعـلنه مدير عـام وزارة العـمل اريبه غورال · وذلك في مجالات : البنـاء والتبغ والتـحريج والقطاف · ويحتمل أن تبلغ امكانات التشغـيل حوالـي ٥٠٠ عامل سوف يتقاضون اجورا مشابهة لاجور العمال الصهاينة في الاعمال المماثلة (١٢) ·

ـ السماح للرعـاة بالاقتراب من السياج المكهرب لرعـي مواشيهم ، علما بأن الاقتراب من السياج كان محظورا ويعرض من يقدم لرمايات المراكـز والدوريات الاسرائيلية ·

٤ ـ استغلال النقص الفادح في الخدمات الطبية في الجنوب لتقديم خدمـة «انسانية » اخـرى تتمثـل في معـالجة المرضى والمصابين في اسرائيل · ففي ٣ تشرين الثاني ١٩٧٥ اقترح وزير الصحـة الاسرائيلي فكتور شمطـوف مساعـدة لبنان بالمـواد الطبية واستقبال المرضى ، وبدأ عـدد محدود مـن اللبنانيين من قرية القليعـة الدخـول الى اسرائيل للمعالجة عبر فتحات فـي « السياج» · ثم فتح الاسرائيليون مستوصفين في المطلة (قرب كفر كـلا)

ودوفيف (قرب رميش) ٠واتسع نطاق العملية بعد ذلك ليشمل ارسال المرضى والمصابين الى مستشفى صفد أو حيفا ٠ ويدعي العدو الاسرائيلي ان عدد اللبنانيين الذين تلقوا العلاج « حوالي ٥٦٥٦ شخصا في الفترة الواقعة بين ١٥ نيسان و١٥ اب ١٩٧٦ » (١٣) ٠

٥ ـ بالاضافة الى هذه الخدمات »الانسانية » قامت اسرائيل بمد انبوب مياه داخل الاراضي اللبنانية قرب رميش ، وأمنت المحروقات والخدمات البريدية للقرى الحدودية ، وفتحت الباب امام المزارعين لزيارة المستوطنات ومناقشة سكانها حول المسائل الزراعية ، وقدمت الارشادات الزراعية للفلاحين اللبنانيين وسمحت لهم بلقاء أهلهم القاطنين في الجليل ،وتصرفت على العموم كدولة « مسالمة متحضرة »، في الوقت الذي كان فيه جنودها يصادرون اراضي الفلسطينيين ويهجرونهم ويستعملون معهم كل ضروب العنف والتنكيل !

تخفيف حالة العداء وتنمية العلاقات الطبيعية ٠

ان من التبسيط الكبير للامور القول بأن سياسة « السياج المفتوح » التي لجأت اليها اسرائيل في جنوبي لبنان منذ تشرين الثاني ١٩٧٥ وتوسعت في تطبيقها في اوائل حزيران ١٩٧٦ لا تعدو ان تكون عملا اقتصاديا ـ طبيعيا دعائي الطابع فالمسألة في جوهرها سياسية ـ أستراتيجية ٠ ومن المؤكد ان السياسة التي اطلقت عليها دافار (٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٧٦) اسم سياسة « السياج اللطيف » لا تستهدف فقط الدعاية ، أو نشر صور الفلاحين الجنوبيين المتشبثين بأسلاك « السياج »وسطولهم بأيديهم ، أو بث احاديث المسلحين الكتائبيين المتسللين من جونية الى قرى الجنوب عبر اسرائيل ، بل تتوخى أيضا تحقيق هدف استراتيجي ـ نفسي يتمثل في تخفيف حدة العداء العربي ـ الاسرائيلي ، وتنمية العلاقات الطبيعية مع سكان الجنوب (موارنة كانوا ام شيعة)، واقناعهم بان الدولة الصهيونية لا تريد بهم شرا ،وان كل ما لحق بهم من اذى على يد الاسرائيليين من قبل كان ناجما عن وجود المقاومة الفلسطينية بينهم ٠ وان ابتعاد هذه المقاومة (المشغولة في صد الهجمات اليمينية في مختلف ارجاء البلاد ، وغير الراغبة حاليا في تشتيت قواها لتثبيت وجودها في الجنوب) أزال العامل الذي كان يدفع اسرائيل الى قصف الفلاحين الجنوبيين ، وخطفهم ، واحراق مزروعاتهم ، وتهديم مساكنهم، واجبارهم على الهجرة الى حزام البؤس المحيط بالعاصمة للقيام بالاعمال السوداء لقاء أجر محدود ٠

وبعد تحقيق هذا الغرض ، وتكريس التناقض بين أمن الفلاح الجنوبي وأمن

المقاتل الفلسطيني ، تستطيع اسرائيل الانتقال الى المرحلة التالية من مخططها عبر تسليح العناصر المتطرفة في الجنوب ، وتقديم الضمانات الامنية والوعود بالمساعدة العسكرية لسكان القرى الحدودية ، على أمل ان تتحول سلسلة القرى الحدودية الى حزام أمني يحجم فيه القرويون عن مساعدة المقاومة خوفا من الضربات الردعية ، في حين تقوم العناصر المتطرفة بمهمة مخافر مراقبة متقدمه بعمق عدة كيلومترات بعيدا عن الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية · ولقد بدأت هذه المرحلة بالفعل ، واستطاعت اسرائيل خلق مجموعات انعزالية في قرى القليعة وعين ابل ودبل ورميش وعلما الشعب ، وقدمت اليها عددا من الاليات ، وربطتها بمخافر الحدود الاسرائيلية سلكيا ولا سلكيا ، حتى تسمح لها بطلب النجدة والدعم الناري عند اللزوم ·

وبالاضافة الى هذا المكسب النفسي المؤهل للتحول الى مكسب استراتيجي، فان اسرائيل تسعى من وراء «« السياج اللطيف » الى مكسب سياسي يكون مع الجسور الاردنية المفتوحة ، ومرور البضائع في قناة السويس ، دليلا اضافيا على امكانية التعايش مع العرب ، رغم اغتصاب الارض الفلسطينية وتشريد أهلها ، ورغم الصراع الدامي منذ عشرينات هذا القرن ·

وليس هذا المكسب هدفا بحد ذاته ، ولكنه وسيلة يمكن ان توضع في يد كيسنجر للرد على المعتدلين العرب ، الذين قبلوا بانهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، ولكنهم رفضوا الصلح معها نظرا لحالة العداء العنيف الناجم عن صراع طويل ، وتركوا هذه المسألة للاجيال المقبلة · كما انه حجة تقدمها اسرائيل الى الاميركيين (الذين يطالبون الدولة الصهيونية بانسحابات معقولة من الاراضي العربية) لاقناعهم بأن استمرار الاحتلال الاسرائيلي للاراضي لا يخلق المناخ لاندلاع حرب عربية ـ اسرائيلية خامسة ، ولا يؤثر بالتالي على مصالح اميركا في المنطقة ·

اكتساب تعاطف الادارة الاميركية :

ان التوافق الاميركي ـ الاسرائيلي على اخضاع الامة العربية أمر ثابت لا يحتاج الى مزيد من الايضاح· ولكن هذا التوافق لا يعني بالضرورة تطابق الاغراض والوسائل · واذا كان غرض الاميركيين من السيطرة ضمان مصالحهم الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة ، فان غرض اسرائيل بناء دولة صهيونية واسعة تضم معظم يهود العالم ، وتفرض وجودها السياسي ـ العسكري على الوطن العربي ، وتشارك الرأسمالية العالمية في عملية الاستغلال · وهكذا نرى ان الفرق بين الغرضين هو في الحقيقة ما يميز الاستعمار الجديد عن الاستعمار القديم ·

ولكل استعمار وسائله · ولذا فان من الطبيعي ان لا تتطابق وسائل الاستعمار الاميركي الجديد المناسبة لطبيعة العصر ، مع وسائل الاستعمار الاسرائيلي المستعارة من الوسائل الاوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر · ومن عدم التطابق المذكور تأتي عادة الخلافات بين الحكومات الاسرائيلية الراغبة في استخدام القوة المادية المجردة واساليب الارهاب والتشريد والاقتلاع لزرع المستوطنين الجدد ، والحكومات الاميركية التي ترى أن من الضروري اللجوء الى أساليب حاذقة ، مخادعه ، أريبة ومعصرنة ، تمزج بين الخرق النفسي ، والمساعدة الاقتصادية ، والتلويح باستخدام القوة ، وتعتمد في العمل المادي العنيف على شحن القوى التقليدية المفوته في البلد المنوي اخضاعه ، وربط مصالحها بمصالح الرأسمالية العالمية المعادية اساسا لمصالح جماهير البلد ، ودفعها عند اللزوم لضرب القوى المتقدمة التي تهدد مصالح اميركا ، مع الحفاظ على اسرائيل القوية كقوة احتياطية استراتيجية ، تستخدمها عند الضرورة القصوى كآخر وسيلة محلية لضرب الدول العربية التي يفشل فيها مخطط الاخضاع المعصرن ، وتبدأ بازعاج الولايات المتحدة وتهديد مصالحها ·

لهذا كله ، كان للولايات المتحدة منذ ١٩٦٧ اسلوبها الخاص في مجابهة حركة المقاومة الفلسطينية والدول العربية الراديكالية وازمة الشرق الاوسط بشكل عام · وكان هذا الاسلوب مختلفا في اغلب الاحيان عن الاسلوب الاسرائيلي العنيف ، ولكنه لا يستبعده نهائيا ، بل يدخله كعامل ضاغط من جملة العوامل المستخدمة ·

وكان للولايات المتحدة ايضا اسلوبها الخاص لمعالجة الحرب الاهلية اللبنانية ، بكل جوانبها المحلية والعالمية ، كجزء من معالجة مسألة الصراع العربي ـ الاسرائيلي · ويتسم الاسلوب الاميركي بتجنب استخدام القوة بشكل مباشر ، والاكتفاء بتفتيت الصف العربي ، واستنزاف المقاومة في لبنان بقوى محلية وخلال مدة طويلة ، حتى تنتهي الانتخابات الاميركية وتبدأ عجلة الحل السلمي الكيسنجري بالدوران من جديد ، ويتم عقد اجتماع مؤتمر جنيف والعرب مفتتون متناحرون ، والمقاومة الفلسطينية مدجنه او محتواة ، وفاقدة لحرية القرار السياسي ·

ولم تكن اسرائيل في البداية تعارض هذا المخطط الذي يخدم مصالحها مجانا · ولكن تلاحق هزائم اليمينيين في اواخر العام ١٩٧٥ ومطلع العام ١٩٧٦ ، وسيطرة القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية على معظم المواقع ، وتواجدهما المسلح الكثيف في الجنوب ، ودخول القوات السورية ووحدات من جيش التحرير الفلسطيني الى لبنان ، خلقت وضعا جديدا دفع اسرائيل

الى التفكير بالعودة الى استراتيجيتها التي تفرض عليها عبور الحدود الى عمق البلاد العربية المجاورة والقيام بهجمات اجهاضية (وقائية) محدودة أو واسعة النطاق « لمد يد المساعدة للحلفاء العلنيين أو غير العلنيين (الموجودين أو المحتملين) في دولة عربية أو اخرى ، او في حالة تغير الوضع الراهن في دولة مجاورة لاسرائيل بشكل مهدد لاسرائيل بصورة قاطعة » (١٤) ٠

ولهذا ظهرت في اسرائيل اتجاهات قوية للتدخل في لبنان . « وعدم الاكتفاء بالتفرج على الحرب من على الشرفة »، وعدم ترك الامور تتدهور الى الحد الذي يصبح فيه لبنان بلد مواجهة تعمل عليه المقاومة بحرية ٠ وكانت كل **العوامل المحلية** تسمح لاسرائيل بالتدخل ،وتعطيها المبرر السياسي لاحتلال الجنوب وتحقيق اغراضها التوسعية ٠ ولم يكن الزعماء الاسرائيليون بعيدين كثيرا عن هذا التفكير ، ولكنهم لم ينتقلوا من الفكرة للعمل ٠

ويرجع احجام اسرائيل عن تطبيق استراتيجيتها ، وقبولها بالتخلي عن جزء من عقيدتها العسكرية المعلنة ، والتخلي عن فرصة التوسع ، الى **عامل خارجي** يتعلق بتوازن موقفي واشنطن وموسكو ازاء الازمة ، وبرغبة اسرائيل في اكتساب تعاطف الادارة الاميركية وعدم عرقلة مخططاتها الداخلية والخارجية ٠ وكانت الولايات المتحدة قد اعلنت اكثر من مرة أنها ضد اي تدخل اجنبي في الحرب الاهلية ٠ وهي لم تعارض التدخل السوري منذ بدايته بل اعتبرته وسيلة معقولة لحل الازمة وطلبت من اسرائيل عدم الرد عليه بعمل عسكري « لان الاميركيين لا يرون اي بديل معقول للتدخل السوري » (١٥)، و« لان الولايات المتحدة تشى نشوب حرب شاملة في **الشرق** الاوسط ٠ وتعتقد ان امكان انتخاب فورد سيتضاءل كثيرا اذا نشبت الحرب في المنطقة »(١٦) ٠

والحقيقة ان اسرائيل ، التي ازداد ارتباطها الحياتي والامني بالمساعدات الاميركية بعد حرب ١٩٧٣ ، لم تكن تستطيع استفزاز الادارة الاميركية وتحميل الرئيس فورد هموما اضافية فوق همومه الانتخابية ، خاصة وان احتمالات بقائه في سدة الرئاسة الاميركية اربع سنوات اخرى لا تزال كبيرة ٠ ولقد رأت ان من مصلحتها استغلال الحرب الاهلية اللبنانية عن طريق اقراض الرئيس فورد ووزير خارجيته دفعه على

الحساب ، تتمثل في عدم التدخل العسكري في لبنان ، حتى يتذكرا هذا الدين بعد الانتخابات · خاصة وان الوضع على خدود اسرائيل الشمالية لم يتدهور بشكل يهدد امن الدولة الصهيونية الى الحد الذي يجبر الاسرائيليين على مخالفة اميركا ·

• وعلى هذا الاساس بدأت التراجعات الاسرائيلية الرسمية ، وتناقصت التهديدات بالتدخل لاحتلال الجنوب (وان لم تنته بشكل قاطع) ، واختفى « الخط الاحمر » الجغرافي (نهر الليطاني) الذي حددته اسرائيل في بداية التدخل السوري ، واعتبرت ان اجتيازه من قبل السوريين سيفرض عليها التدخل عسكريا ، وحل محله « خط احمر » غامض غير محدد المعالم « هو مجموعة اعتبارات تتعلق بالمكان الذي توجد فيه قوات سورية ، وحجم هذه القوات ، والهدف من دخولها ، ومدة بقائها في لبنان» (١٧) ، وذلك لاعطاء الحكومة الاسرائيلية امكانية واسعة لتبرير عدم التدخل ، اذا طلب منها الاميركيون ضرورة ضبط النفس ، ورأت ان عليها عدم مصادمتهم ·

★ ★

وهكذا تدور رحى الحرب الاهلية اللبنانية لتطحن الشعبين اللبناني والفلسطيني ، ويستمر نزيف الدم ضمن اطار «لعبة الامم » ،ويدفع الخاسران الرئيسيان كل ثمن الحرب ، بينما يقف على الشرفة متفرجون يعدون النقط ، ويحسبون الارباح التي تأتيهم مجانا · وعلى الشرفه رابحون صغار يكسبون ما يتناسب مع حجمهم ومستوياتهم وطموحاتهم ، ورابحون كبار يحولون الدماء والدموع والدمار الى مكاسب استراتيجية ، وفي مقدمة هؤلاء الرابحين تقف اسرائيل ·

المصادر

١ ـ هآرتس ، ٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٦

٢ ـ معاريف ، ٣٠ ـ ١ ـ ١٩٧٦ ·

٣ ـ معاريف ، ١٩ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ ·

٤ ـ ر ا ا ، العدد ١٠٤٠ ·

٥ ـ المرجع نفسه ·

٦ ـ دافار ،٢٧ ـ ٦ ـ ١٩٧٦ ·

٧ ـ دافار ، ٦ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ ·

٨ ـ يديعوت احرونوت ،١٩ ـ٣ـ١٩٧٦

١٠ ـ هاعولام هازيه ، ٢٤ـ ٣ـ ١٩٧٦

١١ ـ تقرير خاص صادر عن مركز التخطيط الفلسطيني بعنوان « الجنوب والجولة القادمة » ، ١٦ ـ ٩ ـ ١٩٧٦ ، ص ٦ ·

١٢ ـ المرجع نفسه ، ص ٧ ·

١٣ ـ المرجع نفسه ، ص ٦ ·

١٤ ـ ييغال الون ، انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي ،دار العودة،ص ٢٤٨

١٥ ـ يديعوت احرونوت ، ١٦ ـ٦ـ٩٧٦

١٦ ـ هآرتس ، ١١ ـ ٦ ـ ١٩٧٦ ·

١٧ ـ هآرتس ، ١٦ ـ ٦ ١٩٧٦ ·

الجنوب

مروان ناصر

للمناطق الحدودية في كل الاوطان وفي كل الازمان طبيعة خاصة تتميز بالحساسية والتأرجح وعدم الوضوح ، حتى في فترات السلم والاستقرار ، وحتى عند الامم المكتملة النمو القومي والسياسي ، ذلك انه اذا كان التمايز بين البلدان المتجاورة يبدو واضحا وحاسما في مناطقها الداخلية ، فان مناطقها الحدودية غالبا ما تكون على تداخل بشري ولغوي مع البلدان المجاورة الامر الذي يشكل مصدر غنى وفير على صعيد التمازج البشري ، ومصدر مشاكل دائمة على الصعيد السياسي ، ولقد كان نمو اقلية مجرية على الحدود المجرية ـ اليوغسلافية ، واقلية تشيكية على الحدود المجرية ـ التشيكية الخ ٠٠ مصدر اضطراب سياسي دائم في اوروبا الوسطى وفي البلقان حتى تمت تسويات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، كما ان تأرجح مقاطعتي الالزاس واللورين بين فرنسا والمانيا مثال صارخ على هذه الحقيقة ، فحتى عندما كانت الحروب تحسم هذا التأرجح لمصلحة هذه الدولة او تلك ، ظل التمازج الالماني ـ الفرنسي هو الطابع المميز لهاتين المقاطعتين ، بغض النظر عن وضعهما الجغرافي ـ السياسي ٠

ليس لهذه المقدمة العامة علاقة مباشرة بموضوع الجنوب اللبناني المتاخم لفلسطين المحتلة ، سوى التأكيد على ان التحديدات الجغرافية على

الخريطة ليست كافية لتحديد معالم الفصل الحدودي بين دولتين ، فسياسة الامر الواقع على الحدود هي الاقوى ، حتى في ايام السلم والاستقرار ، فكيف في ايام الصراعات الطويلة الممتدة ، والتي لم يتم الحسم فيها بعد ؟

لمحة تاريخية

وضع الجنوب اللبناني المتاخم لفلسطين لم يبدأ بالظهور على موائد المخططين السياسيين في القرن العشرين منذ قيام دولة اسرائيل فقط ، بل منذ ان وضعت خريطة البلدان العربية الخارجة من حطام الامبراطورية العثمانية في اعقاب الحرب العالمية الاولى على موائد الدول الاوروبية المنتصرة ، سواء في محادثات سايكس – بيكو الشهيرة التي انتهت بخريطة واضحة لتقاسم المغانم في المشرق العربي بين فرنسا وبريطانيا ، او تقارير لجنة كينغز – كرين التي اعتبرها المجتمع الدولي (الاوروبي – الاميركي في ذلك الحين) استفتاء لدول المشرق العربي حول الدول الغربية التي يفضل ان توضع بلاده تحت لوائها في ما اصطلح يومها على تسميته بـ « الانتداب » .

فمنذ تلك الايام ، ومنذ ان انحصر الصراع على لبنان وفلسطين بين فرنسا وبريطانيا ، ادخلت المنطقة الحدودية بين البلدين حلبة صراع خرائط المشاريع الجغرافية – السياسية بين القوتين الدوليتين ، فبالاضافة الى التأرجح التاريخي السياسي المستمر لجنوب لبنان بين فلسطين ولبنان ، فان علاقاته الاقتصادية والبشرية بفلسطين تشكل واقعا مستمرا يتداخل مع واقعه الجغرافي – السياسي .

ولو كان المشروع السياسي المطروح انذاك مشروع وحدة عربية ، لتحول هذا الواقع الجنوبي الرجراج الى همزة وصل بين لبنان وفلسطين ، يغني ويدعم التداخل القومي بينهما ، اما والمشروع استعماري تتنافس فيه دولتان كبيرتان ، فقد انصبت محاولات فرنسا على استغلال علاقتها الخاصة بالموارنة لتحريك وتأليب القرى المسيحية في الشريط الحدودي باتجاه يضمن بقاء تلك المنطقة داخل الحدود اللبنانية اثناء رسم خريطة لبنان الكبير وبعد ضمان وضع لبنان تحت الانتداب الفرنسي ، بينما كانت بريطانيا تشد المنطقة في الاتجاه المعاكس ، معتمدة على العلاقات البشرية والاقتصادية الجنوبية التي تولي وجهها عادة صوب فلسطين . وليس مستبعدا ان يجد المتعمق في دراسة وثائق تلك الفترة دليلا على اهمية مياه الجنوب اللبناني بالنسبة لبريطانيا ، التي كانت سياستها الفلسطينية انذاك قد دخلت حيز تنفيذ وعد بلفور ، وانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين .

وقد ادى هذا التنافس الاستعماري المرتكز على تحريك معطيات الواقع المحلي ، الى صدامات دامية في تلك الفترة معروفة باسم « حوادث ١٩٢٠» (اعدت عنها دراستان واحدة بعنوان « مؤتمر الحجير » لمنذر جابر ، والثانية بعنوان « حوادث عين ابل » لالياس صادر)٠

غير ان هدوء التنافس البريطاني ـ الفرنسي بعد ذلك ، واستتباب الامور على اساس الحدود الدولية الحالية لكل من فلسطين ولبنان ، عاد بالحياة الى طبيعتها في تلك المنطقة بين عين ابل (مركز الاضطرابات الرئيسي انذاك) وسائر القرى المحيطة بها ٠

وكان من نتيجة الاهتمام الفرنسي المبكر بتلك المنطقة ، وبقراها المسيحية خاصة ، ضمن اطار العلاقات الفرنسية ـ المارونية المزدهرة منذ احداث ١٨٦٠ الطائفية ، قيام احتكاك مبكر لقرى الحدود المسيحية ، المتخلفة انذاك كسائر قرى الجنوب ، بالحضارة الاوروبية ، وانعكس هذا الاحتكاك بشكل رئيسي على قرية عين ابل ، اهم واكبر القرى المسيحية في شريط الحدود الجنوبية ـ الغربية ٠ ويذكر سكان بنت جبيل ـ مثلا ـ ان اول استاذ مدرسة عصري في بلدهم (يوسف بركات) كان يأتيهم من عين ابل على ظهر دابة ، في الوقت الذي كان فيه التعليم في بنت جبيل لا يزال في عصر « الكتاب » ٠ وظلت هذه العلاقات تنمو وتتصاعد ، فأصبحت مدرسة بنت جبيل الرسمية تستقبل الاساتذة والتلامذة من عين ابل ، كما ان مدرسة راهبات عين ابل تضم ٦٠٠ تلميذ من ابناء بنت جبيل ، من اصل ٨٠٠ تلميذ ٠

وبينما انخرط اهالي عين ابل في دورة اقتصاد الخدمات في بيروت (شركات الطيران ، المصارف ، وسائر فروع اقتصادالخدمات)، كانت قريتا دبل والقوزح تراوحان مكانهما في التخلف لعدة اسباب اهمها عزلتهما عن شبكة المواصلات وقد شاركتهما رميش حالة التخلف برغم اتصالها بشبكة المواصلات ، الامر الذي جعل اهالي رميش ، مثل العديد من القرى الجنوبية الاخرى ، يتعيشون على مورد رزق واحد هو زراعة التبغ، كما كثر انتماء ابناء هذه القرية بالذات الى سلك الجندية ٠

ومن المهم جدا ان نعرف ان قرية عين ابل التي تبدو الان في مركز الصدارة في الاستجابة للمخطط الاسرائيلي ـ الانعزالي بالنسبة للشريط الحدودي ، كانت القرية المسيحية الوحيدة من هذا الشريط التي دخلها تيار حركة التحرر العربية المعاصرة ، فقد التزم بعض ابناء عين ابل بتيار حزب البعث العربي الاشتراكي في الخمسينات ، وظل الالتزام الحزبي حتى انفجر

الصراع بين تياري صلاح جديد وحافظ الاسد في سورية ، ففك بعثيو عين ابل التزامهم الحزبي ، ليظلوا على ولائهم للتيأر البعثي العام ، ومع ان هذا التيار لا يضم في عين ابل سوى خمسة وثلاثين شخصا بالتحديد ، الا انه يشكل المجموعة الوحيدة ذات الالتزام السياسي المستمر والمتماسك .

اما الخريطة السياسية الكاملة لعين ابل ، فتضم الى جانب هذا التيار الواضح الالتزام الوطني ، تيارا اخر غير متماسك يضم اقلية تحركها العواطف الانعزالية ، اما الكتلة السكانية الاساسية في عين ابل فكانت وما تزال حتى الان معتدلة تتمسك بشروط التعايش الطبيعي بين مجموعة القرى الحدودية المتجاورة وحتى ان هذه الاكثرية ، ومع بداية العهد الشهابي ، بدأت تحاول التعبير عن تطلعاتها السياسية باتجاه لبناني تحديثي معتدل .

على طول هذا السياق التاريخي كانت رميش ، وحدها تنفرد بنوع من العلاقات السرية مع العدو الاسرائيلي ، حيث كانت الاستخبارات الاسرائيلية تصطاد بين اهالي رميش ، بشكل خاص ، مجموعة من المتعاونين ، تعلو الحاجة اليهم وتنخفض مع سخونة وبرودة الاوضاع على الحدود .

وكانت نشاطات التهريب بين جانبي الحدود هي النشاطات الدائمة بصورة شبه علنية وتحت كل الظروف ، وكانت رميش ايضا تحتل مركز الصدارة في هذه النشاطات .

فترة الحرب الاهلية

ومع ان الحرب الاهلية اللبنانية حملت بذورا طائفية منذ شراراتها الاولى، فقد ظلت مجموعة القرى المسيحية والاسلامية على الشريط الحدودي في حالة هدوء، برغم الانهيار الكامل لاي رادع سلطوي يلجم اي فوران للمشاعر الطائفية ، بل على العكس من ذلك ، بالرغم من وجود كل عناصر الاغراء بتحريك الغرائز الطائفية ، وذلك سواء بدافع من اسرائيل او باندفاع وراء الجو العام الذي طغى على الحرب الاهلية فترة من الزمن ، ومع انفلات اجهزة الاعلام الخاصة التي راحت تركز يوميا على الشحن الطائفي المباشر والمكشوف والمحموم ، ومع اغراء سهولة انقضاض الاكثرية الطائفية على الاقلية الطائفية .

ومن المفيد في هذا المجال ، وقبل محاولة تفسير هذا الواقع ، الاستشهاد ببعض الاحداث التي تثبت ان عدم استجابة شريط القرى الحدودية للغرائز

الطائفية واقع سياسي حقيقي وعميق الجذور يتجاوز ما يسمى بـ« التعايش الاخوي » بين الطوائف ·

فعلى الرغم من ان موجة الخطف والذبح على الهوية وفقا للانتماء الديني والطائفي قد اجتاحت بيروت وضواحيها في اواسط الازمة وراح ضحيتها اعداد لا يستهان بها من ابناء الجنوب والقرى الحدودية ، فلا ردود الفعل العفوية ، ولا استفراد مجموعة صغيرة من القرى المسيحية على الحدود البعيدة اديا الى موجة خطف ثأرية · حتى ان عددا من ابناء بنت جبيل بالذات كانوا قد ذهبوا ضحية موجة خطف وذبح في بيروت ، لم ترتفع مطالبة بردود ثأرية من الجوار المسيحي سوى اصوات قليلة خائفة ما لبثت ان خنقها الموقف الوطني الواعي لابناء بنت جبيل · ولم تسجل هذه الفترة السوداء سوى حادث ثأري واحد في تلك المنطقة بين قريتي ياريين ومروحين ، لم يلبث ان طوق واعتقل الفاعلون ، ولم يسمح له بالتحول من حادث فردي الى موجة جماعية ·

واذا كانت فترة « الجسور المفتوحة » الحالية بين اسرائيل والجنوب تسترعي الاهتمام والدراسة واستخلاص العبر ، فان فترة عدم استجابة الشريط الحدودي المتخلف والمحروم والمتروك فريسة الضغوط المتنوعة لموجات الغرائز الطائفية التي صبغت فترات معينة من الحرب الاهلية اللبنانية ، وكانت عنوانا بارزا لبعض هذه الفترات ، هذه الفترة تستحق هي الاخرى الالتفات والدراسة واستخلاص العبر · بل ان من الواضح ان فهم الحجم الحقيقي والاسباب الحقيقية لعملية «الجسور المفتوحة » ، والمعتمدة في بعض جوانبها على تحريك المخاوف الطائفية ، غير ممكن الا بالمقارنة بالفترة السابقة الممتدة من بداية الحرب الاهلية ، حتى بداية فترة « الجسور المفتوحة»·

ان عدم استجابة الشريط الحدودي لموجات المد الطائفي في الحرب الاهلية اللبنانية يتجاوز كما قلنا المفاهيم السطحية لـ « التعايش بين الطوائف »، ويثبت ان التنويعات الطائفية في تركيبة المجتمع اللبناني ، حتى في اكثر مواقع تخلفه ، لا تتحول الى تحركات سياسية الا اذا كانت هناك يد ترسم وتخطط ، وتتوجه عمدا الى تحريك التركيبة الطائفية للمجتمع اللبناني ، وتحويلها الى تحركات سياسية في هذا الاتجاه او ذاك ·

على ضوء هذه الحقيقة يمكننا الانتقال بسهولة ووضوح لاستعراض واقع « الجسور المفتوحة »، متجنبين الوقوع في فخي التهويل والتهوين، فنضع اليد على الاسباب الحقيقية وعلى عوامل توسع او ضيق رقعة

« الجسور المفتوحة » في المستقبل ٠

ما من شك في ان المواقع الحدودية تكون في فترات الصراع مواقع نموذجية ، تبدو على جوانبها مضخمة ومجسمة كل عوامل الضعف وكل عوامل القوة عند الاطراف المتصارعة ، ليس على الصعيد العسكري فقط ، بل ايضا على الاصعدة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ٠

وهكذا ، يمكننا رسم صورة الجنوب اللبناني كتعبير عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي كما تفهمه وتمارسه الحكومات العربية (وخاصة الحكومة اللبنانية) وكما تفهمه وتمارسه الجماهير العربية ، وكما تفهمه وتمارسه اسرائيل ٠

فبالاضافة الى ما هو معروف عن تسخير اسرائيل لكل ارصدتها الداخلية والخارجية ، المادية والبشرية ضمن خطة استراتيجية متكاملة لادارة صراعها مع العرب، فقد كشفت نصوص الرسائل المتبادلة بين بن غوريون وموشيه شاريت حول الوضع اللبناني ، والعامل الطائفي في هذا الوضع ، وامكانيات استغلال العنصر الماروني ، عن ان التعمق في فهم تركيبة المجتمع المقابل على الجانب الاخر من خط الصراع ليس هما يقتصر على رجال الفكر والثقافة في اسرائيل ، بل هو من صلب هموم رجال السياسة الذين يرسمون خطط الصراع ويديرون عملية تنفيذها في الوقت نفسه ٠

يقابل هذا الواقع على الجانب اللبناني الرسمي سياسة رسمية للدولة ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، كان من اوضح المعبرين عنها الرئيس الاسبق شارل حلو ، عندما اعتبر نجاة لبنان من هزيمة العرب في معركة ١٩٦٧ دليلا على حكمة الخطة اللبنانية الرسمية المعتمدة ، على ابقاء لبنان خارج اطار الصراع العربي الاسرائيلي ٠

وبين هذين الخطين الرسميين الاسرائيلي واللبناني ، تتململ الجماهير اللبنانية العربية الانتماء ، لتجد لنفسها مكانا مناسبا تمارس فيه دورا في الصراع ضد اسرائيل وهي تقاوم ثلاثة عوائق كبرى : القوة الاسرائيلية الرادعة الجاثمة على صدرها ، التخلف والحرمان ، سياسة التهرب من التحدي التي اعتمدتها الدولة اللبنانية خطة دفاعية رسمية ٠

بالاضافة الى هذه المعالم الجنوبية التي يمكن ان تميز اية منطقة حدودية

اخـرى ، فقد اخـذ الجنوب يكتسب اهمية متزايدة بالنسبة للصراع العربـي ـ الاسرائيلي لعـدة اسباب :

١ ـ الاطماع الاسرائيلية التاريخية فـي الجنوب ، والتي كانت مخـطـطة ومعبرا عنها بوضوح ودقة حتى قبل انشاء دولة اسرائيـل ، وذلك نظـرا لحاجة اسرائيل الى مياه الليطاني ٠

٢ ـ تحول الجنوب اللبناني بعد عام ١٩٧٠ بالذات ، الى منطقة تخـرج الى حد بعيد من تحت سلطة منطق التهرب اللبناني الرسمي ، الى تحت سلطـة منطق المقاومة الفلسطينية ، سواء كمنطقة تمركز وتدريب ، او كنقطة انطـلاق للعمليات داخـل حـدود الارض المحتلة ٠

٣ ـ التلاصق الجغرافي بين الجنوب اللبناني والجليل الفلسطيني ، وهـو التلاصق الذي اصبح يقلق اسرائيل اكثر فأكثر بعـد انتفاضة الجليل الكبـرى في مطلع هـذه السنة ردا عـلى محـاولات الاستيلاء عـلى الاراضي العربية للسير فـي مشروع تهويد الجليل ٠ والخـطر هنا مزدوج فالجليل هو اكبـر مراكز التجمع العربي في الارض المحتلة عـام ١٩٤٨ ، ثم ان دافـع الانتفاضة الاخيرة هـو اخـطر الدوافـع ، دافـع التعلق بالارض وبهويتها العربيـة كوطن وليس كمورد رزق فقط ٠

٤ ـ كون الجنوب ، بسبب الحرمان والتخلف الشديدين والكثافة السكانية العالية ، منطقة حبلى بالتيارات الثورية ، وارضا خصبة قابلة لاي بـذور ثورية تلقى فيها ٠

شريط « الجسور المفتوحـة » والتوتر العسكري

الى كل هذه العـوامل السابقة للحرب الاهلية اللبنانية ، اضيفت في الفترة الاخيرة عـوامل جديدة اهمهـا عاملان :

١ ـ بروز الاثار الاقتصادية التموينية التي شملت لبنان باسره اثناء الحرب الاهلية ، وبشكل اكثر حدة في الجنوب ، بسبب التخلف والحرمان التقليديين، وبسبب اعتماد قطاعـات سكانية كبيرة في الجنوب عـلى زراعـة منفردة هي زراعـة التبغ ، فهـو عـنوان البحبوحة او الفاقة في حالي الازدهـار او الكساد ٠ وقد كان اكثـر عـوامل هـذه الظاهرة حـدة فـي الفترة الاخيـرة تعطل جميع مستشفيات الجنوب القريبة من الحدود ، بما فـي ذلك المستوصفات

الثلاثين ، بالاضافة الى المستشفى النقـــال الذي كان يديره وينفق عليـــه مجلس الجنوب ، ولقد وصل الامر في الفترة التي سبقت ورافقـــت بداية « الجسور المفتوحة » الى حد اقفـــال المستوصفات الثلاثين اقفالا تامـــا ، لافتقارها الى جميع انواع الادوية وابسط المواد الطبية ، حتى ان مستشفـــى صور الرسمي كان ، حتى الفترة الاخيرة ، يفتقر الى مادة البنج ٠.

٣ ـ مع ان عـــين ابـل بالذات قد اغـرقت بالمواد التموينية فـي اشـــد لحظات الازمة ، فقد كان هناك اهمال واضـح ازاء بعض القرى المسيحيـــة الاخرى ، حيث كانت تهمـل الطلبات التي تقدمها لجان شعبية من هـذه القرى، بسبب عـدم وجـود ممثلين عن احزاب الحركة الوطنية في هـذه اللجـــان، كما ان قيادة الجنوب السابقة فـي جيش لبنان العربي ، ارتكبت خـــطأ عدم قبول انضمام عناصر قرية رميش الى جيش لبنان العربي وعـدم دفـــع رواتبهم ٠

واذا كانت هذه هي الخلفية العامة التي تحركت فوقها سياسة « الجسـور المفتوحة » ، فقد اصبح واضحا الان ان الخلفية السياسيـــة لهـذا التحـــرك قدمتهـا فترة الجزر التي دخـلت فيها المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنيـة اللبنانية بعـد انقلاب ميزان القوى لغير صالحـها فـي اعـقاب التدخـــل العسكري السوري في لبنان ، وهو الوضع الذي وصل الى ذروته بسقـــوط مخيم تـل الزعتر بعـد صمود اسطوري ٠

ولقد بدا واضحـا عـلى اثـر « الثقة بالنفس » التي اكتسبها المعسكـــر الانعزالي في اعـقاب سقوط تل الزعتر انه راح يحـاول استغـلال الوجـــود السوري لتحريك مواقـع اخـرى ، طمعـا في تغيير وجـه هذه المواقع قبـل عـودة ميزان القوى الى وضعـه السابق ٠ وفـي هـذا المجال كانت التحركات المشتركة بين القوات الانعـزالية والقوات السورية في منطقة جزين وجوارها واضحـة المعـالم والمعاني ٠

وسط هذه العوامل كلها ، هبط عـين ابل سبعـة عشر مسلحـا ، منهـم خمسة عشر من ابناء عين ابل العائدين من القتال فـي تل الزعتر وعنصران غريبان عـن القرية ٠

لم يكن لدى اهالـي عين ابـل اي مبرر للـتجاوب مع هذا الوجود المسلـح الاستفزازي ، بعـد ان كانت احتياجاتهم التموينية مؤمنة بشكل ممتاز من خلال لجنتهم التموينية التي كانت تشكل صلة الوصل بينهم وبين المقاومة والحـركة

الوطنية ، كما كان وضعهم الامني ممتازا مع القرى المجاورة ومع الفصائل المسلحة للمقاومة والحركة الوطنية ، وبالفعل فقد طلبوا الى المسلحين مغادرة القرية والحوا في الطلب ، وامتنعوا في البداية عن اي تجاوب معهم ٠

غير ان هذا الجيب المسلح ترك من غير خطة للتصدي له وتطويقه في المهد ، ففرض وجوده القسري على عين ابل حتى اتيح له ان يفتعل الحادث الاستفزازي الذي ذهب ضحيته اربعة من عناصر المقاومة الفلسطينية وثلاثة من المسلحين الانعزاليين ٠ وقد اثبتت وقائع الحادث انه افتعل لاسباب سياسية ، وكان عاريا عن اية عوامل امنية او دفاعية (كما تم اخراجه وتصويره بعد ذلك) بدليل ان عناصر المقاومة لم تكن تقصد عين ابل ، بلكانت تمر بخراجها في دورية استطلاع لا علاقة لها بعين ابل٠ ويبدو ان عناصر الجيب المسلح قد نجحوا في استغلال هذا الحادث لخلق شعور من الفزع من وجود تهديد لامن عين ابل من قبل قوات المقاومة والحركة الوطنية ، فعقب الحادث تحرك بعض اهالي عين ابل عن موقفهم السلبي من الجيب المسلح ، بدليل ان عناصر هذا الجيب افتتحوا معسكرا للتدريب ، انضم اليه عدد من سكان القرية ٠ ثم اصبحت الحواجز والحواجز المضادة تقام بين مجموعة قرى الشريط الحدودي ٠ ويقول وطنيو تلك المنطقة ان وضع المنطقة الجغرافي يجعل المرء يستنتج بالبداهة ان اسرائيل هي طريق مرور وامداد هؤلاء المسلحين ، كما ان مساندتها لهم هي مصدر تجرؤهم واصرارهم على التحرش بجوارهم ، وعلى فرض نفسهم على عين ابل وغيرها من القرى المسيحية ٠ ويضيف هؤلاء الوطنيون ان المنطقة ملأى بالاخبار التي تقول ان مئات من المسلحين الانعزاليين يتلقون التدريب في اسرائيل لتأدية مهمة توسيع الجيب الانعزالي على الشريط الحدودي ٠

هذا التوتر العسكري ، كانت اسرائيل تمهد له وتواكبه بانفتاح «انساني» غريب ودقيق التوقيت على صعيد التموين والخدمات الصحية وكذلك على صعيد فرص العمل والتلويح بشراء موسم التبغ ، مستغلة بذلك التعثر الذي رافق تنفيذ التعهد العربي بشراء موسم التبغ بكامله ٠ ولكن يبدو ان أشد هذه الخدمات الاسرائيلية اغراء للسكان ـ بشهادة الجميع ـ هي الخدمات الطبية ، وهذا الاغراء بالذات يشمل المنطقة الحدودية بقراها المسيحية والاسلامية ٠ ولكن ليس معنى هذا ان الاستجابة عامة شاملة ٠ فمع ان منطق المستفيدين من هذه الخدمات بشكل عام ما زال هو منطق المتعامل

المضطر وليس المتعامل المفتوح القلب ، فأن عـددا كبيرا من الاهالي ما زالـوا يعتبرون التعـامل مع العـدو حتى في هـذا المجال الاضطراري تنازلا عـن وطنيتهم ، ويروي اهل عيترون قصة مواطنهم الذي ماتت ابنته بسبب عـدم توفر العـلاج ، واصراره على رفض الذهاب بها الى اسرائيل ٠

اما مجالات فرص العـمل للعـاطلين ، فقد انحصرت في عشرات من عمال المرجة الاولى ، بعد ان اكتشفوا ان الاجور متدنيـة ، وان فرص العمـل ليست مفتوحة بالشكل الذي يمكن فعـلا ان يحل مشكلة البطالـة لمنطقـة باسرها ٠ اما مسألة شراء التبغ فلم تتعـد مجال الدعـاية الكلامية ، فقـد اعترف مسؤول مصنع التبغ الاسرائيلي بعـد ايام قليلة بان العـملية لن تتـم بسبب ارتفاع الاثمان التي يطلبها مزارعو الجنوب ، وبالفعـل لم يتم بيـع اية كمية من التبغ اللبناني لاسرائيل ، خاصة وان عـمليات الشراء الليبي قد عـادت الى الانتظام ٠

كذلك ابتدأت المقاومة والحـركة الوطنية ، فـي هذه الاثناء بالتنبه ولو فـي وقت متأخر ـ للثغرات التي تسللت منها انسانية اسرائيل المفاجئة ، فتحسنت نسبيا حالة بعـض المستوصفات الطبية ، كما ان القيادة الجديدة لجيش لبنان العربي في الجنـوب سارعت الى اصلاح خطأ القيادة السابقـة فأعادت استقطاب عسكريي رميش وسائر القرى المسيحية ، ودفعت لهم بعض المتأخـر من رواتبهم ، كـما ان القيادة بدأت سلسلة من الاتصالات مـع اهالي عين ابل ورميش وسواهمـا ، وساهمت في امتصاص موجة الحواجز المتبادلـة بين القرى ، وذلك باحلال حواجز جيش لبنان العربي محلها ، على شبكـة الطرق التي تصل بين مختلف قرى الشريط الحـدودي ٠ غير ان الحصيلـة المـعامة للوضع ما زالت تسجل نجاحا اسرائيليا في خطين متوازيين متكاملين:

ـ محاولة تحريك مجموعـة القرى الحدودية المسيحية عـن طريق اثـارة مخاوفهـا من جهة ،ودفعها ـ بالتعـاون مع الاحزاب الانعـزالية ورغبتها فـي مد نفوذها الى قلب المناطق الجنوبية ـ الى توسيع الشقة مع جوارهـا والانجرار في الاعـمال العسكرية ضدها ، الامر الذي سيدفع هذه القـرى، اذا استمر الوضع وتطور للوقوع عسكريا ضدها في احضان اسرائيل ، التـي تبدو عندئذ « كسند » لهذه القرى ومورد « دعـم » لها ٠

ـ محاولة تمييع الوضع العـام فـي المنطقة الحدودية باسرها ـ بقراهـا المسيحية والاسلامية ـ عـن طريق استغـلال ثغرات التخلف والحرمان التـي تفاقمت مؤخـرا بموجات المهجرين من النبعـة وسواهـا ، وباشتداد الازمـة

التموينية وأزمة البطالة بفعل الظروف من جهة ، واستخفاف القوى الوطنية كلها بهذا الجانب الهام من المعركة · واسرائيل تعرف طبعا انها اعجز من ان تصل الى حل اية مشكلة اجتماعية او اقتصادية من مشكلات الجنوب، وهي الغارقة في هذه المشكلات حتى اذنيها ، ولكن هدف اسرائيل ليس طبعا حل هذه المشكلات ، بل استغلالها من اجل تحرك استعراضي تكسر به طوق الحصار النفسي والعداء الذي ما زال حتى الان معضلتها التاريخية الكبرى في المحيط العربي الذي افتعلت لنفسها وجودا فيه، وهي المعضلة التي لا يكفي لحلها توقيع اتفاقيات السلام مع الحكومات العربية ·

عن المستقبل : الاهداف والخطة

حتى الان ، ما زالت ردود الفعل على هذا الامر الواقع الجديد تتراوح بين الادانة الخلقية والوطنية للتعاون مع العدو ـ كحد ادنى ـ ومحاولة سد بعض الثغرات التي نفذت منها اسرائيل ، وخاصة الثغرات التموينية والطبية واجواء التوتر المسلح بين قرى الحدود ـ كحد اقصى ـ،وذلك وسط التخوف الشديد من جهة والاستهانة بما يحدث من جهة اخرى ·

غير اننا اذا كنا حقا نرى في كل ما حصل في لبنان مؤامرة مدروسة دفعت بعناصر الوضع اللبناني الى التصادم بشكل يخدم اهداف التسوية وفقا للشروط الاميركية (وتسلسل الاحداث يؤكد هذا التفسير) فمن الواجب سحب هذا المنطق على التصرفات الاسرائيلية الاخيرة في الجنوب وعندئذ سنجد امامنا الرد واضحا على مجموعة من الاسئلة الهامة :

ـ لماذا انتظرت اسرائيل حتى منتصف عام ١٩٧٦ لتحرك خطتها في الجنوب ، وتركت كل الفترة الزمنية الفاصلة بين مطلع عام ١٩٧٥ (بداية الازمة) ومنتصف عام ١٩٧٦ دون ان تجرب ما كانت قادرة على تجربته في اي وقت ؟

ـ لماذا تصرفت اسرائيل هذه المرة بما يكشف ، بوضوح عنتعاونها مع القوى الانعزالية اللبنانية ، واشراكها في بعض التحركات ، ووضعها في واجهة تحركات اخرى ؟

ـ هل ستتبع اسرائيل ذلك بتحرك عسكري تحقق بواسطته اطماعها « التاريخية » في المياه اللبنانية ، أم ستكتفي بايصال الخطة الى حد تحويل

الجنوب الى منطقة « ساقطة » عسكريا ؟

ما دامت المؤامرة مؤامرة تسوية ، فمن الواضح ان تحرك كل اطراف التسوية يسير منذ مدة باتجاه تحسين شروط التسوية وتكبير الحصص ٠

وبما ان الازمة اللبنانية قد عدلت في مواقع الكثير من اطراف التسوية، فكبرت حصص البعض وصغرت حصص البعض الاخر ، فقد كان لا بد لاسرائيل من الاسراع في انتزاع حصتها من الازمة اللبنانية ، لذلك لم تتحرك اسرائيل تحركا واضحا الا عندما دنت ساعة القطاف ، فارادت خلق واقع جنوبي لا يمكن لاحد تجاهله سواء راوحت الازمة مكانها ، أو تمت التسوية بالعودة الى دولة لبنان الموحد ، المسيطرة على كل الاراضي اللبنانية ، او انفجرت الازمة فادت الى تقسيم لبنان ، وبشكل تبقى فيه حصتها محفوظة في كل الاحوال ٠

وبما ان المؤامرة مؤامرة تسوية ، فقد فرض ذلك على اسرائيل اولا ادوات التحرك ، فكان لا بد من استبعاد تدخل القوات الاسرائيلية مباشرة في الجنوب ، واستبدالها بالتحرك المعتمد على استغلال الاوضاع الداخلية للمنطقة الحدودية ودفع هذه الاوضاع لدرجة تضعها تحت حكم اسرائيل تماما ٠

كذلك ، والى ان تنكشف كل الجسور السرية التي كثر الحديث عنها بين اسرائيل والقوى الانعزالية اللبنانية طوال فترة الازمة ، فقد حرصت اسرائيل، وقبل هدوء العاصفة (اذا هدأت) على ان تكرس علانية مبدأ هذه الصلة الجديدة المباشرة بينها وبين القوى الانعزالية اللبنانية ، بطريقة لا يعود هناك مجال لانكارها ، وبذلك تطرح اسرائيل حقيقة جديدة في الوضع اللبنانيلا يمكن تجاهلها في التفاعلات المقبلة داخل لبنان ، ومهما كان المسار الذي تتخذه الازمة وبشكل لا يجعل القوى الانعزالية وحدها صاحبة المبادرة في اخفاء العلاقة وابرازها حسب تطور ظروفها ٠

اما الهدف الثالث الذي تحققه اسرائيل بمحاولة خلق « الجسور المفتوحة»، وبصلتها الجديدة مع بعض قرى الشريط الحدودي وخلق وضع عسكري متوتر في بعض هذه القرى ، فهو اقامة حزام عسكري يتحكم بمواقع تسلل الفدائيين الى الارض المحتلة على الشريط الجنوبي ـ الغربي ، ويطوق بالتالي اتفاقية القاهرة ، فيما لو ادت التسوية الى احياء العمل بكافة بنودها ٠وهكذا لا تترك اسرائيل نفسها تفاجأ بامكانية احياء اتفاقية القاهرة ، او اي اتفاق

جديد اخر يضمن للفدائيين شيئا من حرية العمل والتحرك في الحدود الجنوبية . وبذلك لا تضمن اسرائيل فقط التطويق المبكر لاي احتمال بعودة نشاط المقاومة عبر الحدود الجنوبية فقط ، بل تحاول اضافة حاجز لبناني امام هذا النشاط هو مجموعة القرى التي يمكن ان تتحكم فيها القوى الانعزالية بدعم ومساندة من اسرائيل طبعا .وبديهي ان كل حد من امكانيات تحرك المقاومة ، يستتبع بالتالي مزيدا من تصغير حجمها في أية تسوية مقبلة ، بالاضافة طبعا الى الاغراض الامنية التي تحققها اسرائيل بمثل هذا الوضع .

هذا هو الواقع الجديد الذي بدأت اسرائيل تحاول خلقه في الجنوب ، ابتداء بالشريط الحدودي ، وليس ما ينفي امكانية محاولة اسرائيل توسيع رقعة هذا الواقع كلما سنحت لها الظروف .

وهذا الواقع الجديد ستجده امامها اية جهة ستتولى مسؤولية الحدود الجنوبية وفقا لمسار الازمة ، سواء في ذلك تحالف المقاومة والحركة الوطنية، او الدولة اللبنانية العتيدة التي قال رئيسها الجديد ان القتال الذي خاضه اللبنانيون داخليا طوال الحرب الاهلية لو خاضوه في حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣ ضد اسرائيل لاختلفت صورة لبنان اليوم .

وتبقى الحقيقة التاريخية الثابته والخالدة التي تقول ان المناطق الحدوديةلها دائما صفة الارض الطرية ، القوة الاقوى والاشد تصميما على جانبي الحدود هي الاقدر على وضع بصماتها عليها وطرح البذور فيها ، ولا يشذ الجنوب اللبناني عن هذه القاعدة .

١٩٧٦/١٠/١

الاتجاهات الامبريالية في مخططات اسرائيل الاقتصادية

حسين ابو النمل

مدخـــل :

هنالك كثير من الاسئلة السياسية الهامـــة المتعلقـة بالصراع العربـــي الاسرائيلي ، ما زال بدون اجوبة علمية محددة · وفي رأس هذه الاسئلة ، اسرائيل والصراع الطبقي ، والصراع الطبقي كوسيلة لتصفية الكيان الصهيوني العنصري في ارضنا المحتلة ·

ان الذي يعطي اهمية كبرى لهذه التساؤلات ، وبالتالي ضرورة ايجـــاد اجوبة لها ، هو ان قطاعات واسعة من حلفاء واصدقاء للثورة الفلسطينية مـا زالت تعول كثيرا على موضوعة الصراع الطبقي في اسرائيل وتعتبره العنصر الحاسم في الصراع · الامر الذي قادها الى قناعة خاطئة اخرى هي تبنيهـــا لموضوع الصلح مع اسرائيل متصورة ان مناخ السلم هو المناخ المناســـب لتفاقم الصراعات الطبقية في دولة العدو ·

ان الاجابة الصحيحة على جملة الاسئلة المطروحة انما تتوقف على المعرفة الصحيحة بالاساس الموضوعي الذي يقوم عليه مجتمـــع العدو ، والنقطـــة الاساسية انما هي الواقع الاقتصادي الاسرائيلي ، حاضرا ومستقبـــــلا ،

وبدون الالمام بها فان اي حديث عن الصراع الطبقي وما يتفرع عنه من مسائل سياسية ، يبقى مجرد لغو نظري لا طائل تحته · وفي هذا الصدد يحضرنا قول لينين في مقدمة الطبعة الفرنسية لكتاب الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية عن انه « اذا لم يدرك المرء الجذور الاقتصادية ·· اذا لم يقدر اهميتها السياسية والاجتماعية حق قدرها ، لا يستطيع ان يخطو خطوة في ميدان حل المهام العملية ···» · وكذلك المقولة اللينينية الشهيرة بان « السياسة هي اقتصاد مكثف ··» وبكلمة اخرى فان تعميق فهمنا لمسألة سياسية ما يعني بالضرورة تعميق فهمنا للوضع الاقتصادي الذي تتحرك على أرضيته ومن هنا فان نقطة البدء هي في محاولة رسم ملامح الاقتصاد الاسرائيلي ·

ان هذه المقالة ، ونظرا لضخامة ودقة الموضوع ، لا تدعي انها اكثر من محاولة اولية ومدخل للنقاش · لان الاجابة الكاملة تحتاج لدراسة تفصيلية وموسعة تجيب على كافة الاسئلة السياسية الاقتصاد المطروحة ، وكي يكون ممكنا لنا الوصول الى الاجوبة المطلوبة ·

ان الحديث عن الاقتصاد الاسرائيلي يجب ان يرى ضمن اطارين : الاول ، موقع اسرائيل في استراتيجية الامبريالية العالمية وعلاقاتها ومصالحها الاقتصادية · والاطار الثاني ، الاوضاع الاقتصادية الداخلية لاسرائيل ·وكلا هذين الاطارين يحدد مستقبل الوضع الاقتصادي الاسرائيلي وبالتالي اهداف ومخططات اسرائيل السياسية للمرحلة القادمة ·

ان النموذج الاسرائيلي ولاسباب عدة هو نموذج غير عادي ، في تطوره ونموه · وهذه الخصوصية تجعل من دراسة اقتصاد اسرائيل امرا صعبا ودقيقا الا انها لا تعني ان التجربة الاسرائيلية هي خارج اطار القوانين العلمية للماركسية ـ اللينينية التي تحكم سير التاريخ وسير الصراع في هذا العالم ·

مركز ومحيط الدول الامبريالية :

ان الاطار الاول الذي سنرى اسرائيل من خلاله هو ، تقسيم العالم غير الاشتراكي على النمط الامبريالي بين الدول الصناعية البرجوازية المتقدمة ـ الدول الامبريالية الرئيسية والتي يمكن لنا تسميتها دول (المركز) والدول البرجوازية التابعة التي ترتبط بشكل او باخر بالدول الامبريالية أي (محيط) الدول الامبريالية · وفي ضوء هذا الانقسام تتحدد الوظيفة الاقتصادية بين دول المحيط ودول المركز بالشكل الذي يضمن موضوعيا تبعية دول المحيط الى المركز · ان الامبريالية باعتبارها اعلى مراحل الرأسمالية حدد لينين سماتها وابرز هذه السمات تصدير رأس المال الى دول المحيط ليقوم بدور استغلالي ، كثافة رأس المال الموظف ، وتقسيم سوق العمل الدولي وسوق

المواد المنتجة ، بين دول المركز التي تقوم بتصدير المواد المصنعة ودول المحيط التي فرض عليها التخصص في تصدير المواد الخام التي تحتاجها دول المركز واستهلاك البضائع التي تنتجها الدول الامبريالية واستطرادا فان سوق العمل الدولي ينقسم ايضا على هذا النمط ويبقى محكوما بالدور الانتاجي الذي تتخصص به كل من دول المركز ودول المحيط · ولذا فان دول المركز تفرض عبر وسائل عدة نمطا معينا من التنمية الاقتصادية على دول المحيط الامر الذي يبقى هذه الدول اسيرة علاقاتها مع الدول الامبريالية وفي موقع العاجز عن تحقيق استقلالها السياسي والاقتصادي ، ويتضح هذا جليا من مراجعة العديد من الامثلة ، بحيث يمكن لنا القول ان الدول الامبريالية لم تساعد اية دولة من دول المحيط في بناء مشروع صناعي يمكن لنا اعتباره صناعة ثقيلة · ولا يقتصر الامر على عدم المساعدة بل يتعداها الىمحاولة تخريب محاولات بعض دول المحيط للقيام ببناء مثل هذه الصناعات الامر الذي يدفعنا للقول ان العلاقات الاقتصادية لدول المركز مع دول المحيط محكومة دائما وابدا بقرار سياسي تتحكم به المصالح السياسية والاقتصادية لدول المحيط · ويعبر خير تعبير عن هذا الامر ، قول مستشار المانيا الغربية عن « ان المساعدات الخارجية ليست واجبا اخلاقيا ، بل هي عنصر استراتيجي »· وبكلمة اخرى فان حاجة دول المحيط الماسة للمساعدة ليست هي الامر المهم ، بل المهم هو استراتيجية الدول المركز ·

صراع الدول الامبريالية لا يلغي وحدتها :

وبرغم صراعات الدول الامبريالية فيما بينها على دول المحيط ، فان الصراع يتجمد كليا عندما يصل الى حدود تستفيد منه دول المحيط ·

وعلى هذا الاساس فاننا نستطيع القول ان هنالك تطور (لا متكافيء)بين دول المحيط ودول المركز بحكم تفاوت نقطة انطلاق كل منهما ، الامر الذي يجعل وتيرة نمو دول المركز اعلى من وتيرة نمو دول المحيط · وفي هذا الصدد يمكن لنا استرجاع جوهر طرح كارل ماركس في كتابه مخطوطات ١٨٤٨ عن « الغني الذي يزداد غنى والفقر الذي يزداد فقرا »· وخلاصة القول ان اي تنمية لدول المحيط ستبقى محكومة بالفشل ما دامت هذه الدول مرتبطة بالسوق الامبريالي ومحكومة بعلاقاته ·

ان السمة الجديدة التي يمكن ملاحظتها في العقدين الاخيرين من القرن الحالي هي انخفاض نسبة رؤوس الاموال التي تصدرها دول المركز الى دول المحيط وتزايد رؤوس الاموال المتبادلة بين دول المركز نفسها · وذلك لان عملية استكشاف مصادر المواد الخام قد انتهت تقريبا في العالم · والذي

اسرائيل وبصفة خاصة في المناطق والمقاطعات ذات الاهمية الصناعية، مما يوضح قيمة المساهمة التي تحدثت عنها ـ اي المصدر الالماني الغربي ـ والتي كان اثرها بناء وفعالا باكثر من مجرد قيمة الارقام في ذلك الوقت بالذات ٠

ان مساعدات المانيا الغربية هي بالتأكيد « عنصر استراتيجي وليس واجبا اخلاقيا »، كما قال شميدت وعنصر استراتيجي بمعنى تدعيم وجود اسرائيل كعنصر هام في استراتيجية الامبريالية العالمية التي تقودها الولايات المتحدة والتي كانت قد اوكلت لالمانيا الغربية هذه المهمة ٠

ان التوقف مليا امام مساعدات المانيا الغربية كنموذج لما قدمته الدول الامبريالية لاسرائيل انما هو بهدف توضيح نمط العلاقات التي تقيمها الدول الامبريالية مع اسرائيل ، انها تعاملها ليس بوصفها من دول المحيط بل من دول المركز ، وهنا من الضروري تذكر الاتفاقية التي وقعتها دول السوق المشتركة مع اسرائيل في ٢٣ـ١ـ١٩٧٥ ، ونصوص تلك الاتفاقية تبين ان السوق المشتركة التي هي احدى المراكز الرئيسية للامبريالية في العالم ، تريد ان تدمج اسرائيل في هذه الكتلة وتعاملها على هذا الاساس ٠ وفي الوقت الذي تنص الاتفاقية على استيراد المواد المصنعة من اسرائيل وتعطيها المزيد من الاستثمارات والخبرات العلمية ، فان دول السوق تعطي لمصر مساعدات غذائية وتوقع اتفاقية مع دول المغرب العربي تنص على استيراد المواد الخام فقط !

لقد وفرت الدول الامبريالية على اسرائيل فترة طويلة من النمو واختصرتها بسنوات قليلة ، بحيث حققت اسرائيل بمدة بسيطة كل التطور الذي سبقت الاشارة اليه ٠ وبدأت تشهد نفس الظواهر التي ميزت الدول الامبريالية العريقة ٠ فهنالك التوسع المستمر في الصناعة ، وهنالك كثافة راس المال الموظف في الداخل وتمركز الرساميل والمؤسسات في يد الاحتكارات التي تشرف عليها الدولة ٠

اسرائيل ، مشروع اقتصاد امبريالي :

ان ما تقدم يؤكد لنا ان الاقتصادالاسرائيلي يتميز بعدد من السمات التي يمكن لنا معها اعتباره مشروع اقتصاد امبريالي ، ويستدل على ذلك من نمط خطة التنمية ٠ وطبيعة علاقتها مع الدول الامبريالية ٠ وكذلك تنظيم اقتصادها على اساس التقسيم الامبريالي لسوق العمل وسوق المواد

الخام ، وتؤكد طبيعة علاقتها مع المناطق المحتلة هذه المسألة اذ تستوعب في اقتصادها نسبة من العمال العرب تشكل حوالي ١٠٪ من طاقتها العاملة بشكل عام ولكن هذه الـ ١٠٪ تشكل حوالي ٩٠٪ من اليد العاملة غير الفنية تلك الاعمال التي قال عنها لينين : « يشتغل المهاجرون من اوروبا الشرقية وامريكة الجنوبية في الاعمال التي تدفع مقابلها احط الاجور بينما يؤلف العمال الاميركان اعلى نسبة من المناظرين ومن العمال الذين يقومون بالاعمال التي تدفع مقابلها اعلى الاجور » . والان ففي الوقت الذي يضطر المهندس او الطبيب في المناطق المحتلة للهجرة بحثا عن العمل لان الاقتصاد الاسرائيلي ليس على استعداد لاستيعابه فان اسرائيل بحاجة لاي عامل يدوي عربي غير فني . كما بدأت تقيم في بعض المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ بعض المشاريع التي تؤمن سلعا نصف مصنعة يحتاجها الاقتصاد الاسرائيلي .

السلام الاقتصادي شرط هام جدا :

واضافة للواقع القائم حاليا فان تصور اسرائيل للمستقبل يتضمن اصرارا على السلام الاقتصادي الذي يكفل لها رقعا اقتصادية جديدة . وكما قال ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق « ان اسرائيل ترغب في ان تكون علاقتها بالدول العربية كعلاقة الولايات المتحدة بامريكا اللاتينية » . وهذا الكلام غني عن الشرح او التعريف ، ويوضح اهداف اسرائيل وله اساسه المادي ولا يلقى جزافا .

ما تقدم يؤكد لنا ان النمو الاقتصادي الاسرائيلي هو وليد تعامل الدول الامبريالية معها بوصفها جزءا لا يتجزأ من مركز الدول الامبريالية وهذا يدفعنا للقول بان اسرائيل قد قطعت اشواطا بعيدة باتجاه التحول الى دولة امبريالية وما تحتاج اليه فقط هو (امريكا اللاتينية)الخاصة بها .

ان اسرائيل تحاول ان تستغل موقعها الجغرافي في نقطة حساسة وقريبة لافريقيا واسيا كي تلعب دور القاعدة الاقتصادية للامبريالية العالمية في المنطقة ، اضافة الى دورها التقليدي المعروف كقاعدة عسكرية وسياسية . وتستطيع الامبريالية العالمية ان تقيم في اسرائيل المشاريع التي تريد ، دون خشية الوقوع في ايدي سلطات معادية لها ، بحكم الترابط العضوي بين الكيان الاسرائيلي والامبريالية . وفي هذه الحالة فان صناعات الامبريالية تكون في مأمن من ناحية ، ومن ناحية اخرى تكون قريبة من سوق المواد الخام وسوق الاستهلاك ، وفي الوقت نفسه هنالك فيض من اليد العاملة العربية ـ في حالة السلام ـ والتي تؤمنها من كل الدول المجاورة : المناطق المحتلة ٦٧ ، لبنان ، سوريا ، الاردن .

مؤتمره السادس عشر اذ قال « ان تسرب رأس المال الاجنبي لاسرائيل الذي لم يصغر خلال عشرين سنة منذ قيام دولة اسرائيل فقط ، بل ازداد ... ان استيراد رأس المال الى اسرائيل هو الاعلى ، نسبيا ، في كل العالم . في نهاية سنوات الخمسين واوائل سنوات الـ ٦٠ كان هناك في البلاد صعود اقتصادي مثل « الاعجوبة الاقتصادية » الاسرائيلية . ومن المستحيل ان لا يؤثر كل ذلك على الوضع الاجتماعي الداخلي في اسرائيل ، وان لايشجع اتجاهات البرجوازية الصغيرة .. (ص ١٠٢ ـ ١٠٣ الطبعة العربية من التقرير) . وفي مقابل هذا فانه ليس من قبيل المصادفة المحضة ان يتشكل الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكح) من غالبية عربية ، واضحة جدا تبلغ حوالي ٩٠٪ . برغم ان نسبة عرب المناطق المحتلة ٤٨ لا تبلغ سوى حوالي ١٤٪ من سكان اسرائيل . وفي المقابل فان الفريق المنشق عن الحزب الشيوعي الاسرائيلي والذي خرجت معه الغالبية اليهودية ، يتجه اكثر فاكثر نحو الصهينة ، وتخلى اخيرا حتى عن كلمة شيوعي في اسمه . ان هذا الانحراف النظري هو بالاساس انعكاس للواقع الطبقي لقاعدته . وبالاضافة لهذا فان بعض حلقات المثقفين التي تتبنى الماركسية والتي تعمل بشكل منفصل عن راكح لا تستطيع اعتبارها معبرة عن واقع طبقي باعتبار انها صغيرة جدا واعضاؤها لا يتجاوزون العشرات وتتكون في معظمها من البرجوازية الصغيرة (الطلاب ـ مدرسين) .

وفي موازاة هذا فان الاجنحة اليمينية في ما يسمى بالاحزاب العماليةقد بدأت بالنمو على حساب الاجنحة الاخرى ، ان الانشقاقات التي تعرضت لها كانت دائما انشطارات باتجاه اليمين . وليس مصادفة معزولة عن الواقع الاقتصادي والطبقي ان يكون التحالف العمالي الحاكم ـ هو الذي شن حرب ٥٦ و٦٧ وما زال في قمة الحكم حتى الان يدعم ويخطط للعدوان .

في مواجهة الضمور في حجم الاحزاب العمالية وتنامي الاجنحة اليمينية منها ، نلحظ تزايدا في قوة احزاب اليمين الصهيوني ويبدو ذلك من التشكيل الحالي للبرلمان الاسرائيلي . وقد لحظ الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكح) هذه الحقيقة في تقريره الصادر عن المؤتمر السادس عشر ، فتحت عنوان « تحول الى اليمين في خريطة اسرائيل السياسية » ،والعنوان غني عن التعريف ، قدم تقرير الحزب عرضا وتحليلا للاوضاع السياسية في اسرائيل في ضوء انتخابات الهستدروت وانتخابات الكنيست السادسة قال عنها بالحرف الواحد «في انتخابات الهستدروت اشتركت لاول مرة قائمة «جاحل »كتلة حيروت (الليبراليون) ولم تشترك للمرة الاولى احدوت هعفودا بقائمة مستقلة بل في قائمة واحدة مع المباي . وكان هذا تحول الى اليمين في الهستدروت من

ناحية سياسية عامة وطبقية ٠٠ « ص ٣٦» ٠ وعن النتائج المباشرة قال التقرير : « ان نتائج انتخابات المؤتمر العاشر للهستدروت قد ادت الى فشل الزعامة الحالية ، فالمعراخ (التجمع) قد حصل على ٨٨ر٥٠٪ من الاصوات فقط ٠٠ بينما في انتخابات المؤتمر التاسع حصل المباي وحده على ٤٣ر٥٥٪ من الاصوات ٠٠ ان فشل التجمع في انتخابات الهستدروت قد عبر عن عدم رضا العمال على سياسة زعامة المباي وعلى التجمع بين المباي واحدوت هعفودا ٠٠ ولكن الامر السلبي في نتائج انتخابات الهستدروت قد كان في انه قد نشأت قوة يمينية قوية في الهستدروت « ص ٣٧ـ٣٨ » واما بالنسبة لانتخابات الكنيست فقد قال عنها التقرير «وبعد انتخابات الكنيست مباشرة كان واضحا انه قد طرأ تحول الى اليمين في خريطة اسرائيل السياسية ٠٠ « ص ٣٩ » ومن مراقبة مسار الامور السياسية في المراحل اللاحقة للانتخابات التي يشير اليها التقرير يتضح ان الميل باتجاه اليمين قد استمر وتصاعد اكثر فاكثر ٠

راكح حزب الاقلية العربية :

وفي مواجهة نمو اليمين ونجاحه المتزايد على حساب الاحزاب العمالية، وبكلمة اخرى انحياز القاعدة للبرنامج الاكثر تطرفا وصهيونية ، نلحظ انحيازا عربيا اكثر فاكثر لراكح ،وليس من قبيل المصادفة ان تكون (الناصرة) المدينة العربية ، هي المدينة الوحيدة التي يسيطر راكح على مجلس بلديتها ، اضافة الى ان نقابة عمال البناء ، حيث للعرب اغلبية ساحقة ، هي النقابة العمالية الوحيدة التي يسيطر عليها راكاح ٠

خلاصات ونتائج

ان ما تقدم يوضح لنا الخريطة الاقتصادية والتركيبة الطبقية والسياسية لاسرائيل وبحيث نجد انفسنا امام مثل حي وواضح لما كان لينين قد تحدث عنه عندما قال عن شعوب مستغلة وشعوب مستغلة ٠

وفي ضوء التركيب الطبقي لاسرائيل ، وفي ضوء النمو الاقتصادي الذي عرفته اسرائيل ، والمرشح للتزايد مع تحول اسرائيل اكثر فاكثر نحو ان تصبح دولة امبريالية ، او حسب التعبير الجديد المتعارف عليه (امبريالية صغيرة)وفي ضوء عمليات الافساد الطبقي والايديولوجي التي يتعرض لها المواطن الاسرائيلي يوميا ، والتي تؤدي حكما الى تمييع الصراع الطبقي في اسرائيل ، وفي ضوء الحقيقة القائلة بان اسرائيل بحكم طبيعة تكوينها وعلاقاتها وارتباطاتها وبحكم ، تأصل الايديولوجية الصهيونية ،والتي

بدأت تستند الى واقع اقتصادي ، انعكس بشكل مستوى معيشة مرتفع لغالبية المواطنين الاسرائيليين · اخذ شكل تمايز عام لصالحهم بالقياس لعرب المناطق المحتلة ٤٨ و٦٧ · وباعتبار ان تزايد الصراعات الطبقية انما يرتبط بالفوارق الطبقية وبعمليات الاستغلال الطبقي · لهذه الاسباب نستطيع القول ان تركيب المجتمع الاسرائيلي هو تركيب غير عادي ، وان كان ينقسم الى مستغلين ومستغلين ، فان هذا الانقسام يتداخل مع التشكيل السكاني الثنائي ، حيث يشكل عرب المناطق المحتلة الغالبية الساحقة من المستغلين وبالمقابل يشكل يهود المناطق المحتلة غالبية المستغلين ، وبرغم التفاوتات الطبقية بين شرائحهم الطبقية المختلفة · واذا كانت هذه التفاوتات سببا في وجود صراعات طبقية ، فان درجة حدة هذه الصراعات تبقى دون حدة الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية · ومن هنا ومع وجود عرب المناطق المحتلة والذين يحملون عبء المجتمع الاسرائيلي ويقع عليهم ابشع انواع الاستغلال الطبقي ، فان الطرفين الرئيسيين للصراع الطبقي في اسرائيل هما العرب واليهود وليس لاعتبارات قومية فقط ، بل لاعتبارات طبقية ايضا ·وهذا الوضع الشاذ لا يشبهه سوى وضع الدول العنصرية كجنوب افريقيا وروديسيا وغيرها من مجتمعات المستوطنين · في مثل هذه الحالة فان العامل الحاسم لن يكون العامل الذاتي بل هنالك اهمية قصوى لدور العنصر الخارجي الذي يلعب دورا رئيسيا في تنشيط وتفجير التناقضات في الداخل ، لان تحطيم المجتمعات التي تحكمت بها النزعات الفاشية والرجعية والعدوانية ، انما كان يتم من الخارج دائما برغم وجود بعض القوى التقدمية والثورية في داخل تلك البلدان والتي لم ولن تستطع لاسباب موضوعية ان تكون العامل الحاسم في الصراع ·

■ هذا المقال يشمل الافكار الرئيسية لرسالة دكتوراه يعدها الكاتب (في مركز الابحاث – بيروت) لجامعة كارل ماركس – لايبزغ في جمهورية المانيا الديمقراطية ·

الوحدة الكفاحية بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ... طبيعتها، تطوّرها واشكالها

سعيد جواد

لقد ولد التحالف والتلاحم بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية التقدمية اللبنانية ، وترعرع ، وتطور ، خلال مسيرة الكفاح المرير الذي خاضه الشعبان الشقيقان ضد اعدائهما ، وضد القوى التي تتعارض طبيعته واهدافها وسياستها مع طبيعة واهداف وسياسات حركة التحرر الوطني لكل منهما ولا شك في انه يشكل تجربة ثورية فريدة **ومجيدة في تاريخ حركة التحرر الوطني العربية** ·

ان هذه الوحدة الكفاحية التي تعمدت بالدم والدموع والمعاناة ، لم تترسخ وتتوطد على اساس المنطلقات والشعارات القومية والوطنية التقدمية ، المناهضة لاسرائيل والصهيونية والامبريالية فحسب ابدا ، انما في خضم النضال والقتال الضاري واليومي في مواجهة هجمات القوى الفاشية والرجعية اللبننية ، التي تحظى بالدعم المباشر والمعلن، **العسكري والسياسي والمالي من اسرائيل والامبريالية الاميركية والرجعية العربية وقيادة النظام السوري** ·

ان الاهمية التاريخية لهذه الوحدة ، سواء من حيث دلالاتها ، ودروسها ، ونتائجها ، تندّ من تحول المعركة في لبنان الى خط دفاع اول عن الثورة الفلسطينية ومجموع حركة **التحرر العربية ، بعد ان حولته الامبريالية الاميركية الى ميدان متقدم للهجوم على** الثورة وتوجيه ضربات عسكرية وسياسية ، اريد لها ان تكون حاسمة ، عبر ادوات لبنانية وعربية، **تمكن من اخضاعها وتطويعها ، وبالتالي اندراجها في مسيرة الحلول الاستسلامية، الاميركية ـ الاسرائيلية ـ الهاشمية ـ العربية** · **وعندها يمكن مواصلة اندفاع اتفاقية** سيناء نحو الجولان والضفة الغربية وترتيب تصفية المسألة الفلسطينية ·

لقد تميزت جميع هجمات قوى الثورة المضادة ومن وراءها ، والقوى المعادية لسياسة الثورة واستقلال قرارها الوطني والمناهضة للحركة لوطنية اللبنانية ، في مراهنة **سياسية مركزية هي ، فصم عرى الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ، وافتعال** تناقض مصطنع بين مصالح الغالبية الساحقة من الشعب اللبناني ومصالح الشعب الفلسطيني ، وبالتالي بين الثورة والحركة الوطنية اللبنانية · وهذه المراهنة كانت ولا **زالت تتكرر باستمرار وتتخذ لها اشكالا متنوعة وفقا لخصائص كل مرحلة من مراحل** الصراع وشوط من اشواطه ·

وبالرغم من ان الهدف الاساسي والاول ، هو التصدي للثورة الفلسطينية للوجود البشري والمسلح للشعب الفلسطيني ، الا ان المناورات السياسية ، كانت تتخذ احيانا ، شكل دفع هذا الهدف الى الوراء ، وتأجيله ، عبر اعتبار ان القوى الانعزالية لا تختلف مع الثورة ، بل وتدافع عنهاوعن اهدافها لقضية مقدسة · وان المشكلة هي مع « اليسار الدولي الهدام والمستورد » · اي مع الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية · وفي احيان اخرى تتخذ شكل الحديث عن ثورة فلسطينية مخدوعة من « أقلية يسارية ضالة » · ولكن سرعان ما تستأنف الادعاءات الاولى القائلة بان الثورة الفلسطينية هي المشكلة الاساسية ، وانها ما ان تخرج من الصراع حتى « تحل المشاكل بين اللبنانيين خلال ٢٤ ساعة فقط » · وفقا لتصريحات بيار الجميل الاخيرة والمتكررة ·

اما بالنسبة لقيادة النظام السوري فقد ادعت في بداية تحول مبادرتها ان خلافها مع الحركة الوطنية اللبنانية فقط ، وان الثورة وسوريا حليفان ثابتان ، لكي تتحول الى المطالبة بتغيير القيادة الوطنية الفلسطينية « واستحداث » قيادة جديدة مطواعة ، بعد ان « لملمت » قيادات لبنانية للحركة « الوطنية والقومية » موالية لسياساتها ومشاريعها ·

والان ، ما هي هذه الادعاءات والمراهنات ؟ وما هي طبيعة وحقيقة الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ، بين مصالح الشعبين واهدافهما الوطنية · اي اهداف حركتي تحررهما الوطني التي تكسرت وما زالت تتكسر على صخرتها جميع الادعاءات والمراهنات والمناورات ؟

ـ ان الاحداث التي جرت في صيدا ، في اوائل اذار ١٩٧٥ (١) ، عبرت عن الوجه اللبناني للصراع ، بمعنى انها عبرت عن احدى ظواهر الصراع الوطني والطبقي في لبنان · والمعركة وما رافقها كانت تتويجا لمعارك وطنية وطبقية واجتماعية متواصلة على امتداد السنوات السبع الاخيرة ·

ـ وفي نيسان ٧٥ كانت مجزرة عين الرمانة ، وكان يراد لها ان تدفع بالوجه اللبناني (الانعزالي) ـ الفلسطيني الى المقدمة ، وارجاع الوجه اللبناني الى الوراء ، لطمسه ، وتغييبه تماما · تلك المجزرة كانت هي الاخرى تتويجا لسلسلة من المعارك بين القوى الانعزالية الرجعية والثورة الفلسطينية على امتداد الاعوام ٦٨ ـ ١٩٧٥ ، وشكلت بداية مرحلة واشكال عنف جديدة من الصراع ·

هاتان المعركتان اللتان شنتهما الاوساط الرجعية في النظام والمنظمات الفاشية ضد الجماهير اللبنانية والحركة الوطنية اولا ، وضد الجماهير وقوى الثورة الفلسطينية ثانيا ، كانتا اشارة البدء لعام ونصف من المعارك والمواجهة الشاملة التي تميزت بتوحيد كافة القوى المضادة للثورة وللحركة الوطنية والمتعارضة مع طبيعتهما واهدافهما ·وبالمقابل رسخت ووطدت اعمق الاسس لوحدة الكفاح المشترك بينهما ·

واذا كان الصراع الاجتماعي والطبقي يضرب جذوره بعيدا في تربة المجتمع اللبناني، بالرغم من الاقمطة الطائفية التي تكبله ، فانه قد اتخذ اشكالا اكثر حدة في السنوات العشر الاخيرة · وذلك بفعل اشتداد ساعد الحركة الجماهيرية المطلبية والوطنية وبفعل تداخل نضالها مع مهام النضال ضد اسرائيل ومواجهة اعتداءاتها على القرى الحدودية ، ومن

اجل ان ينخرط النظام اللبناني في الصراع ضد اسرائيل وبالاخص بعد العام ٦٧ · وذلك ليس بسبب من كون لبنان دولة عربية مجاورة لاسرائيل ، ولا بد لها من ان تنخرط في الصراع العربي الاسرائيلي فحسب ، بل لان الاطماع الصهيونية قد بدأت تتخذ لهـا اشكالا اكثر وضوحا وخطورة في المقام الاول ·

بالمقابل كانت الجماهير الفلسطينية تعاني من القمع والتعسف والاستغلال ، ومصادرة حق التعبئة والتنظيم والتدريب والقتال ضد اسرائيل · لكن هزيمة حزيران ١٩٦٧ التي وفرت امكانات تصاعد المقاومة المسلحة في الاردن خلقت بدورها شروط بدء العمليات الفدائية ، ومواجهة هجمات القوات الصهيونية ضد القرى والجماهير اللبنانية والفلسطينية في جنوب لبنان · وكلما تصاعدت عمليات المقاومة **وباشرت الجماهير الفلسطينية بانتزاع حق التعبئة والتدريب والقتال** ضد اسرائيل ، كلما تمكنت من شل يد القبضة القمعية الدركية والبوليسية ، سواء في داخل المخيمات او خارجها ، وقبلها على خطوط المواجهة مـع اسرائيل ·

هكذا ولدت شروط التحالف الكفاحي والمصيري بين الشعبين وحركتي تحررهما بين الجماهير اللبنانية المناضلة ضد القمع والاستغلال ، والمطالبة بحق التدريب والتسليح لمواجهة الهجمات والاطماع الصهيونية ، والتي تناضل كذلك في سبيل دفع الدولة للقيـام بواجبها والانخراط في القتال ضد اسرائيل ، والجماهير الفلسطينية التي بدأت بانتزاع بعض حقوقها في الاعداد والتدريب **باشرت فعلا شن العمليات العسكرية عبر الحدود(٢)**·

هذه الشروط للوحدة ، امتحنت ، وجربت ، في اول مواجهة بين قيادة الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين العاملين عبر القرى الحدودية (٣) · فقد تحركت وحدات من الجيش لتطوق مجموعة من المقاتلين في قرية مجدل سلم · وعلى الفور نزلت الجماهير اللبنانية الى الشوارع في تظاهرات غاضبة هادرة · في المدن والقرى ، في بيروت وصيدا وطرابلس بشكل خاص ، وقد توجت في **تظاهرة ٢٣ نيسان ١٩٦٩** المجيدة التي سقط فيها عدد من المواطنين اللبنانيين ، شهداء الدفاع عن حق الثورة في القتال ضد اسرائيـل ، وشهداء التلاحم الكفاحي الذي ارست قاعدته في نيسان ١٩٦٩ ، **وترسخت بعـد ذلك ، في المواجهة الثانية والاخطر في ايار من العام ١٩٧٣ · ودشنت اشد مراحلـه خطـورة ، واغناها ، واكثرها اهمية من حيث النتائج ، في صيدا ـ عين الرمانة ، اذار ـ نيسان ١٩٧٥** ·

ان طبيعة بنية النظام اللبناني شبه الاقطاعية ، والمغلفة بالاقمطة الطائفية التي كبلت وشوهت نمو العلاقات الرأسمالية في داخلها ، قد ساهمت الى حد كبير في خلق شروط وحدة النضال اللبنانية ـ الفلسطينية ضد اسرائيل ، ومتطلبات تشييدها الاقتصاديـة والاجتماعية والسياسية · سواء في مواجهة القمع المسلط على رقاب الجماهير اللبنانية والفلسطينية او لجهة الكفاح ضد العدو الصهيوني ، وبالضرورة ضد القوى التي تمنعها باصرار من التحضير والتأهيل للمواجهة ·

ففي الجنوب تعاني الجماهير اللبنانية من اضطهاد مركب ، طائفي واجتماعـي اضطهاد زعامة طائفة سائدة لاخرى مسودة ، واضطهاد داخل الطائفة ذاتها من قبـل

الشرائح الاقطاعية الرأسمالية السائدة فيها · بالاضافة الى الاستغلال والقمع المسلطين من التحالف الاقطاعي ـ الرأسمالي ذاته في قمة النظام وعبر اجهزة الدولة · وهذا ما جعل جماهير القرى الامامية تواجه العدوان الاسرائيلي من جهة والقمع والاضطهاد من جهة اخرى ، وهي طائفة بائسة ممنوعة من حمل السلاح ومحرومة من الحماية ، وقراها وارض وطنها ومياهه تحت رحمة الاطماع الصهيونية الشرهة ·

ـ هذا الواقع جعل المسألة الوطنية مشتعلة · وجماهير القرى الحدودية تواصل مطالبة الدولة بالقيام بواجباتها في الدفاع عنها وتسليحها لايقاف خطر الهجمات الدائمة ضدها (٤) ·

من هنا ، كانت الحركة الوطنية اللبنانية ، انطلاقا من مهماتها القومية ازاء المسألة الفلسطينية وتجاه الكيان الصهيوني ، **تناضل بثبات من اجل أن يشارك النظام اللبناني في الصراع العربي الاسرائيلي (٥) · ومن اجل الدفاع عن جنوب لبنان ، وتعبئة جماهيره واعدادها وتسليحها ·**

ـ بعد العام ١٩٦٧ تفاقمت المسألة الوطنية على امتداد الارض اللبنانية · وتزاوجت مع المسألة الاجتماعية التي عبرت عن نفسها في اضرابات الطلبة والمزارعين والعمال وتحركاتهم المستمرة · وقد ارتوت ارادة الصمود والتصدي من معين تصاعد المعارك الاجتماعية التي خاضتها الجماهير في الجنوب ضد الاستغلال والقمع الاقطاعي ـ السلطوي المركب · ولقد كانت معركة مزارعي التبغ في النبطية ومعركة صيادي الاسماك في صيدا ، معركتين بارزتين في تاريخ الصراع الاجتماعي والطبقي ضد الاقطاع واركان تحالف الدولة والنظام ·

ـ وفي الوقت ذاته كانت المعارك في كفرشوبا وكفركلا ضد الغارات الصهيونية بداية مرحلة جديدة في مسألة المواجهة مع اسرائيل · **هكذا انبثقت المقاومة الشعبية اللبنانية المسلحة (٦) ، وبرزت الوحدة القتالية بين الثورةوالحركة الوطنية اللبنانية في خطوط المواجهة الساخنة وباسطع المعاني ·**

من هنا فان **ولادة المقاومة الفلسطينية المسلحة في الجنوب ، ساهمت في التعجيل بولادة المقاومة اللبنانية المسلحة في بعض القرى وتسريعها ، كما وفرت شروط وامكانات انتشارها من كفرشوبا وكفركلا الى العديد من القرى الحدودية في جنوب لبنان ·**

كما ان معركة مزارعي التبغ في النبطية في الجنوب ، امتدت على شكل تحركات ومعارك وطنية واجتماعية ، طلابية وفلاحية وعمالية فيمختلف المدن والقرى الرئيسية · وكانت معارك عمال غندور والمواجهة التي اتسمت بها مع اصحاب العمل واجهزة الدولة، علامة بارزة في تلك النضالات ·

هذه الوقائع كانت تتفاعل على ارضية اجتماعية ـ طبقية ملائمة تماما ، ساعدت على تسريع وتيرتها ودفعت بها الى افاق جديدة ارقى ·

فالمخيمات الفلسطينية الذي يمتزج ويتفاعل فيها حرمان الجماهير الفلسطينية واللبنانية ، **تكونت لها امتدادات ، او مخيمات بؤس وشقاء لبنانية فلسطينية متزايدة** (منها احزمة البؤس المحيطة بمدينة بيروت) ، واينماحلت ، شكلت بؤرا للصراع

الاجتماعي والاحتجاج والتمرد ٠

وبدأت الاخطار تتجسم امام القيادات الانعزالية وتتخذ لها ابعادا ، باتت تهدد فيها التوازنات الطائفية وتماسك القوى الفاشية التي تتشرنق في اغلفتها ٠ وتهدد بزعزعة اسس النظام شبه الاقطاعي الطائفي برمته ٠ لقد تجسد ذلك في ظواهر ثلاث كانت تولد بدورها مضاعفات متفاعلة باستمرار ٠ وقد تمثلت في :

* ـ الاعتداءات الاسرائيلية المتواصلة ، البرية والجوية ، ضد القرى اللبنانية وضد المخيمات الفلسطينية ٠ وفي سياقها واخطرها كانت عملية « الكوماندوس » في قلب بيروت٠ اما قيادة الجيش اللبناني فكانت تواصل سياسة اللادفاع ٠ بل وتكشف تواطؤها جليا خلال جولة القوات الاسرائيلية داخل شوارع وعمارات بيروت لفترة طويلة ٠ بينما كان اركان الدولة يواصلون سياسة عدم تسليح الجماهير اللبنانية ، بل وتحريم حمل السلاح عليها ٠

هذه السياسة خلقت ظروفا مؤاتية لتصاعد حركة الاحتجاج الوطنية ذات الطابع الجماهيري العارم ، وقد تتوجت تلك المرحلة في تظاهرة الربع مليون مواطن ، التي طافت في شوارع بيروت بالاضافة الى تحركات المدن الاخرى بعد العملية واغتيال القادة الفلسطينيين الثلاثة في ١٠ نيسان ٧٣ ، ضد سياسة اللادفاع والتواطؤ ٠

* المقاومة الفلسطينية المسلحة ضد اسرائيل في الجنوب ، والتي ولدت بدايات مقاومة لبنانية في القرى ، **باتت تهدد بالانتشار الى جميع قرى ومدن الجنوب المهددة بالاجتياح والعدوان الصهيوني** ٠

* المطالب الاجتماعية والاقتصادية تسارعت وتيرتها في ظل الجو الذي خلقه نمو وتصاعد المقاومة الفلسطينية ٠ وكذلك وفي ظل الشلل النسبي لاجهزة القمع في مناطق احزمة البؤس اللبنانية وامتدادات المخيمات في المدن وحواليها الذي نتج عنها ، خاصة بعد افتضاح عجز قيادة الجيش عن القيام بايدور في مواجهة الاعتداءات الاسرائيلية ٠ **هذه العوامل الى جانب غيرها مساعدة ، جعلت المطالب الوطنية ـ الاجتماعية غاضبة ومسلحة للدفاع عن نفسها في وجه اية محاولات قمعية تصفوية مضادة** ٠

الجهد الانعزالي ـ الرجعي لعرقلة التفاعل الفلسطيني ـ اللبناني ٠

ان السلطات اللبنانية والقوى الفاشية التي تقف خلفها ، لم تكن لتغفل للحظة واحدة، هذا التطور الخطير على سياساتها والذي يهدد مصالحها ، منذ بدايات نشوء عوامل التفاعل الفلسطيني ـ اللبناني واتخاذه تعبيرات مختلفة ٠

لقد كانت الاوساط الانعزالية ـ الرجعية ـ ممثلة في قيادة الجيش واعمدة النظام ، تعتقد بان انزال ضربات بالثورة الفلسطينية وجماهيرها ، سوف يمكن من لجم الحركة الوطنية المطلبية الجماهيرية اللبنانية ، ويجهض بدايات انطلاق المقاومة المسلحة الخطير، تماما ٠

ومنذ اواخر العام ٦٧ ، بدأت السلطات اللبنانية حملة منظمة، وبدأت محاولة تحريض جماهير الجنوب ضد العمل الفدائي ، وعبر مختلف الاساليب ، عملت على اثارة الشكوك حول جدوى المقاومة الفلسطينية ، محذرة في الوقت ذاته ، من عواقب التعاون مع الفدائيين او مناصرتهم ، ناهيك عن الانخراط في صفوفهم ٠

وبالاضافة الى هذا الدور كان هناك دور هجومي اخر ٠ لقد كان للاوساط الانعزالية، والمشبوهة داخل قيادة الجيش ، وكذلك اجهزة المكتب الثاني ، الدور الاساسي والمنظم في محاولات محاصرة بدايات المقاومة المسلحة في القرى الحدودية ووضعها تحت مطرقة العدوان الاسرائيلي ، وسندان الوحدات العسكرية واجهزة قمع المكتب الثاني (٧)٠

وكانت الهجمات العسكرية المتوالية ، عملية مجدل سلم في اوائل العام ٦٩ ٠ ومحاولة الاجتياح لمخيم صبرا والطريق الجديدة في قلب بيروت في ايار ٧٣ ، بهدف توجيه ضربة قاصمة لمواقع المقاومة الاساسية في العاصمة ٠

وكما كان حصاد محاولة عام ١٩٦٩ ، التظاهرات العارمة ، والازمة الوزارية وعضاعفاتها ، ومن ثم اضطرار القوى الفاشية والرجعية الى القبول باتفاق القاهرة الذي يعترف بحق الوجود المسلح للثورة والشعب ، فقد شكلت نتائج معركة ٧٣ انتصارا ساحقا ليس للثورة فحسب ، بل وللحركة الشعبية اللبنانية ٠ فالثورة خرجت من المعركة اقوى ، واحرزت انتصارا عسكريا وسياسيا بعد دحر تلك الحلقة من المؤامرة ٠ اما الحركة الوطنية ، فقد احرزت انتصارا ضد سياسة النظام والقوى الانعزالية من ورائه ، لكنها على امتداد السنوات اللاحقة من مواصلة تعبئة الجماهير وتنظيمها وبلورة مطالبها الوطنية وحقها المشروع في التعبئة والتسلح لمواجهة الاعتداءات الصهيونية ، في ظروف اكثر ملائمة ٠ كما ساعدت على تصاعد نضالاتها الاجتماعية والديمقراطية على الارضية الجديدة ذاتها ٠

من هنا فان اتفاقية القاهرة هي الابن الشرعي للوحدة الكفاحية بين الشعبين وحركتي تحررهما الوطني ، وثمرة انتصاراتهما الاولى ٠ وترتيبا هي ملك كفاحهما المشترك ضد اعدائهما المشتركين ٠

الا ان ما هو اكثر دلالة ، وجديرا بالاهمية والملاحظة ، هو موقف حزب الكتائب والقوى الانعزالية اليمينية الاخرى ٠ فهذه القوى وافقت على اتفاقية القاهرة ، لانها ادركت بان موازين القوى الوطنية والطبقية لم تعد في صالحها ٠ كما ان ظروف الثورة الفلسطينية كانت تتميز بالصمود السريع والمتواصل ، وبازدياد انخراط الجماهير الفلسطينية فيها والتفاف الجماهير العربية حولها (٨) ٠ وكذلك كان الموقف القومي التقدمي للنظامين الوطنيين المصري والسوري حينذاك لمصلحة الثورة والجماهير اللبنانية الملتفة حولها ، والحركة الوطنية المتحالفة معها (٩) ٠ وبالنتيجة فان استمرار الازمة ، لا يمكن ان يؤدي سوى الى المزيد من تفجير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وبالتالي الى اختلال جديد في موازين القوى لصالح الثورة والحركة الوطنية اللبنانية وفي غير صالح القوى الانعزالية واليمينية ٠ وهكذا تراجعت القيادات الانعزالية ، وقبلت اتفاقية القاهرة بهدف التحضير والعمل الجدي الذي يمكن من نقضها ٠ تراجعت لكي تستوعب دروسها جيدا ٠ وتعين طريق العمل لتحضير شروط نقضها ، بعد ان اصبح قبولها امرا

لا مفر منه · واستنتجت التالي :

ـ ان الجيش لوحده غير قادر على حسم الصراع ، ولابد من تطوير الميليشيات وبناء قوات اضافية تشكل دعما كافيا لحسم الصراع ·

ـ ان الظروف اللبنانية والعربية غير مؤاتية ، ولا بد من انتظار الظروف الاكثر مؤاتاة ، والمساهمة في صنعها لبنانيا · (١٠) ·

ان المعركة التي خاضتها قيادة الجيش ضد المقاومة الفلسطينية كانت ردا على تصاعد النضالات الجماهيرية اللبنانية الوطنية والاجتماعية في الفترة ما بين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٣ واستهدفت وضع حد للتفاعل بينها وبين الثورة الفلسطينية ·

لقد كان رد قيادة الجيش على الحركة الوطنية اللبنانية وجماهيرها هو رد مداوروغير مباشر ، عندما استهدف توجيه ضربة قوية للمقاومة الفلسطينية اولا · اي ضرب بؤرة تأجيج المسالة الوطنية ،مسالة المواجهة مع اسرائيل ، ومناهضة سياسة اللادفاع والتخاذل· اي اضعاف القاعدة التي خلقت مناخا عسكريا وسياسيا يساعد على نمو التحركات الجماهيرية المطلبية ويفضح فساد النظام شبه الاقطاعي واقمطته الطائفية ويساعد على تفاقم الانفجارات الاجتماعية ·

من هنا فان العمليات العسكرية في ايار ١٩٧٣ استهدفت المقاومة والحركة الوطنية في آن معا · وباخفاقها تمكنت من افشال حلقة تآمر ضدها · بينما كرست الحركة الوطنية انتصاراتها واجبرت القوى الانعزالية واركان النظام على الاعتراف الجزئي ، وأن اتخذ اشكالا اولية (١١) ·

مرة اخرى تتراجع القوى الانعزالية التي كانت وراء قيادة الجيش وتستخلص دروسا اضافية اهمها : الجيش ليس عاجزا فحسب ، بل مهددا بالانقسام وباحتمال تمرد وحدات منه الى جانب الحركة الوطنية (١٢)· لا بد من الاسراع في بناء وتطوير الميليشيات والقوات النظامية الانعزالية ·المعركة القادمة ستكون طويلة ، ورأس الحربة لا بد ان تكون فيها القوى الانعزالية كقوة ضاربة ومبادرة · الظروف اللبنانية والعربية والدولية لا تزال غير مؤاتية ·

ووافقت مرة ثانية على اتفاقية القاهرة وعلى تكريسها في محادثات فندق ملكارت(١٣) ومرة اخرى توطدت الوحدة النضالية بين الثورة والحركة الوطنية · بين الشعبين الفلسطني واللبناني ، واكتسبت زخما جديدا مكنها من مواصلة الصراع في ظروف افضل·

ولقد جاءت حرب اكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ لتؤجل تفجر الصراعات مؤقتا · ولكن سرعان ما استأنفت عملية تراجع وارتداد النظام السادات ، وبوتيرة اسرع ، وقدمت نتائج الحربواحدة تلو الاخرى على مذبح التسوية المصرية الاسرائيلية ، وتوجتباتفاقية فصل القوات الاولى · ومع بداية جولة كيسنجر الاولى في الربع الاول من العام ٧٥ حتى كانت اوضاع القوى الانعزالية وحساباتها على الوجه التالي :

■ انها قد تقدمت كثيرا في التعبئة والاعداد والتسلح ·

■ ان التسوية الاميركية ـ الاسرائيلية ـ المصرية قادمة في سيناء ولا بد من تحضير شروط مرتكزاتها في لبنان ·

■ ان الظروف العربية والدولية هي مؤاتية نسبيا ويمكن ان تكون مؤاتية تماما مع تقدم الصراع ·

الى جانب هذه المعطيات ، كان هناك عامل مباشر عجل في بدء العمل بالمشروع العسكري الكتائبي ، وهو معركة اذار ذات الوجه اللبناني · ذلك لان مسار المعركة ونتائجها اكدت بأن الصراع الاجتماعي يتفاقم بسرعة ، وان المواجهة مع الحركة الشعبية وقياداتها الوطنية تكسبها قوة ونفوذا متزايدين · كما ان استخدام الجيش لقمع التحركات الجماهيرية ، يطرح على الفور مسالة دوره تجاه اسرائيل ، وكذلك سياسة النظام اللادفاعية · وبالتالي تتصاعد المطالبة الوطنية بضرورة انخراط النظام في الصراع العربي الاسرائيلي وتسليح الجماهير اللبنانية · (١٤)

وبالاضافة الى ذلك فان الطابع اللبناني للصراع ، سوف يدفع بالطابع الاخر ، اللبناني (الانعزالي) ـ الفلسطيني الى الوراء ، ويلغي بالضرورة امكانات استثمار الفرص التي يمكن ان توفرها الاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية التي كانت المفاوضات تجري بصددها ، وما يمكن ان تثيره من خلافات عربية فلسطينية توظف في خدمة المشروع الانعزالي · أي الاضعاف من امكانات استثمار الظروف العربية ـ الفلسطينية والعربية والدولية التي يمكن ان تكون مؤاتية ·

من هنا كان لا بد من قسر الطبيعة اللبنانية للصراع ، وتحويله الى صراع لبناني (انعزالي) ـ فلسطيني ، بالمراهنة على تحويله الى صراع لبناني فلسطيني شامل (١٥)، بعد زعزعة الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية عبر ضربات عسكرية قوية للثورة تضعف دور الحركة الوطنية اللبنانية الجماهيري او تشله وتلغيه ·

على اساس هذه الحسابات بدأ الهجوم الكتائبي ونفذ مجزرة عين الرمانة ضد الفلسطينيين في ١٣ نيسان ١٩٧٥ بدم بارد ·

ان المذكرتين اللتين بعث بهما بيار الجميل الى رئيس الجمهورية ، والحملة الاعلامية التي رافقتهما، وتصاعدت ضد الثورة والفلسطينيين ، خاصة بعد اخفاق قيادة الجيش في معركة صيدا اللبنانية ، والشعارات الشوفينية التي رفعت تحضيرا لعملية ١٣ نيسان ، اكدت بشكل قاطع ان المجزرة اريد لها ان تحقق ثلاثة اهداف سريعة : الاول ،تقديم النموذج الذي يراد التعامل به مع الثورة ، وبشكل حاد ، والعمل على تعميمه من عين الرمانة الى جميع مناطق تواجد الثورة والشعب الفلسطيني · (١٦) الثاني،هو طمس معضلات الصراع اللبنانية ودفع مسالة الوجود الفلسطيني المسلح وبقوة الى السطح · الثالث ، هو استخدام ، الظروف العربية والمصرية خاصة عشية توقيع اتفاقية سيناء لاستفراد الثورة، وفرض تنازلات عسكرية وسياسية سريعة عليها ، قبل ان تتمكن الجماهير اللبنانية والحركة الوطنية من تنظيم الدفاع عنها ونجدتها · وكانت المراهنة تنصب على فرض التراجع على الثورة ومواصلة الهجوم العسكري والسياسي والاعلامي المزدوج من القيادة الانعزالية

وقيادة الجيش · وهو ما يمكن بالنتيجة من عزل الحركة الوطنية واحبـاط التحركـات الجماهيرية وبالتالي طمس المعضلات الوطنية الاجتماعية ·

ظواهر وتحضيرات ومؤشرات :

ولكي تتوضح الاهداف المشتركة ضد الثورة والحركة الوطنية وشمولهـا كمشروع انعزالي متكامل ، لا بد من استحضار الظواهر ، والتحركات التي سبقت عملية ١٣ نيسان، وكذلك القوى التي لها مصلحة مشتركة في اضعاف الثورة ولجم الحركة الوطنية اللبنانية الصاعدة والمتحالفة مع الثورة (١٧) ·

لبنانيا وفلسطينيا ·

ـ من ١١ الى ١٨ كانون الثاني قصف اسرائيلي متواصل للعرقوب وتدمير كفرشوبا وتهجير اهاليها · وكما اشرنا ، انبثاق المقاومة اللبنانية المسلحة الى جانب المقاومـة الفلسطينية في القرى الامامية التي تتعرض للعدوان · والجميل يصرح ، وينسب ما جرى في العرقوب الى«عمل «لا مسؤولين وغير معروفين» وبالطبع المقصود هو المقاومة اللبنانيـة والفلسطينية التي تسببت في ازعاج اسرائيل ·

ـ ٢٤ كانون الثاني · الجميل يقدم المذكرة الاولى الى رئيس الجمهورية تتركز حول، وجود المقاومة والوضع في الجنوب ويتكلم فيها عن «السلطتين والجيش» ·

ـ ٣٠ كانون الثاني : اضراب شامل في الجنوب وتظاهرات حاشدة في بيـروت والمناطق تلبية لدعوة المؤتمر الوطني لحماية الجنوب · وقد جاء الاضراب والتظاهرات والدعوة الى المؤتمر كرد على مذكرة الجميل ومضمونها التحريضي ضد بدايات المقاومـة اللبنانية بالاضافة الى المقاومة الفلسطينية في القرى الحدودية ·

ـ ١٣ شباط · مذكرة ثانية من حزب الكتائب الى رئيس الجمهورية يعلن فيها ضرورة اجراء استفتاء شعبي حول الوجود الفدائي في لبنان ·

ـ ٢٦ شباط · تظاهرة سلمية للصيادين في صيدا · الجيش يقتحم المدينة ، يطلـق الرصاص على المتظاهرين ، احد عناصر الجيش يوجه رصاصه نحو معروف سعد فيصيبه اصابةخطرة ·

ـ ٢٧ شباط رقيب عسكري يغتال مواطنين شيوعيين في كفررمان (حسن شكرون وسليم او زيد) بلاغ الناطق العسكري يعلق « ان الرقيب اقدم على ذلك تحت نوبة نفسانية حادة » !

ـ بعد مجزرة صيدابايام ، الكتائب وحلفائها ينظمون التظاهرة الطائفية الحاشـدة تأييد لفعلة قيادة الجيش ويحثانها على مواصلة جهودها ·

ـ ١٢ ـ ١٧ اذار ، ينعقد في فندق البستان (في بيتمري) مؤتمر « تضامن شعـوب

المشرق الاوسط » تحت شعار « مكافحة الشيوعية في المنطقة وابرز مخططاتها التخريبية ونوايا التدمير التي تعدها للانسانية » ٠

× الدعوة الى المؤتمر وجهها جورج بيطار نقيب مراسلي الصحافة الاجنبية في لبنان ٠

× ترأس جلساته كميل شمعون ٠

× المدعوون جاؤوا من ١٥ بلدا ومن منظمات « المؤتمر الدولي لمكافحة الشيوعية » الذي عقد مؤتمره العشرينفي العام ٧٤ في فيتنام الجنوبية ٠ (اي قبل تحريرها الكامل)٠ و « المؤتمر الاسيوي لمكافحة الشيوعية » ، و « اتحاد دول اميركا اللاتينية لمكافحة الشيوعية » بالاشتراك مع « رابطة العالم الاسلامي » ، في مكة ٠

• المقررات التي تسربت هي : الانضمام الى المؤتمر الدولي لمكافحة الشيوعية ، المطالبة بطرد اليمن الديمقراطية من جامعة الدول العربية ومن الامم المتحدة ٠ هذا ما اريد تسريبه واعلانه ٠ اما المقررات السرية فقد بقيت سرية جدا حتى بدات تتكشف بوضوح منذ بداية احداث ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، وحتى اليوم ٠

١٤ اذار الجميل يحتج باسم الكتائب على قرار نقل الضابطين ، الذين اعتبرا مسؤولين عن احداث صيدا ٠ ويقول « لم يعد بامكان الكتائب السكوت عما يجري من التحدي والاستفزاز »

في وسط تحركات نقابية ونشاطات جماهيرية ، وكرد على مذكرة الجميل الثانية :

× ينعقد المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين في للفترة من ٢١ ـ ٢٣ اذار ٠

× في ٦ نيسان ينعقد المؤتمر الاول لفلاحي ومزارعي البقاع ٠ المؤتمر يوصي بالدعوة الى مؤتمر وطني عام للفلاحين ٠ والطابع العام للتحركات والمؤتمرات هو الطابع الوطني الذي يعبر عن تفاقم الازمة الاجتماعية ٠

دوليا :

ـ ١٣ شباط ٠ فورد يهدد بانه اذا فشلت المهمة التي يقوم بها كيسنجر ، فانه قد ينجم عن ذلك خطر الحرب في هذه المنطقة ٠ هذا التصريح الاميركي يأتي في سياق لضغوط المكثفة لانتزاع اكبر ما يمكن من التنازلات التي تواصل تقديمها القيادة المصرية٠ وضرورة استجابتها للشروط الاميركية الاسرائيلية الضرورية والكافية لانجاح المساعي

الاميركية لعقد اتفاقية سيناء (١٨) ٠

لقد اتضح للقوى الانعزالية بالوقائع المتكررة ، ان الهجوم على الحركة الوطنية اللبنانية ومطالبها لا بد ان يؤدي الى ردات فعل جماهيرية متصاعدة ، واستنتجت، ان لا بد من التراجع المؤقت ٠ وبالفعل فقد استجاب كل من اركان النظام والقيادة الانعزالية لبعض المطالب الوطنية المتعلقة باحداث صيدا ومضاعفاتها ٠ وبالمقابل ضرورة انعمل ، والاسراع في ابراز الطابع اللبناني (الانعزلي) ـ الفلسطيني للصراع ٠

وفعلا بدأ الهجوم الكتائبي بعد افتعال اسباب تافهة ، ونفذت مجزرة عين الرمانة ضد الفلسطينيين ، بهدف اسدال الستار على الجوهر اللبناني الوطني للصراع ودفعه الى الوراء لتحاشي مضاعفاته التي كانت معركة صيدا وما ترتب عليها نموذجا له ٠

لقد راهنت القيادة الكتائبية على ان صراع الجبهات والمتاريس والقذائف المدمرة يمكن من شل التحركات الجماهيرية الوطنية اللبنانية وبالتالي يمنع تفاعلها مع الثورة الفلسطينية ويضعف الدورالذي يمكن ان تضطلع به الحركةالوطنية في التحالف مع الثورة الى حد كبير ٠

هذه الخلفية الموضوعية الملموسة للمشروع الانعزالي ـ السلطوي ضد الحركة الوطنية والمقاومة هي التي جعلت ارضية التلاحم بين الثورة والحركة الوطنية شديدة القوة والصلابة لا يوازيها في ذلك سوى قوة وصلابة وحدة مشاريع اعدائهما المشتركين ٠

مراحل الحرب وخصائصها ٠

المرحلة الاولى : لقد بدأت هذه المرحلة في هجمة ١٣ نيسان التي استهدفت استفراد الثورة وايقاف نمو الحركة الشعبية واغتيال مطالبها ومحاصرة قيادتها الوطنية ٠ بالاضافة الى هدف اضعاف دور الجماهير الفلسطينية في الدفاع عن الثورة ٠ وذلك عن طريقتغليب الطابع اللبناني (الانعزالي) ـ الفلسطيني للصراع والذي يتخذ شكل عمليات عسكرية ٠

وعلى امتداد الجولات الثلاث الاولى ، حاولت القوى الانعزالية تأجيج الطابع الطائفي اولا والاقليمي ثانيا ٠ لا ضد الشعب الفلسطيني فحسب ، بل ضد المسلمين الذين يتحالفون معهم ويدافعون عن حقوقهم ٠ (١٩)

ومن المؤشرات البارزة لذلك : المخطف على الهوية ٠ قتل العمال السوريين ٠ التعذيب المنظم ٠ (٢٠) تزايد الشعارات الشوفينية التي ترتبط بالايديولوجية الانعزالية العامة٠

وبالرغم من ذلك فان المحاولات الانعزالية لاضفاء الطابع الطائفي لم تتمكن من ان تخفي السمة الجوهرية للصراع الوطني الاجتماعي اللبناني ، وقد برز ذلك في تصريحات القيادة الانعزالية ذاتها بطريقة مداورة ٠ فمؤتمر الرهبانيات يعلن عن « عدائه للشيوعية» امعانا في محاولة اخفاء الطابع اللبناني الاجتماعي للصراع ٠ ويستعدي السلطة ضد الفلسطينيين ٠ وبيار الجميل يصف ما يحدث بانه « محاولة انقلاب يسارية » !

النتيجة : لقد كان حصاد الجولات الثلاث في مصلحة الثورة والحركة الوطنية ·وفي غير مصلحة المشروع الانعزالي السلطوي واهدافه · فطابع الصراع عاد لبنانيا وطنيا اجتماعيا بشكل واضح · وسقط مشروع الحكومة العسكرية التي ارادتها القيادة الكتائبية والسلطة كأداة لحل فاشي ·وتشكلت حكومة رشيد كرامي على انقاض الحكومة العسكرية، وان كانت الحركة الوطنية قد اطلقت عليها صفة « حكومة اللون الواحد» الا انها لا تتمكن من ان تضطلع بوظيفة ضرب الثورة وطمس المطالب الوطنية اللبنانية · لقد كانت حكومة « الهدنة المؤقتة » تمثل بالضبط توازنا بين حدود التراجع الانعزالي المؤقت عن هدف تغليب الطابع « اللبناني » الفلسطيني العسكري للصراع ، وبين ما وصلت اليه قدرة الحركة الوطنية اللبنانية حينذاك في معركة فرض الجوهر اللبناني الوطني والطبقي للصراع وعلى الارضية السياسية الديمقراطية لميادينه·ولقد انتقل التوازن في صيغته العسكرية والسياسية الى تركيبة حكومة رشيد كرامي · حكومة اللون الواحد ·

بعد هذه الحلقة ، خرج التلاحم الفلسطيني اللبناني اكثر تماسكا وقوة دفع ، وقد فاز بشروط جديدة للتفاعل والتداخل والوحدة · استعدادا لمواجهة الحلقات القادمة في الصراع ··

من هنا · فالاهداف الانعزالية ضد الثورة كما اسفرت عن نفسها هي بالضرورة والواقع ضد الحركة الوطنية···والنجاحات التي حققتها الثورة هي بالتاكيد لكلا الحركتين الوطنيتين الشقيقتين ولتعزيز وحدتهما · تماما كما هي الاخفاقات التي يمكن ان تصيب اي منهما هي بالضروره ، وبالترتيب تصيب حليفتها بالدرجة ذاتها · ذلك لان اي انتكاسة للثورة ستؤدي الى اضعاف الحركة الوطنية ونضالاتها ، وان كان ذلك مؤقتا بالتاكيد ·

الوجه الثاني للمناورة ·· محاولة تحييد الثورة مؤقتا ؟

بعد الجولة الثالثة مباشرة ، حاولت القوى الانعزالية الدخول من الباب الثاني . لزعزعة الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية · لقد حاول كل من بيار الجميل وشمعون، الادعاء بان التناقضات مع الثورة الفلسطينية هي من النوع الذي يمكن تسويته بسهولة· وبان المشكلة الاساسية هي مع « اليسار الدولي » اي مع الذين هم وراء « المحاولة الانقلابية اليسارية »، كما قال الجميل بعد احداث صيدا وتفاعلاتها ، وذلك بهدف امتصاص جزء من عناصر تفجير المسألتين الوطنية والاجتماعية فالجميل يعلن في ١٦ اب ١٩٧٥ ، باسم حزب الكتائب ، وبعد خلوة طويلة ، بان الحزب « يرفض محاولة استدراجه في أية فتنة ، ويدعو الدولة الى تحقيق المساواة وطانصاف المحرمين ، ويؤيد نضال الشعب الفلسطيني ··· » (٢١)

وصحيفة العمل ، لسان حال حزب الكتائب ، تبدأ في تدبيج المقالات التي تشيد برئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات « واعتداله » ، كما تضع الصحيفة باسم الحزب التصنيفات التالية : في حكومة رشيد كرامي شمعون يمثل المسيحيين ، وكرامي يمثل المسلمين ، وفي الثورة الفلسطينية الاخ ابو عمار هو الرجل « المعتدل » الذي يمكن التفاهم معه · وبالتالي التفاهم بينه وبين اركان الحكومة لحل الازمة ·

وكميل شمعون هو الاخر ، بعد ان دخل الوزارة « التسوية » حاول ان يجري اتصالات عديدة مع الثورة وبشكل خاص مع الاخ ابو عمار · وفي حينه كانت صحف الوطنيين الاحرار تبرز فلسطينية شمعون ونضاله من اجل فلسطين وتأييده للقضية الفلسطينية ·

لكن مثل تلك المحاولات سرعان ما تنفضح وتبوء بالفشل · لانها تقوم على المناورة والخداع ، والتي تستهدف انتزاع مواقف من الثورة تصدع تحالفها مع الحركة الوطنية ، والثورة ترفضه بقوة ·

وسط هذه المحاولات المفضوحة ، تتصاعد عوامل تفجر المسألة الوطنية اللبنانية ففي ١٨ اب ١٩٧٥ يذيع كمال جنبلاط باسم الحركة الوطنية وثيقة الاصلاح الديمقراطي « لبناء لبنان عربي ديمقراطي ، تلغي الطائفية السياسية ، ويدعو لاصدار قانون انتخابي يجعل من لبنان دائرة واحدة ، ونائب لكل ١٠ الاف مواطن ناخب ويحدد صلاحيات رئيس الجمهورية ، ويتم انشاء مجلس دفاع اعلى ومجلس قيادة مع حصر صلاحيات قائد الجيش » (٢٢)

وبينما المسألة اللبنانية تفرض نفسها ، تتزايد عوامل الاغراء ضد الثورة لاسباب قديمة ـ جديدة ابرزها اتفاقية سيناء ·

ـ ففي ١ ايلول ١٩٧٦ توقع اتفاقية سيناء بين اسرائيل والحكومة المصرية · وبعد اسبوع واحد تعلن منظمة التحرير رسمياً رفض الاتفاقية · وهذا العامل من اهم العوامل التي تشجع القوى الانعزالية على معاودة شن الهجوم ضد الثورة · ودفع المعضلات الفلسطينية في لبنان الى المقدمة ·

لكن الطابع اللبناني يبقى طاغيا بالرغم من جميع محاولات اخفائه · وذلك بسبب من استمرار تفجر المعضلات الاجتماعية · اما العامل الجديد الخاص باتفاقية سيناء ،فلن يفعل سوى اعطاء الصراع ضد الثورة والحركة الوطنية طابعا مركبا اوسع شمولا من ذي قبل ·

ـ في ١٣ ايلول ١٩٧٦ · الخارجية الاميركية تدخل مباشرة ورسميا في الصراع وتتهم جنبلاط « بانه تلقى موالا من ليبيا ·· » ومفهوم ما بعنيه هذا التصريح الاميركي ، فهو يحاول ربط الصراع بعامل خارجي لكي يقدم التشجيع والمبرر لكل الاطراف المتدخلة والمتحفزة للتدخل ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني · ولكن بالرغم من السمة التحريضية للتصريح فانه يكشف حقائق الصراع اللبنانية باعتبار ان جنبلاط هو ممثل الحركة الوطنية ورمزها البارز ·

ـ وفي اول لقاء لهيئة الحوار الوطني التى انبثقت من « الهدنة التسوية » المؤقتة ، فى ٢٥ ايلول ١٩٧٦ ، طرح كمال جنبلاط مطالب الحركة الوطنية ، بينما تحدث الجميل واعلن « رفض التقسيم والطائفية والشيوعية والاشتراكية والتغيير ·· » ·

ـ قيادة الثورة اعلنت من جانبها الالتزام باتفاقية القاهرة ، واستعدادها لتطبيقها· ويبعثت الى هيئة الحوار الوطني رسالة تؤكد موقفها هذا باسم قيادة المنظمة · ومحاولة الثورة تلك تأتي لسحب اية حجة يتذرع بها الانعزاليون لنسف هيئة الحوار وتخريب التسوية المؤقتة ·

ـ ولكن بعد ان تشعبت الحوارات حول الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي اللبناني ، بادرت القيادة الكتائبية لحسم الامور ، ونسفت هيئة الحوار بمذبحة جديدة في عين الرمانة بتاريخ ٣٠ أيلول ١٩٧٦ ·

المرحلة الثانية من ايلول حتى ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٦ ·

من ايلول حتى كانون الثاني ١٩٧٦ يهيمن الطابع اللبناني ، الوطني ـ الانعزالي ، على الصراع ، وتدور المعارك في غالبية ميادين القتال بين القوى الانعزالية وقوات الحركة الوطنية والثورة التي تلعب الاولى دورا بارزا فيها ·

وفي هذه المرحلة تحاول القوى الانعزالية تأجيج الطابع الطائفي للحرب (مذابح تل عباس ، سبنية ، حارة الغوارنة ، طرابلس ·· وغيرها) · لكن الطابع الوطني يبقى هو الغالب ايضا ·

ـ في ٥ كانون الاول تعلن القمة الاسلامية « المطالب الوطنية » قبلتوسيع الحكومة ·· والمفتي حسن خالد ، يشدد على التمثيل النسبي وتحديد صلاحيات رئيس الجمهورية ·

عودة نحو « فلسطينية » الصراع : ـ بدءا من ٤ ايلول ، حاولت القوى الانعزالية مرة اخرى ابراز مسالة الوجود الفلسطيني الى المقدمة للخروج من المازق · وبدأت حرب تجويع مخيم تل الزعتر ·

ـ كذلك في ١٢ منه ، هاجم ١٥٠٠ مسلح من القوى الانعزالية مخيم ضبية المحاصر داخل المناطق الانعزالية · هذا الاختيار لوقت تفجير مسالة الوجود الفلسطيني اريد لها ان يترافق مع مناقشة القضية الفلسطينية في مجلس الامن · حيث بدأت المناقشة في الثالث عشر من كانون الاول ١٩٧٥ ، بهدف التاثير على موقف منظمة التحرير واضعافه·

وفي اليوم التالي تقتحم القوى الانعزالية مخيم ضبية وتنكل بسكانه العزل وتدمر المخيم ·

ـ ردا على هذه المحاولات ، كانت قوات الحركة الوطنية ترد على جميع الجبهات· ويدور الصراع حول مناطق لبنانية تشكل كل منها مواقع ضعيفة بالنسبة للقوى المحيطة بها · وخلال ايام تنفذ القوى الانعزالية مجزرتي المسلخ والكرنتينا ، وبينما ترد قوات الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية بدخول الجية والدامور والسعديات ·

هكذا يعود الطابع اللبناني الى المقدمة بوضوح ...

ابعد من ذلك ، وابتداء من ٢٠ كانون الثاني ، تتفاقم الازمة في اجهزة الدولة ·وتبدأ بالتفكك ، وحرب الثكنات تتواصل في بيروت وعلى امتداد المناطق اللبنانية اي ان السمة اللبنانية للصراع بدأت تغوص في العمق (٢٣) ·

واختلت موازين القوى العسكرية لصالح الحركة الوطنية ، والثورة الفلسطينية · واضطرت القوى الانعزالية الى القبول بوقف اطلاق النار وأصبح ساري المفعول في ٢٥كانون الثاني ١٩٧٠ ·

لكن القبول بوقف اطلاق النار كان يخفي الرفض المطلق والدائم من قبل القيادة الانعزالية للاعتراف بموازين القوى القائمة والانتقال بها الى الصراع السياسي ،وصياغة الاسلام على اساسها · ومنذ الجولة الاولى كانت المعضلة تتكرر : انكار كل التطورات الموضوعية العسكرية والسياسية ومحاولة العودةالى الوراء نحو الصفر بمعزل عنالوقائع· وفي ٩ نيسان ١٩٧٦ يبدأ تدفق القوات السورية المتاحة · وفي ١ حزيران اندفاع جديد وبدء المواجهة ·

وبعد ايام فقط من توقف الاجتياح العسكري السوري على مشارف صيدا وفي صوفر، وبالضبط في اليوم الثاني لبدء الانسحابات الجزئية السورية من مداخل بيروت ، استانف الهجوم الانعزالي ، وبدات عملية حصار تل الزعتر بشكل خاص في ٢٣ حزيران ١٩٧٦ ·

لقد كان للهجوم هدفين مباشرين : الاول ، هو محاولة الامساك بالقوات السورية . وتقديم مبررات لاستكمال اجتياح المناطق الوطنية بحجة تجدد القتال عند بدء الانسحاب · والثاني ، هو العودة نحو تغليب الوجه الفلسطيني للصراع ، وذلك عن طريق اثارة مسألة الموقع الجغرافي لمخيم تل الزعتر وكذلكبالنسبة لجسر الباشا ، وما يترتب على ذلكمن محاولة للاقتلاع الكامل للمخيمات · ولقد اصبح ممكنا وضع هذه الاهداف العريضة ، فقط ،بسبب احتلال القواتالسورية لما يعادل٦٠٪ من المناطق اللبنانيةالوطنية،وتربض على صدرالجماهير قوات تتألف من ما يقارب الـ ٤٥ الف جندي · وبالرغم من كل ذلك كانت معركة الدفاع عن مخيم تلالزعتر مفخرة فيالصمودوالتصدي ·ومواجهة الاجتياح اسطورةفيالاستبسال· لقد انتصرت معركة رفض الاستسلام · وانهزمت المراهنة الانعزالية التي ارادت جعل المعركة « نموذجا » للاستسلام الزاحف (٢٤) ·

القيادة السورية : المناورة الانعزالية ذاتها ·

ان المبادرة السورية وما ترتب عليها من دور سياسي وعسكري لم تشذ عن قاعدة العمل الانعزالية ،بل كانت اكثر وضوحا واصرارا فيمحاولات النيل من الوحدة الكفاحية، الفلسطينية اللبنانية · وقد تركزت في محاولات خلق تعارض مصطنع بين الشعبين الفلسطيني واللبناني واهدافهما الوطنية · ولقد كانت اكثر امعانا في التضليل بسبب من اشعارات التي تعلن الالتزام بها ، القومية والوطنية · والادعاءات العريضة عن الوحدة النضالية

مع الثورة والشعب الفلسطيني ، والنضال ضد الامبريالية واسرائيل ، بالاضافة الى شعارات مصلحة لبنان ووحدة أرضه وشعبه وامته ٠

ـ وحينما كانت في طور الحياد ومحاولات تحقيق التوازن ، وقبل ان تتحول الى مناهضة الحركة الوطنية ، كانت تحاول احتواء موقف الثورة ، عبر الادعاءات عن وحدة الهدف ، ووجود القيادة السورية ـ الفلسطينية المشتركة ، والتي تشكلت بمبادرة غير مفهومة من القيادة السورية ٠ اما التعامل مع الحركة الوطنية في الفترة ذاتها ، فقد كان يتميز بالتذبذب ٠ ولكن خطه العام كان واضحا وهو : ان القيادة السورية كانت تعتقد بان الحركة الوطنية يمكن تطويعها عن طريق تطويع الثورة ، او عزلها وتصفيتها بسهولة ٠

ـ وفي ٣١ اذار ١٩٧٦ ، كان الاعلان الرسمي عن مناهضة القيادة السورية ومبادرتها للحركة الوطنية اللبنانية ٠ وبالضرورة تحالفها مع أعدائها واعداء الثورة الفلسطينية ، اي مع الجبهة الانعزالية٠وعلى الفور تحول هدف فك الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية، الى مطلب رسمي يقدمه حكام دمشق وعلى اعلى المستويات الى قيادة المقاومة كشرط لاستمرار التعايش والتعامل معها ٠

ـ ومنذ التاسع من نيسان تتحول المبادرة الى اجتياح عسكري بارادة النظام السوري لمنفردة ، وبموافقة الطرف الانعزالي التي جاءت لمساعدته ٠ وفي ٦ حزيران ١٩٧٦ اخذت مدافع الدبابات اتجاهها ضد الثورة والحركة الوطنية وفي مواجهة صدور مقاتليهما الفلسطينيين واللبنانيين ٠

وعلى امتداد الاشهر الاخيرة ، يستمر الهدف اياه ، ويتكرر الطلب ذاته ، وان باشكال وتعبيرات مختلفة : فصم التحالف بين الثورة والحركة الوطنية ، كبند اول في جدول اعمال المبادرة ٠٠ وفي المراحل الاخيرة تعلن الاهداف بشكل اكثر وضوحا :تصفية الحركة الوطنية ٠٠٠ وابعد « خلق » قيادة فلسطينية « جديدة » مطواعة تبارك الدور السوري السياسي والعسكري ، وتندرج في خطط النظام الامبراطورية اللاحقة لتسوية قضايا الصراع في المنطقة ، وبشكل خاص المسالة التي تتدرج هي الاخرى كبند اساسي في اهداف المبادرة (٢٥)٠

ولكي يمكن معرفة الارضية المشتركة لجميع اطراف العداء للثورة والحركة الوطنية ، لا بد من تفحص جوهر كل مشروع منها : الانعزالي ، والسلطوي ـ الانعزالي ، ومشروع المبادرة السورية ، والاخير بالرغم من منطلقاته وشعاراته المختلفة ، الا انه في الواقع العملي ، ارتكز على القوى الانعزالية ذاتها بالتحالف والتنسيق ، وقوى النظام الطائفي ومرتكزاته ذاتها ٠ كما حصل على تأييد القوى والاطراف العربية والدولية التي باركت المشروع ووقفت وراءه ، والنتيجة ـ والعبرة بالنتائج ـ هي المواجهة الدموية مع الثورة والحركة الوطنية في آن معا ، مضطلعا بوظيفة القوى الانعزالية بالكامل ٠

وعند وضوح اسس المناهضة المشتركة للثورة والحركة الوطنية في جميع المشاريع

المعادية تتعين بدقة الاسس الموضوعية المتينة والعميقة للوحدة الكفاحية المصيرية بين الشعبين الفلسطيني واللبناني وحركتي تحررهما في مواجهة المشاريع المعادية والمناهضة المختلفة ٠

١ ـ المشروع الانعزالي ـ الكتائبي ـ الشمعوني ٠

ان بنود المشوع الانعزالي الحقيقية اصبحت معلنة وواضحة بما فيه الكفاية ٠ والسياسة الانعزالية والمناورات المرتبطة بها لم تفعل شيئا سوى محاولة خلط البنود ببعضها البعض وتقديم احدهما على الاخر لاخفاء وحدتهما العضوية ٠ ولكن جوهرهما وتسلسلها كما اكدته الاحداث هو التالي :

ـ مشروع تصفية الوجود للفلسطيني المسلح ، وتوزيع الوجود البشري على الاقطار العربية ، او الابقاء على جزء منه في سجون المخيمات تحت هيمنة الجيش والدرك كما كان الوضع عليه قبل حزيران ١٩٦٧ ٠ وبالمقابل الاستفادة من الايدي العاملة الماهرة والرخيصة التي سبق ان عملت طويلا في خدمة مصالح الرأسماليين والاقطاعيين وكبار التجار اللبنانيين ٠

ـ المشروع الانعزالي ـ ضد الثورة اولا ٠ ان تحقيق المشروع الانعزالي ضد الثورة ، يخل في موازين القوى اللبنانية لصالح القوى الفاشية المسلحة (٢٦) وهو ما يجعل مسألة تجريد الحركة الوطنية من سلاحها ، والتي حملته حديثا للدفاع عن الثورة وفي سبيل المطالب الوطنية والاجتماعية ، هدفا انعزاليا جادا لاحقا ٠ وعندها تصبح المطالب الوطنية والاجتماعية الاصلاحية يتيمة عزلاء يمكن تماما تمييعها وتجويف مضامينها ٠ وهو ما يمهد بالنتيجة لتوفير شروط اقامة نظام لبناني فاشي ، يصادر الحريات الديمقراطية النسبية وكذلك المكاسب الوطنية والاجتماعية التي حققتها الحركة الشعبية عبر كفاحها الطويل ٠ وربما اتخذت شكل صيغة فاشية متلفعة في اغلفة [illegible] رجعية طائفية ، مسيحية واسلامية ٠

ـ اما المناورة القائلة بالتعايش مع الثورة ، وتصفية الحركة الوطنية اولا ، باعتبارها تتشكل من القوى التي تحاول « احداث انقلاب يساري » والتي ترتبط باليسار الدولي ، فهي تعبر عن الوجه الثاني لمرتكز المشروع الاول ٠

ـ ان محاولة الجميل ـ شمعون الادعاء بان المشروع الانعزالي لا يستهدف الثورة بل « اليسار الدولي المخرب » كانت محاولة لم يكتب لها التقدم والنجاح ، وبالرغم من انها استمرت على امتداد اب ايلول ١٩٧٦ ، الا انها سرعان ما ارتطمت بالاسس الموضوعية الصلبة لوحدة الكفاح الفلسطيني اللبناني ، ولانها هي بالذات لا تعبر عن الواقع وحقيقة مواقفهم وسياساتهم ، فقد تناثرت شظايا مدافعهم ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني ، وضد حركتي تحررهما الوطني ٠

ـ وبالترافق مع ذلك ، فان تمكن الحركة الوطنية اللبنانية ، من دفع عناصر الصراع اللبنانية الى المقدمة ، وحشد طاقات الجماهير ، وقيادة كفاحها السياسي والجماهيري المسلح ، جعلها تشكل خطرا جديا على المشروع الانعزالي · وفي سياق ذلك جاءت مناورة الجميل ـ شمعون لتحييد الثورة اولا · لكي تتفرغ القوى الانعزالية لانزال ضربة موجعة بالحركة الوطنية تمكن من لجمها تماما · وفي المرحلة الثانية يستأنف المشروع عمله ضد الثورة ، دون عقبات وطنية لبنانية ، دون دور للحركة الوطنية، وبوتيرة اسرع ، ودون مضاعفات ·

٢ ـ من البرنامج السلطوي ـ الى الانعزالي الكامل ·

منذ معركة العام ١٩٦٩ ، مرورا بعملية ١٩٧٣ وحتى اوائل العام ٧٥ كانت محاولات اركان النظام الانعزالي تتواصل بدفع من القاعدة الطائفية الانعزالية ودعمها الكامل، لان ظروف المبادرة في المشروع لم تنضج بعد من خارج السلطة ·

ومنذ نيسان ١٩٧٥ تصدت القوى الانعزالية لاخذ زمام المبادرة ، وتحركت بمعزل (شكلي) عن مؤسسات النظام ، لكنها حاولت توظيف اجهزة الدولة بشكل كامل في خدمة المشروع · وقد اندمجا كليا ، الدور الكتائبي ـ الانعزالي ودور النظام ، من حيث الاهداف والوسائل والشعارات ، سواء تجاه الثورة او الحركة الوطنية ، على يد سليمان فرنجية واجهزته وشرعيته الرئاسية منذ الربع الاخير من العام ١٩٧٥ ·

المبادرة السورية طبيعتها ومسارها ·

ـ لقد بدأت المبادرة سياسية ، وسرعان ما تحولت الى عسكرية سياسية · بدأت تحاول تحقيق التوازن ، وتحولت نحو تشكيل حلف سياسي ـ عسكري مع القوى الانعزالية · طرحت هدفا معلنا وبشكل شبه رسمي هو ضرب الحركة الوطنية · وعلى الفور تحولت الى مواجهة الثورة والحركة الوطنية معا · وبالضرورة وضعت قواها في خدمة معسكر جميع اعدائهما · وبالترتيب في مواجهة القوى الوطنية والتقدمية العربية والعالمية الحليفة لهما والمدافعة عن اهدافهما ·

ـ في تصديها للحركة الوطنية اللبنانية ، عملت على استبدالها بالزعامات الاقطاعية والرجعية التقليدية ، والمجموعات التابعة للنظام السوري ذات التركيب اليميني الرجعي ، او المرتبطة بأجهزة مخابراتها ، والتي لها سوابق في الارتباط بالمخابرات العربية · وسرعان ما تحولت هذه القوى ، « الجبهة القومية » الى احتياطي ينشط في خدمة القوى الانعزالية وضد الثورة والحركة الوطنية ، عبر مواقف وتحركات مختلفة ·

ـ محاولة فرض وثيقة ١٤ شباط « وثيقة فرنجية والقيادة السورية » ، بهدف الابقاء على طائفية الرئاسات الثلاث ، وتكرس لبنان الطائفي عموما · وهي الوثيقة التي تمكن القوى الانعزالية والرجعية واليمينية التقليدية من الاحتفاظ بمواقع كبيرة واحتلال اخرى تواصل منها القتال والمناهضة ضد الثورة والحركة الوطنية ، بينما هي في المقابل تحرم

الجماهير اللبنانية وحركتها الوطنية من تحقيق اي مكسب وطني ديمقراطي ·

ـ تعمل المبادرة على تكبيل الحركة الجماهيرية اللبنانية · بمعنى تقييد حريتهـا ، ومصادرة مكاسبها ، ومطالبها الوطنية الديمقراطية ، وبالتالي عرقلة كفاحها من اجـل ادخال لبنان في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، كما ان الوقوف بوجه المطالب الوطنيـة الاصلاحية يعرقل تعبئة قواها ، ويضعف شروط وامكانات صمودها وتصديها لاسرائيـل والقوى الانعزالية · وبهذا المعنى هي محاولة لتجفيف بحر الحركة الجماهيرية اللبنانية الذي تسبح فيه الثورة ، من حولها · وانتزاع الدرع الذي يشكل خط صدامها الامامي مع القوى الانعزالية ، وفي مواجهة الهجمات الاسرائيلية على جنوب لبنان ·

ـ العمل على تشتيت ومحاصرة القوى العسكرية للحركة الوطنية ، والعمل علـى تصفيتها ، اي تصفية القوى الحليفة للثورة وعمقها الاستراتيجي ، في كفاحها المصيري ضد اسرائيل واعدائها الاخرين ·

ـ على اساس التحالف بين القيادتين السورية والانعزالية ، خيضت المعارك الدامية ضد الثورة والحركة الوطنية ، وقد نالت الثورة والشعب الفلسطيني النصيب الاوفر · وبينما تطبق القوات السورية على انفاس الشعبين اللبناني والفلسطيني وتجمـد القـوى العسكرية للثورة والحركة الوطنية ، تواصل القوى الانعزالية هجماتها ضد مواقعهما · بالمقابل يتدفق العتاد والسلاح على الجبهة الانعزالية ، في الوقت الذي يشتد الحصـار السوري على الموانىء والمواقع الوطنية وينسجم مع الحصار الانعزالي والاسرائيلـي · وتشارك الدبابات السورية في معارك تل الزعتر وجسر الباشا وبرج حمود والنبعة ،بينما كان المتواطؤن مع القيادة السورية من جماعة الحركة « الوطنية القومية » يعملون علـى تسهيل تسليم النبعة للقوى الانعزالية ·

ـ المعاهدة « الامنية » التي يراد فرضها بالقوة على النظام اللبناني وضد ارادة شعبه وبمعزل عنها · وكذلك الكونفدرالية التي يراد ادخال لبنان والثورة الفلسطينية الى محيطها ، تهدف هي والمعاهدة « الامنية » الى وضع الثورة والحركة الوطنية اللبنانيـة امام فكي الكماشة السورية ـ الهاشمية · وهذه اهداف اصبحت معلنة وشبه رسمية ·

دورة المبادرة السورية · من المناورة الى الاجتياح العسكري ·· ومنه الـى عقـد الاتفاقيات ··· وبعدها اجتياح عسكري اخر ·· حتى يمكن فرض شروط الاستسلام الكامل·

من مناورات ايار ٧٦ لتنصيب الياس سركيس ·· الى الاجتياح العسكري فـي حزيران ٧٦ · ومن اتفاقية دمشق تموز ٧٦ الى عملية اجتياح الجبل في اواخر ايلول · سياسة واحدة متكاملة ، وحلقات متصلة واهداف واحدة ·

* في اوائل ايار كانت خطة العمل تقوم على التدخل السياسي والعسكري (الجزئي) المباشر في انتخابات الرئاسة ، بالهجوم السياسي تحت مظلة الردع العسكري · وقد ترافق مع اعلى درجات الضغط والابتزاز لاستفراد الحركة الوطنية ··· ومرت العملية وخرجت وحدة الثورة والحركة الوطنية اكثر قوة وتماسكا · واخفقت المناورة في تحقيق هدفهـا

الاساسي · لا بد اذن من مواصلة الاجتياح العسكري ·

* في حزيران بدأت المغامرة العسكرية ، لكنها ارتطمت بصخرة الوحدة الصلبة بين الثورة والحركة الوطنية ، وتكسرت على مشارف صيدا وعند حدود صوفر ··· لا بد من ابرام الاتفاقات المؤقتة !

* في تموز عرضت القيادة السورية التفاوض على اساس المبادرة الليبية ·وتجاوبت الثورة الى ابعد الحدود لتاكيد موقفها المبدئي لانهاء القتال ، ولتجريد القيادة السورية من اعذارها وعقدت اتفاقية دمشق في ٢٩ تموز التي حاول النظام السوري ان يجعلها مدخلا لتصديع التلاحم بين الثورة والحركة الوطنية · ولكن سرعان ما اخفق ، ومزق الاتفاقية ·

* ومنذ اوائل ايلول ، بدأت القيادة السورية محاولاتها في الضغط المتعدد الاشكال وممارسة الابتزاز المكشوف مع القيادة الفلسطينية لكي تنسحب من الجبل · (وهو مطلب انعزالي اساسي دائم) · وقد اصطدمت جميع عروضها بموقف الثورة الحازم وصلابة الوحدة الكفاحية بينها وبين الحركة الوطنية ·

وفي فجر السابع والعشرين من ايلول استأنفت عملياتها العسكرية ، بالتنسيق الكامل مع القوى الانعزالية لاحتلال المواقع الوطنية في الجبل · وهكذا تستكمل دورة المبادرة من المناورة الى المغامرة العسكرية ، ومنها الى الاتفاقات ·· ومن ثم معاودة الاجتياح العسكري ·· بهدف فرض شروط الاستسلام كاملة · (٢٧)

وبالرغم من المكاسب العسكرية التي حققتها القيادتان السورية والانعزالية ، الا ان القتال الباسل والمقاومة الفلسطينية ـ اللبنانية قبل الانسحاب من اي موقع افقد العملية اهم اهدافها الاساسية ، وهو فرض الانسحاب بواسطة الضغط العسكري والابتزاز السياسي · وقد كانت النتيجة بالنسبة للثورة والحركة الوطنية خسارة موقع عسكري وبالمقابل تحقيق نصر سياسي كبير (٢٨) ·

ـ ان ما هو اشد خطرا في مسيرة المبادرة السورية ، هو ان المشروع اذا تحقق ، او نجحت القيادة السورية في تحقيق جزء منه ، أي اضعاف الثورة واحكام الوصاية عليها ، يواصل المشروع الانعزالي ولن يتوقف حينذاك عند حدود ·

وربما لن تتمكن سوريا من ايقاف اندفاعه أن هي أرادت ، أو بالاحرى اذا كان ايقافه في خدمة مشروعها ، واندفاعه ليس في صالحه · ان القوى الانعزالية ستواصل اندفاعتها بعد ان تكون القيادة السورية قد أدت وظيفتها وأخلت في موازين القوى لصالح القوى الانعزالية بشكل كبير ، وعندها تواجه الجبهة الانعزالية مقاومة ضعيفة وفي غياب الحركة الوطنية المنهكة ، ستظهر الانياب الشوفينية ، وتطرح مهمة تصفية الوجود العسكري والسياسي للثورة ثانية وفي ظروف مؤاتية ·

من هنا تنبع خطورة الدور السوري ، ومن هنا ايضا تنبع صلابة الوحدة بين الثورة

والحركة الوطنية لمواجهة حلقاته وتكسيرها واحدة بعد اخرى ٠

ومن استعراض مواقف مختلف الاطراف المعادية للثورة والحركة الوطنية ، يبدو واضحا ان التدخل السياسي والعسكري السوري هو في ثقله الاكبر ضد الثورة الفلسطينية وأهدافها الوطنية ومستقبلها ٠

ومن المفيد ان نسجل مجموعة من المؤشرات التي برزت عشية دخول الوحدات الاولى من القوات السورية في ١ نيسان ١٩٧٦ ٠ والتي هي ذات دلالة كبيرة ٠

ـ في ٢١ اذار يبدأ الموفد الاميركي دين براون مبعوث الرئيس فورد مهمته كوسيط لحل الازمة اللبنانية ٠

ـ وفي اليوم ذاته ، تهاجم منظمة البعث السوري كمال جنبلاط ممثل الحركة الوطنية اللبنانية ، وتتهمه « بالعمالة والخيانة » ٠

ـ وبعد يومين اثنين فقط ، وفي الوقت الذي تطهر فيه القوات المشتركة عينطورة وتعلن الهدنة العسكرية المؤقتة ، وتذيع برنامجها لانهاء القتال ، يهدد كيسنجر وزير الخارجية الاميركية بتدويل الازمة اللبنانية ٠

المواقف الدولية والعربية التي باركت المبادرة العسكرية ودعمتها ٠

١ ـ اسرائيل : باركت التدخل العسكري ، وشجعت على مواصلته ٠ في البداية وضعت خطا احمر لحدود الاجتياح ، وسرعان ما استبدل بضوء اخضر دائم ٠

وتحول الخط الاحمر من جغرافي الى سياسي ، يرتبط بالهدف الذي تسعى اليه القوات السورية ٠ وقد اصبح هدفها من قبل حكومة تل ابيب مرغوبا فيه تماما فهو ، اضعاف منظمة لتحرير وضرب الحركة الوطنية اللبنانية ٠

كما ان اسرائيل لا تخفي مكاسبها العديدة من اجتياح القوات السورية ، وتسببها في استمرار القتال ٠ وقد حددتها رسميا على الشكل التالي كما في تصريحات عدد من قادتها في الفترة الاخيرة :

ـ انهاك المقاومة الفلسطينية واضعافها ٠

ـ تحول الجيش السوري عن الصراع ضد اسرائيل وانشغاله في القتال ضد المقاومة الفلسطينية ٠

ـ اشتداد المعارك الطائفية التي تؤكد اراء اسرائيل ٠ اي التي تبرر قيام الدولة العبرية العنصرية ٠

ـ وبعد عملية اجتياح الجبل اعلن شمعون بيريز « ان هـــدف القدس حاليا هو نفس هدف دمشق » ٠

٢ ـ اميركا : الحكومة الاميركية ، وقبل بدء الاجتياح العسكري ، كانت قد اعطـــت الضوء الاخضر للحكومة السورية ٠ وفي رسالة رسمية ٠ (٢٩) وكذلك في بيانـــات وتصريحات وتحركات مختلفة ٠

وما قاله براون في ندوة تلفزيونية عقدها في واشنطن بتاريخ ١٠ اب ١٩٧٦ كـــان شديد الدلالة والوضوح ٠

* حينما سأله الصحفي « تربويت » عن التقاء الموقفين السوري والاسرائيلي في الازمة اجاب براون :

« نعم هذا احتمال وارد » ٠ ثم اضاف«انما يقوله السوريون هو انهم يريدون ان يروا الفلسطينيين اكثر لينا تجاه تسوية سلمية ٠٠٠ ولا شك ان حركة فلسطينية اكثر توحدا لا تقع تحت تهديد اليسار فيها ، ومحكومة اكثر من دول المواجهة مع اسرائيل يمكـــن ان تقودنا في اتجاه التسوية ، اذا ما امكن ايجادها كنتيجة للمواجهة القائمة في لبنان »(٣٠)٠

٣ ـ النظام الهاشمي ـ لقد سافر الملك حسين عشية الاجتياح السوري الى واشنطـن في محاولة لاستعجال الموافقة الاميركية على التدخل السوري ٠ وفعلا كان لجهوده دورا في استكمال العوامل التي بنت اميركا قرارها على ضوئها (٣١) في اعطاء الضوء الاخضر للاجتياح ٠

ـ وفي ١ نيسان ٧٦ اعلن الملك حسين انه « يؤيد تدخل سوري في لبنان لانه يمنـع محاولة المسلمين المتطرين تغيير النظام اللبناني » (٣٢) ٠

ـ وفي تصريحات لاحقة اعلن بأنه « يؤيد الجهود السورية لايقاف القتال وان منظمة التحرير هي السبب في استمرار القتال لانها تتدخل في الشؤون الداخلية للبنان ، تمامـا كما تدخلت في الاردن » ٠ (٣٣)

٤ ـ الانظمة الرجعية : ان المواقف الفعلية للانظمة العربية الرجعية منذ بدايـــة التدخل العسكري السوري هي الموافقة الضمنية المعبر عنها بالصمت والتفرج الطويـــل الامـد ٠

كما تأكد ذلك ايضا من خلال كل « الجهود » التي بذلت لايقاف الاجتياح ٠حيث اندرجت جميعها في المبادرة السورية ٠ بسبب عجز القيادة السوريـة عن تحقيق الحسم العسكـري السريع وانهاء الازمة أي تأدية وظيفتها ضد الثورة والحركة الوطنية ، بدأت التحركات العربية لايجاد مخرج للنظام السوري ذاته ٠

أما المواقف الرجعية التي يمكن أن تذهب أبعد من ذلك فانها ترتبط بالصراعـــات الثانوية حول دور وحجم المبادرة السورية في حسابات مستقبل المنطقة ٠

ولقد كان دين براون واضحا ايضا في تحديد موقف الانظمة العربية الرجعية وهو بصدد حديثه عن السياسة الاميركية تجاه لبنان · والذي اصبح الدور العسكري السوري كاحدى ادواتها ، قال المتحدث الاميركي « ان وجهة نظر اميركا تجاه لبنان تتشارك فيها ـ سوريا واسرائيل ··· وبالتأكيد تشاركنا فيها ايضا السعودية وكل البلدان العربية التي نطلق عليها « معتدلة » ·

اما الانظمة الوطنية الاخرى فأن الصمت والتفرج الذي تنهجه كان عمليا في خدمة الجهد السوري العسكري وليس ضده · والمواقف التي اتخذت شكل المعارضة لم تكن فعالة حتى الان ·

٥ـ القيادة السورية · والنظام السوري هو الاخر اصبح لا يخفي حقيقة اهدافه ولا ينكر المواقف الدولية التي تدعمه في المبادرة العسكرية ·

ففي لقائه مع الوفد الفلسطيني ، خلال مباحثات اتفاق دمشق ، اعترف حافظ الاسد للوفد « بان اسرائيل لم تعترض ولم تتدخل عندما دخلت القوات السورية الى لبنان ، لانها كانت ترى أن هذه القوات دخلت لتصفية المقاومة ! » ثم يكمل حديثه « ·· اما الان فهو ، اي الاسد ، يتوقع عدوانا اسرائيليا بعد الاتفاق (اتفاق دمشق) · (٣٤) وبعد مضي شهر واحد فقط ، مزقت دمشق الاتفاق · والاعتداءات الاسرائيلية لم تحصل ! ولماذا تحصل ؟ بدلا منها تكاثرت تصريحات التأييد · اخرها تصريحات بيريز في ايلول « لسوريا واسرائيل نفس الهدف » ·

الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية هي درع الثورة وعمقها الاستراتيجي في لبنان·

ـ من الواضح ان الاهداف الوطنية ـ الاجتماعية ، التي تناضل في سبيلها الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية هي بالضرورة والواقع في مصلحة الثورة الفلسطينية وفي خدمة اهدافها المباشرة والاستراتيجية ·

ـ أن المهام المتمثلة في برنامج الاصلاح الديمقراطي والاجتماعي والسياسي ، تساعد على تعبئة الجماهير اللبنانية وتنظيمها واعدادها للمساهمة في القتال ضد اسرائيل · كما تمكن الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية ، والجماهير الملتفة حولها ، من خوض نضال متواصل من اجل سياسة وطنية دفاعية تجاه اسرائيل ، وانخراط لبنان في الصراع العربي ـ الصهيوني ·

ـ والنضال من أجل مهام البرنامج الوطني الاصلاحي ، يمكن ايضا من تكثيف مساهمة الحركة الوطنية التقدمية في النضال في سبيل انتزاع حق الثورة والشعب الفلسطيني المطلق في الوجود البشري المسلح ، وحق التعبئة والتنظيم والتدريب والقتال ضد اسرائيل · كما ان انجاز البرنامج الوطني يمكن الحركة الوطنية اللبنانية من خوض القتال الى جانب الثورة جنبا الى جنب ومن موقع اقوى وافضل ضد اسرائيل والقوى المعادية للثورة ، والوقوف بوجه محاولات تطويقها ومصادرة استقلالها السياسي او انتقاصه ·

ـ أن مناطق قوة ونفوذ الحركة الوطنية ، السياسي والعسكري ، تشكل عمقـــا استراتيجيا ، وقاعدة جماهيرية وسياسية وعسكرية آمنة للثورة ٠

من هنا ، فان عناصر مشاريع القوى الانعزالية والمناهضة للثورة والحركة الوطنية اذا كانت تشكل الوجه الاول لوحدة التحالف الوطني الفلسطيني ـ اللبناني ، فان الاهداف الوطنية والقومية المشتركة تشكل وجهها الثاني ٠ بمعنى اذا كانت الاهداف النضاليـــة الاخيرة تشكل سدة التحالف ، فان مشاريع معسكر القوى المعادية والمناهضة للحركتين الوطنيتين المناضلتين هي لحمته ٠

وهذا يعني ان التحالف الذي يرتكز الى اسباب موضوعية تاريخية يكون بالتاكيـد اقوى من جميع المخططات والمناورات لفصم عراه القوية ٠

٠٠ كما في ميادين الحرب ٠٠ في ميادين الصراع السياسي ٠

ـ كما هو من الطبيعي ان يتخذ الصراع اشكالا وتعبيرات مختلفة الى جانب القتال، وفي خدمته ، واستمرارا له ، فان اشكال التحالف والتلاحم هي الاخرى تتخذ لها تعبيرات سياسية وجماهيرية الى جانب القتال وفي خدمة اهدافه ، او تتويجا للحرب واستمرارا لها باشكال وتلاوين اخرى غير دموية ٠

ان الصراع السياسي والجماهيري الذي يواكب الحرب او يعقبها ، هو بلا شك اكثر تعقيدا وتشابكا من القتال ٠ سواء من حيث وسائله المتنوعة او اشكاله او من حيث القوى التي تنخرط فيه ٠

والثورة والحركة الوطنية حينما تقاتلان في خندق واحد ، فانما تقاتلان ضـــد اعدائهما المشتركين في الخندق المقابل ٠ ولكن حينما يكون الصراع في الميادين السياسية سواء الى جانب خنادق القتال او بعد توقف نشاطها ، فان اسس الوحدة الكفاحيـــة تكون قائمة في الميادين السياسية بقدر حضور عناصر المخططات المعادية التي تمتد الى الصراع السياسي كمساعدة ، او تنتقل الى ميادينه ، كميادين اساسية ، بعد توقـــف القتال ، حيث تأخذ تلاوين متنوعة ٠

وهذا يعني ان الثورة حينما تقف الى جانب الحركة الوطنية في الصراع السياسـي خلال الحرب ، دفاعا عن اهدافها ومصالحها ، فان المواجهة السياسية المشتركة للمخططات المعادية التي تخوضها الثورة والحركة الوطنية بعد الحرب ، تتواصل على القاعـــدة الكفاحية الموحدة ذاتها ٠ والثورة بذلك تواصل الدفاع عن وجودها واهدافها الوطنية ضد اهداف القوى المعادية ذاتها التي يراد لها ان تتواصل باشكال جديدة في الميادين السياسية٠

ان هذا الواقع يؤكد بان الثورة لا تتدخل في الشؤون الداخلية اللبنانية ، بـــل وبالضبط ، تحاول منع التدخل في شؤونها ، وايقاف حلقات التآمر التي تزرعها القيادة السورية وغيرها والتي تتخذ لها اشكالا جديدة غير عسكريـــة في الميادين السياسيـــة ٠ وفيها يجري التصدي للعدوان الذي يتحول من قذاف وصواريخ ودبابات ، الى مؤامرات

وخطط سياسية ، تشارك فيها القوى التي اشعلت الحرب وادارتها ، بالاضافة الى مساهمة قوى اخرى لم تتمكن من ان تلعب الدور ذاته خلال المعارك او في ميادينها ٠

ويمكن تلخيص ذلك على الوجه التالي :

ـ ان الخطط المعادية للحركة الوطنية ، والتي تضر بمصالح واهداف الثورة هي بالضرورة تلك الخطط التي ترتبط باهداف المشروع العسكري المعادي ذاته ، والتي يراد تحقيقها عن طريق المناورات السياسية الى جانب الصراع العسكري أو بعد توقفه وعجزه عن تحقيق اهدافه ٠

ـ كما ان نضال الحركة الوطنية في الميادين السياسية هو امتداد له في ساحات القتال ، وفي جوانبه الوطنية والاجتماعية هو في خدمة الثورة واهدافها ، وبالتالي فان ارضية التحالف مع الثورة في الميادين السياسية هي الارضية ذاتها التي ترسخت عليها الوحدة الكفاحية في ميادين القتال ٠

ان من بين اهم المعضلات التي احتدم الصراع السياسي حولها خلال القتال ، ولا يزال وسيتواصل بشكل اكثر حدة بعد توقفه ، هي مسألة قيادة الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية ، وتمثيلها الشرعي لحركة التحرر الوطني والديمقراطي اللبنانية ٠ على هذه المسألة تتركز محاولات القوى الانعزالية ، والقيادة السورية ، هادفة الى تجاوز شرعيتها النضالية التي تعكس الحقائق الموضوعية ، او تحاول ثلمها واضعافها ٠

ان من ابرز تعبيرات هذه المحاولات تتمثل في العمل على تزييف ارادة الجماهير اللبنانية ، « وتركيب » قيادة « بديلة » للحركة الوطنية ، مكونة من القوى والعناصر التي تناهض مطالب الحركة الوطنية السياسية والاجتماعية ، والتي تهادن قوات الاحتلال ، وتتحالف وتتواطىء مع القوى الانعزالية التي تقاتل ضد الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ٠ هذه القيادة المزعومة يراد لها ان تأتمر بأوامر السلطات السورية وتنفذ خططها وخطط القوى الانعزالية ضد مصالح الشعبين الفلسطيني واللبناني الحيوية ٠

من هنا فان هذه المعركة التي هي اساسا معركة الجماهير اللبنانية وحركتها الوطنية هي معركة تمس اهدافها ونتائجها مصالح الثورة ومستقبلها على الارض اللبنانية ٠

ان معركة تمثيل قيادة الحركة الوطنية كتعبير سياسي لحركة التحرر الوطني الديمقرطي ، ترتبط بمعضلات اخرى لا تقل اهمية عنها ،وهي تحديدا ، مسألة الادارة المدنية ومستقبلها ٠ التي تنهض بواجب توفير المتطلبات الضرورية لحياة الجماهير اليومية وتنظيم صمودها ، وقيادة كفاحها السياسي ، استكمالا لقيادتها في المعارك ٠

وهذه المعضلة ترتبط ايضا بالمعركة مع القوى والعناصر التي تحاول اعادة تنظيم حياة الجماهير ، كما تحاول عرقلة النضال من اجل البرنامج السياسي الاصلاحي بهدف الابقاء على مرتكزات النظام الطائفية شبه الاقطاعية الرجعية ٠

واذا كان لكل من الثورة والحركة الوطنية سياسة متميزة تجاه هذه المعضلات ، تنبع من الطبيعة الخاصة لكل منهما ، وظروف نضالها ، فان التمايز يسير بشكل ثابت على ارضية التحالف وضمن نطاقه ٠

وكما يكون التمايز تجاه المعضلات الداخلية ، كذلك هو في العلاقات العربية ، وتجاه التناقضات المختلفة بين الانظمة ، وكيفية توظيف السياسات المنبثقة عنها لصالح الثورة والحركة الوطنية اللبنانية وفقا لاشكال التحالفات والتعامل الذي تنتهجه كل منهما تجاه ومع كل نظام عربي وفقا لطبيعته وسياسته ومواقفه تجاه كل من الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ٠

وكذلك ينسحب التمايز على قاعدة التحالف ، على علاقات الثورة والحركة الوطنية مع القوى التقدمية العالمية ٠ حيث يتم على قاعدة العلاقات المتمايزة بين كل منهما والقوى التقدمية العالمية ، توظيف الدعم والمساندة ، في خدمة وحدتهما النضالية وعلى ارضيتها المشتركة ٠

وكما اثبتت الوحدة الكفاحية في ميادين القتال انها اقوى من كل المؤامرات ومحاولات زعزعتها ، وخرجت اقوى واصلب عودا بعد كل مرحلة ، كذلك تخوض الكفاح السياسي الى جانب العمليات الحربية وبعدها ، ولان تخرج اكثر قوة وصلابة ، حتى يمكن توفير شروط تسوية ديمقراطية متوازنة للازمة ٠ وعندها تتمكن الثورة من مواصلة كفاحها ضد اسرائيل في ظروف اكثر ملائمة ومؤاتاه ، كما تشدد الحركة الوطنية نضالها من اجل البرنامج الاصلاحي الديمقراطي الى جانب الكفاح الوطني ضد اسرائيل على قاعدة الكفاح المتمايز والمشترك مع الثورة من اجل مصالح الشعبين وطاهداف حركتي تحررهما الوطني الديمقراطي ٠

الحواشي

(١) مجزرة ارتكبتها قيادة الجيش عندما اقتحمت المدينة ،واطلقت النار على المتظاهرين ، سقط خلالها عشرة من المدنيين اللبنانيين ٠

(٢) على امتداد الاعوام ٦٨_٧٣ كانت التحركات الجماهيرية ترتبط دائما بشعارات تطالب الدولة بالقيام بدورها في مواجهة الهجمات الاسرائيلية وانتهاج سياسة دفاعية ٠

(٣) لقد دخلت الجماهير اللبنانية على الفور كطرف معني ورئيسي ومستهدف في الصراع ٠

(٤) منذ الاشهر الاولى التي اعقبت هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، بدأت الجماهير اللبنانية تحضر وتتحفز للقتال ضد الكيان الصهيوني ، لاستئناف تاريخها المشرق في مواجهة العدو منذ بداية الاستيطان على ارض فلسطين ٠

(٥) بعد ان وضع نفسه خارج الصراع ، وابتعد عن الحروب العربية – الاسرائيلية ٠ خاصة حربي ١٩٦٧ – ١٩٧٣ ٠ تحت ستار اكذوبة كبيرة تقول « ان قوة لبنان تكمن في ضعفه » ٠

(٦) لقد انخرطت الشبيبة اللبنانية في

الجنوب في صفوف المنظمات للدفاع عن القرى الامامية · وفي السنوات الاخيرة انبثقت عمليات المقاومه اللبنانية المسلحة، وبرزت بشكل خاص في المساهمة البطولية المسلحة لاهالي كفرشوبا ضد العدوان الاسرائيلي · كما في تصدي اهالي الطيبة للغارة الاسرائيلية على قريتهم وفي معركة كفركلا تصدت مجموعة من اهالي البلدة لقيادة « الحرس الشيعي » والقوى الوطنية التقدمية الاخرى وكانت معركة مجيدة · حيث تكبدت فيها اسرائيل ما يزيد على ٣٠٠ جندي بين قتيل وجريح · (الوضع اللبناني الراهن · والمهام المرحلية للحركة الشعبية ـ منظمة العمل الشيوعي ص ٣٧ ـ ٤٥) ·

(٧) على امتداد الاعوام ٦٨ ـ ٧٣ كانت سياسة التواطؤ ، قد مكنت الاسرائيليين من مواصلة هجماتهم ضد المخيمات الفلسطينية في الجنوب وبيروت والشمال · وكذلك ضد القرى والجماهير اللبنانية في الجنوب · تلك السياسة التي مارستها اوساط معينة في الدولة وقيادة الجيش ·

(٨) بالاضافة الى الوجود العسكري والسياسي القوي في الاردن ، الذي شكل قاعدة عسكرية وسياسية اساسية للثورة ، كان تاثيرها قويا في جميع مناطق تواجد الثورة ·

(٩) وذلك بسبب ما كانت تعانيه تلك الانظمة من نتائج هزيمة حزيران١٩٦٧، بالاضافة الى السمة الوطنية المتقدمة للنظامين حينذاك ·

(١٠) لقد اشار بيار الجميل في صدد الدفاع عن توقيعه على الاتفاقية ، الى انهم ، اي زعماء القوى الانعزالية وبعض اركان النظام « كانوا يواجهون شران شر قبول الاتفاق وشر الحرب الاهلية » وبالطبع لم يكونوا مستعدين للاحتمال الثاني حينذاك · وهذا اعتراف صريح بلبنانية الصراع · والذي يعني ان الجماهير اللبنانية وحركتها الوطنية المتحالفة مع الثورة قد ساهمت بقوة في اجبار القوى الانعزالية على قبول الاتفاق· حتى ان الزعامات اللبنانية التقليدية ، اتخذت مضطرة مواقف واضحة الى جانب المطالب الشعبية الوطنية اللبنانية ·· والاقرار ببعض من حقوق المقاومة الفلسطينية في التعبئة والاعداد ·

(١١) تشكلت الوزارة حينذاك بموافقة الحركة الوطنية وباشتراكها فيها ، مراهنة منها على امكانية استخدام الوزارة كاحد منابر الصراع ولتحقيق بعض الانجازات التي في صالح المسالتين الوطنية والاجتماعية ·

(١٢) ان ما يؤكد حقيقة كون المشروع الكتائبي الانعزالي العسكري والسياسي استهدف الحركة الوطنية اصلا ، ومن ثم حليفتها التي ساعدت على ازدياد نفوذها، المقاومة ،هو ان المليشيا الكتائبية تشكلت مع بداية الاستقلال وظهرت بشكل واضح في احداث ١٩٥٨ · وحددت وظيفتها المحافظة على التوزيع الطائفي القائم وحماية مصالح الطوائف السائدة بشكل خاص ·

(١٣) في مباحثات ملكارت ، لم يحصل سوى اضافة ملحق يكرس الاتفاقية ويفسرها فحسب ·

(١٤) أن المضاعفات المترتبة على تصاعد المطالب الوطنية والاجتماعية كانت تصب بغزارة في بحر الثورة الفلسطينية ، وتوسع درعها الجماهيري اللبناني وتزيد من عوامل التلاحم بين الشعبين ·

(١٥) اي صراع لبناني ـ فلسطيني ٠ ومسيحي ـ اسلامي ومن ثم طائفي شامل ٠ وقد سلكت القيادات الانعزالية منهجا منظما لتسعير الصراعات الطائفية ، لكن القوى الاساسية والفاعلة في الثورة والحركة الوطنية كانت تناهض وتقاوم اي شطط وردود فعل طائفية في المعسكر التقدمي ، لكن هذا لم يتمكن من ان يحول دون حصول العديد من ردات الفعل الطائفية التي ارتكبتها عناصر غير مسؤولة او مشبوهة ٠

(١٦) اي بعد وضع الثورة بين فكي كماشة الاداة العسكرية الكتائبية واركان النظام وقواته ، وقد كان على الاخير ان يقوم بدوره تحت شعار تطبيق الاتفاقات المعقودة مع الثورة ، تماما كما اريد لمعركة صيدا ان تكون نموذجا للتعامل مع الحركة الوطنية في كل مدينة ،ومصنع وقرية ، حيث كانت لغة التعامل مع الجماهير اللبنانية هي زخات الرصاص وحصد المتظاهرين ٠

ـ اما التظاهرة الطائفية فقد كانت تأييدا لفعلة قيادة الجيش وحثها على الاستمرار في نهجها بالاضافة الى ابراز الوجه الطائفي الصارخ لتغطية الوجه الاجتماعي للصراع ٠

(١٧) ـ ان العديد من الظواهر والوقائع ، كانت تؤكد تداخل المعارك الوطنية والاجتماعية اللبنانية ، ، مع المعارك التي تخوضها الثورة الفلسطينية في مواجهة اسرائيل ٠

وبالمقابل تؤكد بان المشروع الكتائبي هو مشروع مزدوج الاهداف ٠ فهو ضد الثورة والحركة الوطنية اللبنانية في آن معا ٠

(١٨) ـ الطريق عدد خاص عن الحرب اللبنانية صفحات ٣٢١ ـ ٣٥١

(١٩) وقبل ان تبدأ هدنة الجولة الثالثة حتى تمكنت الحركة الوطنية والتقدمية من دفع الطابع اللبناني الوطني والاجتماعي الى المقدمة ٠ وقد كانت التحركات الجماهيرية توضح معالم الصراع الجوهرية ٠

ـ الاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين يؤكد في بيان رسمي « ان الاقتتال الطائفي لمصلحة أعداء الطبقة العاملة ومستثمريها ٠

ـ بعد الازمة الوزارية ، واستقالة حكومة رشيد الصلح ، اقامت الحركة الوطنية مهرجانات شعبية تحت شعارات وطنية منها « لا حكومة الا حكومة المطالب الوطنية » ٠

(٢٠) في شهادة ادلى بها رئيس البعثة الطبية المصرية جاء بها « ان اعمال التعذيب اليمينية مدروسة » وكانت تحضى بموافقة القيادة الكتائبية والقيادات الانعزالية الاخرى ٠

(٢١) الطريق اللبنانية ٠ العدد الخاص في الحرب الاهلية أعداد ١ ـ ٨ كانون الثاني ـ اب ١٩٧٦ ٠

(٢٢) المصدر السابق ٠ ص ٣٢٨ ٠

(٢٣) بعد تفكك اجهزة الدولة ، خاصة الجيش والمدرك والادارة ، وانتصارات الحركة الوطنية الحاسمة في الجبل بدأت مسألة السلطة السياسية ومستقبل لبنان تطرح نفسها بحدة ، وفي الوقت الذي كان فيه الخط السياسي للحركة الوطنية والتقدمية بشكل عام هو في اطار التحرر الوطني ووحدة لبنان ، كانت بعض

التصريحات تشير الى ابعد من ذلك ، الى لبنان الوطني الديمقراطي · الذي يتحقق بالوسائل الثورية ·

وبالطبع ليس مجال هذه المقالة مناقشة تلك الشعارات وخط اذار بشكل عام · الا ان ما يهمنا هنا هو : ان الواقع الجديد كان يشكل سببا اضافيا لارتعاب القيادة السورية من قيام نظام وطني ديمقراطي في لبنان · وهو ما صعد بالنتيجة من موقفها العدائي ضد الحركة الوطنية والثورة · ذلك لان النظام الديمقراطي يشكل خطرا ماحقا على النظام السوري وانظمة عربية اخرى · لانه يطرح من بين ما يطرحه :

١ ـ قضية الحريات الديمقراطية ·

٢ ـ تحويل لبنان الى قاعدة فعلية في مواجهة اسرائيل وبوجود الجماهير المسلحة ·

٣ ـ مسالة الشعب المسلح ·

(٢٤) ان الشعارات التي سبقت الحصار ثم الحصار الواسع والاطباق المحكم على المخيم ، والهجمات الانهاكية المتواصلة ، وما رافقها من ظواهر بربرية ، بالاضافة الى الحملة الاعلامية الهستيرية التي أججت السعار الشوفيني الى اقصاه ، كل هذه الظواهر والممارسات ، كان لها هدفا سياسيا محددا وكبيرا هو :

ـ اجبار المخيم على الاستسلام رسميا والتفاوض مع قيادة الثورة على ترتيب الاستسلام والاقتلاع ·

هذا الهدف السياسي اريد له ان يكون « نموذجا » للتعامل الجديد مع الثورة في ظل قوات الاحتلال ·

لقد اريد للاستسلام الطوعي الرسمي ان يكون « نموذجا » زاحفا يجري تطبيقه على كل المخيمات ، وجميع المواقع واحدا بعد الاخر ·

لكن الصمود والتصدي والاستبسال للمقاتلين والجماهير ضغط النصر الانعزالي الى نصر عسكري محدود ، بينما اخفقت القيادة الانعزالية تماما في تحقيق هدفها السياسي ·

وبالمقابل كان انتصارا سياسيا كبيرا وبالغ الاهمية ، لقد كان سقوطه منتصرا وكواكب الشهداء مهرا لاحباط مخططات « النموذج » ·

(٢٥) في المناورات العديدة التي حاولتها القيادة السورية بدءا من اتفاق دمشق الاول مرورا باللجان الامنية والاقتراحات الاجرائية وحتى اتفاق دمشق الاخير ، كان الهدف ماثلا : مصير علاقة الثورة بالحركة الوطنية ·

ولقد كانت عروض «التسوية» والاتفاقات مصحوبة دائما بلغة التهديد والابتزاز ووضع البدائل امام الثورة ·· للوصول الى استفراد الحركة الوطنية اولا ·

ولقد كانت عروض «التسوية» والاتفاقات تلجأ الى مناورات المعروض وعقد الاتفاقيات ، بهدف الحصول على تغطية لمواجهة الازمة الداخلية والضغوطات العربية النسبية بسبب التناقضات (والتي تنصب اصلا على حجم التدخل واشكاله فحسب !) ولكنها ما ان تعقد الاتفاقيات، كاتفاق دمشق في ٢٩ تموز ١٩٧٦ ، حتى تبدأ العمل باعطاء بنودها ونصوصها تفسيرات خاصة بها تدوركلها حول مسالة ابعاد الثورة عن الحركة الوطنية وفرض الشروط الاستسلامية عليها · وحينما

تخفق المناورات امام موقف الثورة الحازم ، تعاود المغامرة العسكرية زحفها ٠

(٢٦) وذلك بسبب من ان القوى الانعزالية المسلحة ولدت وتطورت بفعل طبيعة النظام وتركيبه ٠ وبفعل عوامل خارجية اخرى منها التحالف والتنسيق مع اميركا واسرائيل ٠

(٢٧) هذه الدورة كانت سمة ملازمة للسياسة الهاشمية تجاه الثورة بين ٦٨ و ٧١ تموز وبالاضافة الىذلكفان مضاعفات المغامرة العسكرية ، اللبنانية والعربية والدولية التي انصبت على ادانة العملية، يمكن للثورة والحركة الوطنية ان تحولها الى نصر سياسي لها وهزيمة سياسية ماحقة للنظام السوري ٠

وفي هذا المعنى ايضا كانت تصريحات كريم بقرادوني منسق العلاقات بينالكتائب وحكام دمشق بالغ الدلالة ٠ قال بقرادوني « ان ما يجب التنويه به ، هو ان ما حاول الرئيس سركيس التوصل اليه بالحوار (القيادة السورية اساسا) وبموافقة جميع الاطراف (الانعزاليون طبعا) توصل اليه السوريون بالقوة ٠٠ وهذه امثولةيجب أن يتعلمهاالفلسطينيون للمستقبل ٠ اذ ما زال بامكانهم تعلم الامثولات ٠٠٠ » ٠ هكذا بالضبط يطرح بقرادوني على لسان القيادتين السورية والانعزالية ان « النموذج » لا زال صالحا لتحقيق الانسحابات وفرض شروط الاستسلام تحت الابتزاز والتهديدبالقوة، دونما الحاجة للقتالالذييهدد بمضاعفات غير معروفة النتائج ٠

(٢٨) ان اصرار القيادة السورية وقبلها الانعزالية على ان تسلم المقاومة الجبل دون قتال وعلى اساس الشروط السورية كان يعني بالضبط تقديم « النموذج »الذي تريده القيادة السورية لمستقبل التعامل بين الثورة والقيادة السورية ٠ اي ان توافق الثورة على الانسحاب وتقدم « النموذج » الذي يراد له ان يزحف من موقع الى اخر ومن منطقة الى ثانية تحت ضغط وابتزاز متزايدين في كل مرة ٠ بمعنى ان تفقد الثورة اهم اسلحتها مضاء وهو سلاح الصمود ورفض الاستسلام ٠

وهكذا كما اخفق الانعزاليون في مراهنتهم على « نموذج » تل الزعتر على اساس هزيمة سياسية ، اخفقت القيادة السورية واحبط « النموذج » ٠ وتكرس النموذج الصحيح الوحيد والثوري وهو المواجهة والقتال ورفض شروط الاستسلام الكامل ٠

(٢٩) انظر : اريك دولو : « سوريا في المستنقع اللبناني » ٠ اللوموند ١ حزيران ١٩٧٦ ٠ والتي جاء فيها ان الرسالة التي نقلها السفير الاميركي الى الحكومة السورية في ١٦ تشرين الاول يبدو انها منحتها اشارة الانطلاق لحل الازمة اللبنانية في الوقت الذي باتفيه استخدام القوة امرا لازما لنجاح الوساطة ٠

ـ كما ان كيسنجر اعلن مديحه للدور السوري البناء قبيل الاجتياح وبعده ،وان وضع له حدودا غير واضحة ٠

(٣٠) تصريحات براون ٢٣ اب ١٩٧٦٠ نشرت في « الموندي مورنغ » والصحف اللبنانية المعربة ٠

(٣١) اريك دولو ٠ في اللوموند ٠ المصدر السابق ٠

(٣٢) الطريق عدد خاص عن الحرب

الاهليـــة ٠

(٣٣) والجهود الهاشمية لتشجيـــع سوريا على المغامرة العسكريـــة التـي تتواصل ولم تنقطع لهادوافع واهداف عدة كما يعتقد الملك حسين ويعمل من اجله !

ـ ان اي اضعاف للثورة الفلسطينية بشكل خاص ، يشكل انتصارا لسياستـه ومشاريعه ضـــد الثـــورة والشعـــب الفلسطيني ٠

ـ ان خروج الثورة والحركة الوطنية منتصرتان ، يشكل خطرا داهما ليســـس بالنسبة لمشاريعه في الضفة الغربيـــة فحسب ، بل على نظامه فـي الضفـــة الشرقية ذاتها ٠

وهذا يعني انه معني بالوضع في لبنان اكثر من اي نظام عربي على الاطلاق ٠

(٣٤) الحرية البيروتية ـ عدد ٧٨٢ ـ تاريخ ٢ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ ٠

الطائفية والطوائف في لبنان

البرت حوراني

هذه الدراسة هي فصل من كتاب البرت حوراني « الاقليات في العالم العربي » الذي انجز عام ١٩٤٥ ونشر عام ١٩٤٧ عن دار اكسفورد في انكلترا *

ان الدراسات التي تعالج مسالة اقليات وتركيبها الاقتصادي والديمغرافي قليلة جدا، لذلك يعتبر كتاب الاستاذ حوراني مرجعا اساسيا في عملية سد هذه الثغرة في الدراسات العربية المعاصرة ٠

وعلى الرغم من كون المعلومات التي يتضمنها هذا الفصل حول تكوين ومشاكل الاقليات الطائفية في لبنان قديمة ، الا انها تكشف عبر تحليل دقيق جزءا من تاريخ المسالة الطائفية في لبنان ٠ وتسمح بالتالي للدراسات الجديدة بالانطلاق من خلفية تاريخية ٠

ان التطور الكبير ، على المستويين الاقتصادي والديمغرافي الذي حصل على تركيب الطوائف في لبنان خلال ثلاثين سنة ، يغير كثيرا من الصورة التي يرسمها هذا الفصل ٠ غير انه يعطيها في الوقت نفسه قيمة خاصة باعتبارها وصفا تحليليا لمسالة اساسية في تركيب المشرق العربي ، تلعب دورا هاما في التطور السياسي في لبنان ٠

« شؤون فلسطينية »

توزع الاقليات

يبين الجدول التالي توزع سكان لبنان تبعا للطوائف الدينية والاقضية كما كان في الحادي والثلاثين من كانون الاول (ديسمبر) ، عام ١٩٤٤ :

---

* سوف يصدر هذا الكتاب قريبا بترجمة عربية لمحمود حداد ٠

الجـــدول

الطائفـــة	محافظة بيروت	محافظـة جبل لبنان	محافظـة لبنان الشمالي	محافظة لبنان الجنوبي	محافظـة البقاع	المجمـوع
السنـة	٥٩ر٥٩٣	٢٠ر٣٦٩	١٠٢ر٤٦٢	٢٣ر٤١٨	٢٩ر٧٥٣	٢٣٥ر٥٩٥
الشيعـــة	١٠ر٩٧٩	١٨ر٩٤٨	١ر٠١٧	١٢٦ر٧٠١	٥١ر٦٩٣	٢٠٩ر٣٣٨
الـدروز	١ر٩٢٦	٥٩ر٣٠٣	٣٤	٦ر١٦٧	٦ر٨٨١	٧٤ر٣١١
الموارنـة	١٥ر٤٠٤	١٧٦ر٢٤٨	٨٦ر٤٧٦	٢٧ر٩٩٢	٢١ر٧٢٦	٣٢٧ر٨٤٦
الروم الكاثوليك	٥ر٨٤٠	١٥ر٤٧٠	١ر٨٤١	١٧ر١١٨	٢٤ر٠١١	٦٤ر٢٨٠
الروم الارثوذكس	٢٠ر٠٧٥	٢٢ر٣٧٣	٤٧ر٥٢٢	٦ر٩١١	١٣ر٠٠٢	١٠٩ر٨٨٣
البروتستانت	٣ر٧٦٠	٣ر٠٢٥	٧٥٠	١ر٧٩٥	١ر١١٠	١٠ر٤٤٠
اللاتين	٢ر١٩١	٥٤٠	٦٣	١٧٩	١٤٤	٣ر١١٧
الارمن الارثوذكس	٣٦ر٢٦٤	١٥ر٣٧٩	١ر٠٢٥	١ر٦٩٥	٥ر٣٨٦	٥٩ر٧٤٩
الارمن الكاثوليك	٥ر٣٦٠	٣ر٠٩١	١٩٤	٢٧٣	١ر١٢٨	١٠ر٠٤٨
السريان الكاثوليك	٤ر٠٨٩	٢٧٥	١٦٩	٩	٤٤٢	٤ر٩٨٤
السريان الارثوذكس	٢ر٠٧٠	٢٠٩	١٠٠	٢٢	١ر٣٥٢	٣ر٧٥٣
اليهـــود	٥ر٠٢٢	٦٥	٣١	٥٠٦	٤٢	٥ر٦٦٦
الكلدان	٩٧٤	١٢٠	١	١٠	٢٢٥	١ر٣٣٠
طوائف مختلفة	٤٥٢	٣٥٩	٥ر٢٧٩	٥٢	١١٩	٦ر٢٦١
المجمـوع	١٧٤ر٠٠١	٣٣٥ر٧٧٤	٢٤٦ر٩٦٤	٢١٢ر٨٤٨	١٥٧ر٠١٤	١ر١٢٦ر٦٠١

من هنا فان ٥٣ بالمئة من سكان لبنان هم مسيحيون ، و ٤٦ بالمئة مسلمون · واكبر طائفة منفردة هي الطائفة المارونية التي تؤلف ٢٩ بالمئة من السكان ·

الضمانات المكتوبة :

يحتوي الدستور اللبناني ، المعلن عام ١٩٢٦ ، على ضمانات كاملة لحقوق الافراد والطوائف · فالمادة التاسعة تعلن :

« حرية الاعتقاد مطلقة ، والدولة ، بتأديتها فروض الاجلال لله تعالى ، تحترم جميع الاديان والمذاهب وتكفل حرية اقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها ، على ان لا يكون في ذلك اخلال بالنظام العام · وهي تضمن ايضا للاهلين ، على اختلاف مللهم ، احترام الاحوال الشخصية والمصالح الدينية · »

كذلك ، نصت المادة العاشرة على ان التعليم حر ، شرط الا يتعارض مع النظام او الاخلاق العامة او يمس كرامة الطوائف الدينية · ولن يسمح بالمساس بحق الطوائف في ان تكون لها مدارسها ، في ظل الانظمة العامة الخاصة بالتعليم العام التي تصدرها الدولة ·

الاحوال الشخصية والتنظيم الطائفي :

قبل حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كانت بعض شؤون الاحوال الشخصية تقع تحت السلطة القضائية للمحاكم الدينية التابعة للملل المختلفة ، في حين ان جميع الشؤون الاخرى كانت ضمن اختصاص المحاكم الشرعية ، الاعلى مستوى من المحاكم الطائفية · وعام ١٩١٧، في ذروة الحرب ، حرم « قانون الاسرة العثماني » المحاكم المسيحية واليهودية من سلطاتها القضائية ، التي منحت للمحاكم الشرعية · غير انه لم يعمل بهذا القانون ابدا والغي عام ١٩٢١ · وبعد ذلك بوقت قصير وضعت المحاكم الشرعية الاسلامية على مستوى واحد مع محاكم الطوائف الاخرى عن طريق نقل جميع شؤون الاحوال الشخصية باستثناء الزواج والطلاق والانفصال والغاء الزواج ونفقة الزوجة المطلقة ، الى المحاكم المدنية · غير أن هذاالاجراء وجد معارضة من جميع الجهات ، وعلق المرسوم الذي يحتوي عليه بانتظار القيام بدراسة أوسع لموضوع الاحوال الشخصية برمته ·

وبعد عدة محاولات فاشلة لاصلاح نظام السلطات القضائية باكمله ، اصدر المندوب السامي ، في نيسان (ابريل) عام ١٩٣٦ ، مرسوما شاملا يحدد وضع الطوائف الدينية · وقد منح هذا المرسوم اعترافا قانونيا واضحا بالطوائف التاريخية ، واعتبرت تشريعات هذه الطوائف نافذة المفعول ،ووضع تطبيقها تحت حماية القانون ومراقبة السلطات العامة· كما كانت ستتمتع بصفة مشتركة ، وتتمثل في علاقاتها مع السلطات العامة برؤسائها الروحيين · وكان اعضاء الطوائف مجبرين على الامتثال لقوانينها في امور الاحوال الشخصية ، وللقانون المدني حيث لا يكون هناك نص في قوانين الطوائف · بيد انه كان لكل من يبلغ سن الرشد حرية التخلي عن طائفته والانضمام الى طائفة اخرى · ونص المرسوم كذلك على الاعتراف بالحق المشترك للطوائف ،

اضافة الى امتلاكها للسلطة القضائية على الاحوال الشخصية · وكانت هذه الطوائف تتمتع بحقوق معينة ، كحق التملك ، الا ان افرادها كانوا يخضعون للقانون المدني في شؤون الاحوال الشخصية ، وكان هذا الامر الاخير سيطبق ايضا على الافراد الذين لا ينتمون الى اية طائفة دينية ·

وقد عارضت السلطات الدينية هذا المرسوم ايضا · وفي كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣٨ صدر مرسوم اخر ، يعدله في نقاط معينة ، مثال ذلك ان المرسوم الجديد اوضح ان على الاولاد القاصرين اتباع مذهب والدهم في حالات الطلاق ، حتى بعد موت الاب ، وحتى لو كانت الام وصية على الاولاد بعد الانفصال او الطلاق ·

وكما كان الامر بالنسبة لمرسوم عام ١٩٣٦ ، جوبه مرسوم عام ١٩٣٨ ،بمعارضة من جميع الجهات ، ولم ينفذ تنفيذا كاملا ، ولا يزال وضع المحاكم الدينية غير محدد وغير مرض حتى الان ·

البنية الاجتماعية للطوائف

ثمة فرق كبير بين البنى الاجتماعية للطوائف المختلفة · فالموارنة مجتمع زراعي بصورة رئيسية : لقد تجزأت الكثير من الملكيات الكبيرة خلال القرن التاسع عشر وانبثقت طبقة من الملاك الزراعيين · اما مستوى الحياة بينهم فهو ، بوجه الاجمال ، على منه بين معظم الطوائف الاخرى ، نظرا الى خصوبة اراضيهم والهجرة الى العالم الجديد · وبالاضافة الى المزارعين ، هناك بورجوازية كبيرة ومزدهرة في بيروت · الا ان القوة التي تبقي الطائفة متماسكة هي الكنيسة ، التي يلاحظ ان كهنتها ، ككهنة جميع الكنائس المعترفة بسلطات بابا روما ، هم اعلى ثقافة من كهنة الكنائس الشرقية المستقلة : للبطريرك سلطة اجتماعية هائلة الا انها تواجه معارضة من عائلات كبار ملاك الاراضي ذات التقاليد الاقطاعية ·

اما المسلمون السنة فيشكلون ، بصورة كاملة تقريبا ، مجتمعا مدنيا مركزا في طرابلس وبيروت وصيدا ، وهم يؤلفون جزءا كبيرا من بروليتاريا تلك المدن ، الا ان هناك أيضا بورجوازية تجارية ومهنية سنية وبعض العائلات المالكة لاراض كبيرة · ولا يتمتع السنة بأي نوع من التضامن الذي يمكن مقارنته بالتضامن الديني والزمني للموارنة · ربما لانه لم يكن لديهم تنظيم ملي في أيام العثمانيين ·

اما الشيعة فهم ، بصورة رئيسية ، فلاحون في الاقضية الجنوبية وفي البقاع ، علما بانهم يوجدون كذلك في صيدا وصور وفي الشرائح الدنيا من الطبقة العاملة في بيروت · وهم اكثر الطوائف تخلفا من الناحية الاقتصادية ، وفي الغالب عبيد ارض في ملكيات اسياد شبه اقطاعيين · ومعظم اسيادهم في البقاع سنيون ومسيحيون ، اما في الجنوب فمعظمهم من الشيعة الذين كانوا يتمتعون في الماضي باستقلال ذاتي عمليا · وهذا يعطي الطائفة درجة كبيرة من التماسك بنوع خاص ·

ويشكل الدروز ايضا مجتمعا زراعيا بصورة رئيسية ، فهم مزارعون حذرون ، ومزدهرون نسبيا ، وامتن الطوائف الدينية تنظيما من الناحية الاجتماعية · فلديهم تنظيم مزدوج : التنظيم الديني بتسلسله الهرمي ، والتنظيم الاقطاعي بتسلسل مراتبه · على ان النزاعات الفئوية اضعفت هذا التنظيم منذ عهد بعيد ، وما المنافسة السياسية بين عائلتي جنبلاط وارسلان الكبيرتين الا المرحلة الاخيرة من هذه النزاعات · ويتعرض نظام الاراضي الذي يرتكز عليه هذا التنظيم للتفكك تدريجيا ·

اما طائفتا الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك فهما مجتمعان زراعيان جزئيا ، من حيث انهما تضمان نسبة كبيرة من صغار ملاك الاراضي ، ومن حيث انهما مزدهرتان عن طريق الهجرة ، كما انهما بوجه عام اقل من الطوائف الاخرى خضوعا لسيطرة كبار ملاك الاراضي · كما تؤلفان جزءا كبيرا من الطبقة التجارية في بيروت والمدن الاخرى ، وتضمان في الواقع بعض الاسر التجارية والمالكة للاراضي ·

الارمن ·

هنالك طائفة اخرى تختلف عن جميع الطوائف السالف ذكرها من حيث انها لا تنطق العربية لانها قدمت الى لبنان اخيرا : انها الطائفة الارمنية ·

هناك نحو ٧٠ الف ارمني في لبنان استقر معظمهم حديثا في البلاد · وقد استوطنت قلة منهم في بيروت قبل حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، لكن معظمهم دخل لبنان في موجات متعاقبة خلال الحرب وبعدها ، هربا من الاضطهاد ، او من توقع الاضطهاد ، كما حصل عام ١٩٣٩ بعد استيلاء تركيا على الاسكندرون · وقد وصل معظمهم في حالة معدمة واستقروا في اكواخ في ضواحي بيروت · الا انه طرأ تحسن كبير على وضعهم الاقتصادي والحياتي في العقدين الماضيين بفضل جهودهم الخاصة وجهود « مكتب نانسن » · * وهم بصورة رئيسية حرفيون وتجار صغار وموظفون وجميعهم تقريبا يسكنون المدن ·

ومن الناحية الاجتماعية يبقى الارمن مجتمعا شبه منعزل يتجمع حول كنائسه · وهم يحافظون الى حد كبير على عاداتهم الاجتماعية الخاصة وعلى حسهم العائلي القوي وتضامنهم القومي · كما انهم يتمسكون بلغتهم ويديرون مدارسهم الخاصة بالاضافة الى منظماتهم الخيرية وصحفهم وحياتهم الثقافية الخاصة ·

ولم يكن لدى الارمن على الدوام علاقات حسنة مع العرب ،حتى مع العرب المسيحيين· ويتذمر القوميون العرب من ان وجود الارمن تسبب في مشكلة اقليات اضافية ، وهي مشكلة صعبة الحل بنوع خاص · وينظر المسلمون اللبنانيون اليهم على انهم احد عوامل السيطرة المسيحية ، فلولا هجرتهم الى لبنان لصار المسلمون اكثرية فيه · وهم مكروهون ايضا لكونهم دخلوا البلاد معدمين بينما هم الان في وضع مزدهر · كما انهم عرضة للانتقاد بنوع خاص لكونهم يتركزون في عدد صغير نسبيا من المدن · لكن مستواهم الاخلاقي والثقافي العالي واجتهادهم ومثابرتهم تجعل منهم عنصرا خيرا في المجتمع ، الامر الذي

---

* مكتب انشىء لاغاثة الارمن في تلك الفترة ·

سيزيل التحيز الموجه ضدهم بمرور الوقت ٠

الفوارق التربوية

ثمة فوارق تربوية لا يستهان بها بين الطوائف ، وهي تنبع بوجه عام من كون التعليم ، بصورة رئيسية ، في ايدي المؤسسات الخاصة التابعة للطوائف في معظمها او التابعة للجمعيات التبشيرية الاجنبية ٠ وينطبق هذا الوضع بنوع خاص على التعليم الثانوي والعالي ٠ ولا توجد لدى الحكومة اية مؤسسات للتعليم العالي ، باستثناء دارين للمعلمين ومدرسة مهنية واحدة ٠ وعدا عن هذه المعاهد ، فان جميع المدارس الثانوية والجامعتين (الجامعة الاميركية وجامعة القديس يوسف اليسوعية) هي في ايدي هيئات خاصة ، دينية بصورة غالبة ٠ ولم يكن هناك عام ١٩٣٨ غير ١٧٧ مدرسة حكومية من اصل ١٨٦٧ مدرسة ابتدائية ، علما بان ١١٨٠ مدرسة منها كانت تقع تحت سيطرة هيئات محلية و ٥١٠ منها تحت سيطرة مؤسسات اجنبية ٠ كما كانت هنالك ٣ مدارس ثانوية حكومية فقط ، من اصل ١٢٢ مدرسة ، ٤٤ منها محلية و ٧٥ اجنبية ٠

ويسيطر الموارنة والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك على اكبر عدد من المدارس الخاصة المحلية ، فيحين ان الارساليات الكاثوليكية الفرنسية تملك اكثرية المدارس الاجنبية ٠ وهكذا فان التعليم اللبناني هو بصورة غالبة مسيحي واكليركي في روحه ومن حيث السيطرة ، وكاثوليكي بنوع اخص ٠

أما نسبة الاطفال المسيحيين الذين يدرسون في مدارس دينية مقابل اولئك الملتحقين بمدارس حكومية فهي اكبر بكثير من النسبة المقابلة لها بين المسلمين ٠ كما ان عدد الطلبة المسيحيين اكبر بكثير من مجموع عدد الطلبة المسلمين ٠ وبخاصة في التعليم الثانوي والعالي ٠

يمكن التوصل الى عدة استنتاجات من هذه الحقائق ، اولا ، ان التعليم لا يساهم ابدا في تخفيف الفوارق الطائفية بل على العكس من ذلك ، اذ انه يقع في الغالب تحت السيطرة الطائفية ٠ ثانيا ،ان الطوائف المسيحية هي بوجه عام اعلى ثقافة من الطوائف الاسلامية، الامر الذي يؤدي الى فوارق واضحة في البنى الاجتماعية والاقتصادية ٠ ثالثا ، ان المسيحيين بوجه عام يتلقون نوعا من التربية يختلف عن النوع الذي يتلقاه المسلمون : ينطبق هذا بنوع خاص على الموارنة وغيرهم من مسيحيي الطوائف الشرقية الخاضعة لسلطة البابا الذين قطعوا شوطا بعيدا نحو تبني المدنية واللغة الفرنسية ٠

المسيحيون والمسلمون ٠

فيماعدا الفوارق بين الطوائف المختلفة ، هناك انقسام عام بين المسلمين والمسيحيين لا يشبه تماما الانقسام القائم في البلدان المجاورة ٠ فلبنان هو البلد الوحيد الناطق بالعربية الذي افلح المسيحيون فيه بالمحافظة على حياة مسيحية مستقلة ، فردية واجتماعية ، وبمقاومة الاتجاه نحو الاندماج الاخلاقي والاجتماعي ٠ وينطبق هذا بنوع خاص على الموارنة ، الذين حافظوا بلا انقطاع على ارتباط بالعالم المسيحي الغربي ، بفضل مركزهم

على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وصلتهم التقليدية بالحكومة الفرنسية ونشاط البعثات الكاثوليكية بينهم ٠

كذلك فان وضع المسلمين غير عادي ايضا ٠ فالدروز والشيعة معا يفوقون السنة عددا ، ولذا فان الاخيرين ابعد ما يكونون عن تأليف اكثرية او عن التمكن من بناء كتلة اسلامية متينة لكونهم مع هذا يحافظون ، بدرجة معينة ، على عقلية الطائفة الحاكمة ٠ وكما ذكرنا سالفا فان المدن الساحلية التي يقطنها معظم ابناء الطائفة السنية لم تكن تشكل جزءا من لبنان قبل الاحتلال الفرنسي ، بل كانت جزءا من ولاية بيروت العثمانية ٠ وبضمهم الى لبنان وجد ابناء هذه الطائفة انفسهم وقد تحولوا فجأة من جماعة حاكمة الى طائفة بين طوائف عديدة في دولة ذات مناخ مسيحي الى حد كبير ٠ وقد كان هذا تغييرا صعب عليهم القبول به ٠

لبنان الكبير والصغير

ثمة فارق بارز اخر وهو بين سنجق لبنان القديم والاقضية التي كانت سابقا جزءا من ولايتي بيروت ودمشق والتي اضافها اليه الفرنسيون لتكوين الجمهورية اللبنانية ،فسكان السنجق القديم هم بصورة رئيسية موارنة ودروز وروم كاثوليك ، في حين يتألف سكان الاقضية من روم ارثوذكس وروم كاثوليك في جميع الاجزاء ، وارمن في بيروت وسنة في المدن الساحلية وشيعة في الجنوب والبقاع ٠ ولدى الاولين تقليد سياسي من الحكم الذاتي ، وتقليد اجتماعي من الاقطاعية وتقليد ديني من التسامح يربطهم معا، وقد كان من القوة الى درجة كافية جعلت السنجق المتمتع بالحكم الذاتي يعمل بنجاح ٠ اما الاخيرون فلا يؤلفون جزءا من التقليد اللبناني ولا يملكون اي تقليد مشترك خاص بهم ٠ وبالاضافة الى ذلك فان طائفة واحدة على الاقل ، وهي الطائفة السنية ، وعناصر مهمة في معظم الطوائف الاخرى ، لم تكن ترغب بالانضمام الى لبنان الكبير قط ٠ ولا يزال التوتر مستمرا بين الطوائف التي تؤلف جزءا من لبنان الحقيقي والطوائف الاخرى ٠

السياسة الفرنسية

لا يمكن لدولة على مثل هذا الانقسام العميق في التركيب وفي الافكار ، كالجمهورية اللبنانية المفتقرة ايضا الى اية روح وطنية موحدة ، ان تستمر في الوجود ، في شكلها الراهن على الاقل ، الا اذا كانت هناك قوة خارجية ما تسيطر عليها سيطرة وثيقة وتتدخل باستمرار في شؤونها ٠ وقد كانت الدولة المنتدبةهي التي توفر هذه السيطرة الخارجية حتى عام ١٩٤٣ ٠ وكانت سياستها موجهة نحو جعل لبنان حصنا من حصون النفوذ الفرنسي٠ وأدى هذا الهدف الى خلق لبنان مستقل وتوسيع حدوده ٠ كما انه اوحى بمحاولات المحافظة على اكثرية مسيحية رغم توسيع الحدود والتزايد الاكثر سرعة بين السكان المسلمين: كان هذا احد اسباب توطين اللاجئين الارمن حول بيروت ٠ كما بذلت كل الجهود الممكنة لربط المسيحيين بفرنسا ربطا اوثق : عن طريق النشر السريع والمنظم للثقافة الفرنسية ، ومحاباة المسيحيين في الشؤون السياسية والادارية ، واثارة مخاوفهم من الاضطهاد الاسلامي ٠ وجرت محاولة مماثلة لاستمالة المسلمين من غير السنة ولكن الى حد اقل ، بل حتى جرت محاولة « لفرنسة » السنة بواسطة التعليم ٠

من بين المسيحيين ، جرى تفضيل المسيحيين الخاضعين لسلطة البابا ، وبنوع اخص الموارنة ، الذين اعتبروا انفسهم واعتبرهم الاخرون عامة العنصر المسيطر في حياة الجمهورية · لكن جهودا اخرى بذلت ، في الوقت نفسه ، لابقاء الطوائف الاخرى مفعمة بالامل وقانعة لمنعها من محاولة تفكيك الجمهورية · وقد تم تحقيق ذلك من خلال التوزيع الدقيق للمناصب الكبيرة والصغيرة بين اعضاء الطوائف المختلفة ، ومن خلال تشجيع الشعور اللبناني الذاتي ·

المطائفية في السياسة ·

لم يكن من الممكن خلق اي شعور حقيقي بالتضامن في بلد منقسم على ذاته انقساما جوهريا ومن وجوه كثيرة مختلفة كما هي الحال في لبنان · فمنذ ولادتها وحتى عام ١٩٤٣ على الاقل لم يكن هنالك ما يبقي على تماسك الجمهورية اللبنانية سوى سيطرة فرنسا وتدخلها المتواصل · وضمن الاطار الذي وفرته تلك السيطرة ، حافظ الشعور الطائفي على قوته بل وزادها ·

نص دستور الجمهورية اللبنانية ،المعلن عام ١٩٢٦ ، على تنظيم سياسي يجب ان يأخذ في الاعتبار الانقسامات الطائفية في البلاد وقام بوضع مبدأين أثنين · كان الاول ان جميع المواطنين اللبنانيين متساوون امام القانون ،ولهم نفس الحقوق والواجبات ، ويسمح لهم على السواء بتولي جميع المناصب العامة ، دون أي تمييز (المادتان ٧ و١٢) · وكان الثاني ان الطوائف يجب ان تمثل تمثيلا منصفا في المناصب العامة وفي الحكومة ،بصورة مؤقتة على الاقل ، وشرط الا يضر ذلك في مصلحة الدولة (المادة ٩٥) ·

وتبين جميع اجزاء التنظيم السياسي للدولة تاثير هذين المبدأين · وهكذا فقد كان رئيس الجمهورية دائما مسيحيا · ولموارنة ذلك كان رئيس الوزراء عادة مسلما سنيا بينما كانت الوزارات الاخرى توزع بين الطوائف ·وكان مجلس النواب ، خلال الفترات التي كان يقوم فيها بوظيفته ، يتألف بشكل يمثل الطوائف بما يتناسب مع القوة العددية لكل منها على وجه التقريب · وحيث ان النواب كانوا ينتخبون من قبل ابناء طوائفهم ، فقد كان يتم تنظيم هؤلاء على اساس طائفي وجغرافي ايضا ·

اما فيما يتعلق بمسألتي التعيينات والترقيات في الوظائف العامة ، فان التمثيل العادل للطوائف هو اعتبار اهم من الجدارة والكفاءة ، لا في اذهان الذين يقومون بالتعيينات فحسب بل ايضا في اذهان الرأي العام ، وبنوع اخص في اذهان زعماء الطوائف المختلفة الذين يراقبون عن كثب للتثبت من عدم الاخلال بالتوازن ·

وتحاول الاحزاب السياسية في لبنان ، شأنها شأن مؤسساته السياسية الاخرى ، ان تكون غير طائفية ، شكليا على الاقل ، وهي تقوم عادة باختيار مسؤوليها ولجانها ومرشحيها الانتخابيين من بين عدد من الطوائف · وتحتوي برامجها عادة على اشارة معينة الى الحاجة الى مثال للوحدة الوطنية ليحل محل مشاعر الغيرة الطائفية القائمة · وتكون

هذه الاشارة صادقة احيانا بينما لا تكون كذلك في احيان اخرى · والحقيقة ان الاحزاب التي تؤكد على استقلال لبنان تكون في اغلب الاحيان مارونية الروح والعضوية ·
اما احزاب الوحدة العربية فهي بالطريقة ذاتها (ولكن الى حد اقل) مسلمة ·

المفاهيم السياسية

من المحتم ان تنشأ في مثل هذه الظروف مفاهيم مختلفة جدا لماهية لبنان ولما يجب ان يكون : الى درجة محدودة يتفق تباين الافكار مع تباين المذاهب الدينية · ومن الممكن على وجه التقريب التمييز بين خمس نظرات رئيسية الى لبنان :

(١) هناك بعض من ينظر الى لبنان كجزء لا يتجزأ من آسيا العربية ، لا يميزه أي اختلاف اجتماعي او سياسي جوهري عن الاجزاء الاخرى ، وليست له اية رسالة او غاية خاصة · وهؤلاء يريدون ان يندمج لبنان اندماجا كليا في دولة سورية او عربية ، دون ان يتمتع باستقلال ذاتي على ان يكون له ترتيبات خاصة فيما يتعلق بموضوعي الاحوال الشخصية والتعليم الديني للاقليات ، كتلك الموجودة في مناطق عربية اخرى ·

(٢) يعترف اخرون بان تاريخ لبنان الماضي منحه شخصية خاصة به وخلق فجوة بينه وبين المناطق العربية الاخرى · الا ان هؤلاء يفكرون ان تكون شخصية لبنان المميزة تفرض عليه واجبات او رسالة خاصة · وهم ينظرون الى صفاته الخاصة على انها ليست اكثر من عادات قديمة بالية ستختفي آجلا ام عاجلا · واصحاب هذه النظرة مستعدون للتسليم بدرجة معينة من الحكم الذاتي اللبناني او حتى بالاستقلال الكامل ، ولكن كتدبير مؤقت ليس الا بغية تبديد مخاوف الاقليات واقناعها تدريجيا بقبول الاتحاد الكامل مع دولة سورية او عربيـــة ·

(٣) تنظر فئة ثالثة الى لبنان بالدرجة الاولى كملاذ تستطيع فيه الاقليات المضطهدة العيش بسلام · ولذلك تريده ان يكون منفصلا انفصالا تاما عن منطقة الداخل العربي ،ولا يهمها شكل الحكم القائم طالما هو قوي بدرجة كافية للقيام بحمايتها ·

(٤) ثمة فكرة اخرى وهي ان لبنان بلد مسيحي متوسطي (نسبة الى البحر الابيض المتوسط):وليس الطرف الغربي للعالم الاسلامي العربي بل الطرف الشرقي للعالم المسيحي الغربي · فهو ليس جزءا من العالم العربي بأي معنى جوهري ، بل ان شعبه يؤلف امـــة مستقلة · ولذا يجب ان يكون لبنان دولة مستقلة تدير وجهها نحو اوروبا ·

(٥) هناك اخرون يحاولون ان يستخلصوا ويجمعوا عنصر الحقيقة في جميع هذه الاراء · فهم يعترفون بان لبنان بلد عربي الشخصيةوالمصير لكنهم يعتقدون انتقاليده الخاصة تمنحه مصيرا خاصا في العالم العربي : كمركز للحياة المسيحية العربية وكبوابة للغرب ، وكمكان يستطيع اتباع الديانات المختلفة ان يجتمعوا فيه على قدم المساواة التامة ·

ويمكن القول بوجه عام وبتحفظات كثيرة ان الفكرة الاولى يتبناها بصورة رئيسية المسلمون السنة ، وان الفكرة الثانية يتبناها القوميون العرب المسلمون واولئك المسيحيون

الذين يؤمنون بان القومية العلمانية ممكنة ومرغوب بها ، ويتبنى الفكرة الثالثة اعضاء جميع الاقليات ، وخاصة الجيل الاكبر سنا ، ويتبنى الفكرة الرابعة بصورة رئيسية الموارنة وغيرهم من المسيحيين الخاضعين لسلطة البابا ، بينما يتبنى الفكرة الخامسة المسيحيون الذين يريدون ان يبقوا مسيحيين تماما مع كونهم قوميين عرب تماما كذلك ٠

هذه الاختلافات في المفاهيم تنطوي على وجهات نظر مختلفة حول قضايا مختلفة :

(١) مسألة حدود لبنان ٠ بوجه عام كان الذين ينظرون الى لبنان ككيان منفصل يرغبون في المحافظة على حدود عام ١٩٢٠ ،اذ بخلاف ذلك سيكون من الاصعب الدفاع عنه، كما سيكون اقل قدرة من الناحية الاقتصادية مما هو عليه في الوقت الحاضر ٠ وعلى العكس من ذلك فان الذين يتبنون النظريتين الاولى والثانية كانوا يرغبون في العودة الى حدود السنجق القديم ، مع احتمال اضافة بيروت ٠

(٢) ان الكثيرين ممن ينظرون الى لبنان كبلد مستقل او كملاذ ، يرغبون في ان يكون تحت حماية دولة غربية تهتم به اكثر من مجرد اهتمام سياسي ٠ وفي تقدير معظم هؤلاء ان تلك الدولة الغربية يجب ان تكون فرنسا ، غير ان اخرين يفضلون بريطانيا العظمى او الولايات المتحدة ، الا ان الذين ينظرون الى لبنان كجزء من العالم العربي ، باي معنى من المعاني ، يعتبرون مثل هذه الحماية بالغة الخطر بالنسبة الى كل من لبنان والعالم العربي بحيث يجب عدم السماح بها ٠

(٣) ان الكثيرين جدا ممن يعتبرون لبنان بلدا منفصلا يعترفون مع ذلك بانه لا بد له من ان يكون على ارتباط وثيق مع سوريا وغيرها من البلدان الناطقة بالعربية ٠ بيد انهم يؤكدون على ان هذا الارتباط يجب ان يكون قائما على المساواة الرسمية ٠ وعلى البلدان الاخرى ان تعترف بالوجود المستقل للبنان ، ومن ثم سيكون المجال مفتوحا لعلاقات اوثق، خصوصا في الحقل الاقتصادي ٠ ومقابل ذلك فان اولئك الذين يتبنون ايا من النظرة الاولى او الثانية يتطلعون الى وقت يصبح فيه لبنان اقليما ، او اقليما متمتعا بالحكم الذاتي على الاكثر ، في دولة سورية او عربية ٠ الا ان اتباع النظرة الخامسة يأملون في ان يروا لبنان دولة ، عضوا في اتحاد فيدرالي سوري او عربي ، يتمتع بنفس المنزلة وحرية التصرف التي تتمتع بها الدول الاخرى الاعضاء ٠

التطورات منذ ١٩٤١

منذعام ١٩٢٦ عندما تأسست الجمهورية اللبنانية وبدأ جهازها السياسي بالعمل وحتى عام ١٩٤١ ، لم يطرأ اي تغير جوهري في بنية لبنان٠ صحيح انه جرى التفاوض عام١٩٣٦ على عقد معاهدة فرنسية – لبنانية تنص على استقلال لبنان التام بعد عدد من السنين ، الا ان هذه المعاهدة لم تبرم ٠

وفي عام ١٩٤١ ، بعد احتلال قوات الحلفاء لدول المشرق بوقت قصير اعلن الجنرال كاترو استقلال لبنان في وثيقة اعلنت ، ان حكومة لبنان ستضمن المساواة في الحقوق المدنية والدينية والسياسية بين جميع مواطنيها دون اي تمييز ٠

وفي عام ١٩٤٣اتخذت الخطوات الاولى لتنفيذ سياسة الاستقلال منخلال اجراءانتخابات لمجلس النواب ٠

واظهر تكوين مجلس النواب والوزارة التي انبثقت عنه ان تغييرا كبيرا قد طرأ على افكار ومواقف الطوائف المختلفة خلال الاعوام القليلة السابقة ٠

(١) ان القسم الاعظم من اللبنانيين الذين يملكون وعيا سياسيا يرغبون في استمرار الاستقلال الذاتي ولم يعودوا مستعدين للسماح بنفس الدرجة الكبيرة من التدخل الاجنبي في شؤونهم الداخلية كما كان يجري في ظل الانتداب الفرنسي ٠

(٢) ثمة عدد متزايد ممن يرغبون في انهاء الارتباط مع فرنسا كليا ٠ وتتألف هذه الجماعة من قسمين : اولا ، اولئك الذين ما زالوا يرغبون بوجود حماية اجنبية ولكنهم يعتقدون ان فرنسا لم تعدقادرة على توفيرها ولذلك يتطلعون الىبريطانيا العظمى للحلول مكانها ٠ ثانيا ، اولئك الذين يرفضون فكرة الحماية باكملها ويعتقدون ان الضمانة الوحيدة للمركز الخاص الذي يتمتع به لبنان تكمن في ارتياح البلدان المجاورة اليه ٠

(٣) ان الكثيرين من القوميين العرب الذين كانوا سابقا يرغبون في تصغير لبنان الى حدوده القديمة او حتى الغاء استقلاله الذاتي الغاء تاما تقريبا ، باتوا يرغبون الانفي المحافظة على لبنان الكبير كتدبير ملائم مؤقت على الاقل : فلبنان الكبير بعدد سكانه الكبير والمتزايد من المسلمين هو اقل حماسا للانفصال مما كان سيكون عليه لبنان الصغير باكثريته المارونية ، هو بالاضافة الى ذلك يوفر احتمال تطور قومية عربية غير طائفية ٠ وللاسباب نفسها يرغب الكثيرون من القوميين اللبنانيين الان في العودة الى لبنان الصغير ذي الاكثرية المسيحية الكبيرة ٠

لقد كانت الازمة الفرنسية ـاللبنانية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣تشملجميعهذه المشكلات ٠ ونتيجة لتلك الازمة حقق لبنان درجة اكبر من الحكم الذاتي ٠ واتخذت خطوة اخرى عام ١٩٤٤ عندما شارك ممثلون عن الحكومة اللبنانية في مؤتمر الاسكندرية الذي وضع اسس جامعة الدول العربية ٠ وقد احتوى البروتوكول الذي صدر في نهاية المؤتمر في تشرين الاول (اكتوبر) على ملحق خاص يضمن استقلال لبنان ضمن حدوده الحاضرة شرط ان تستمر الحكومة اللبنانية في انتهاج سياسة الاستقلال التي تبنتها عام ١٩٤٣ ٠ وفي عام ١٩٤٥ـ١٩٤٦ تم التوصل نهائيا الى اتفاق حول انسحاب القوات الفرنسية والبريطانية من لبنان الذى اصبح استقلاله بذلك ناجزا ٠ ولكن تبقى مع ذلك المشكلات الاعمق المتعلقة ببنية لبنان وعلاقته بالعالم الخارجي ٠

الثقافة والبوليس

الياس خوري

١ ـ

الحرب الاهلية الوطنية التي أشعلت لبنان وحولته الى بركان العرب الذي ينذر بالولادات ، كانت اعصارا كشف الجوهري وترك الاقنعة مرمية على مفترق المتوسط ٠

الحرب الاهلية تختصر الزمن في قدرتها على الكثافة الفعلية ٠ فالزمن القديم يتحول الى زمن التغيير ، أي ان التاريخ يسرع دورته ويكشف اطراف لعبته على ايقاع التحولات العنيفة التي حولت الحجارة الى متاريس والمدن الى غابات ٠ رفعت الحرب القناع عن الذين كانت اقنعتهم مطوية بعناية الى درجة الرهان على عدم كشف الوجوه ٠ دمرت عروس المتوسط وفتحت الزمن العربي على الاحتمالات ٠ زمن الحرب يتسع من رقعة صغيرة في ضاحية بيروت الجنوبية اسمها الشياح ـ عين الرمانة ليصل الى دمشق مع دبابات الاجتياح العسكري ، الى الكويت حيث يرتجفون رعبا امام احتمالات اليد الجماهيرية ، الى القارة العربية بأسرها حيث اختلطت الاوراق « ولدت تحالفات وانهارت تحالفات والفوضى تزدحم امام العواصم » ٠

نقف في بيروت التي نعرفها ، ونرى فندق المتوسط يتحول الى «غابة اسمنت مسلح » ، غابة تكتظ بالرجـــال والبنادق ، ترتفع فوق القصف ، تنتقم مـــن نفسها الى درجة العري ، تتوجع • بيروت الفندق ، الشوارع ، المطاعـم ، المعارض ، المجلات ، دور النشر ، تنهار وتولد غابة الاسمنت التي تقاتل كمـا لم يقاتل احـد ، تنتصر كما لم ينتصر احد ، وتموت كما لم يمت احد• الحرب الاهلية هي مبدئيا بداية ، وحتى تكون بداية يجب ان تكون نهاية • انها نهاية عـلى كل حـال ، نهاية : لانهـا حتى لو اكتفت بالوصول الى ابواب السمـاء دون كسرها ، لن تسمح للماضي بالعـودة الا بوصفه الماضي ، أي بوصفـــه تكرارا مبتذلا لما كان ولـا لن يكون كما كان•

٢ ـ

كانت اشكالية انهيار الكيان اللبناني اشكالية خاصة ببنيتـــه • انـــهار في حرب أهلية •كل حـرب أهلية في التاريخ هي عـلى المستوى العـملي انقسام في السكان وقتال شامـل عـلى السلطة أو عـلى ادارة الحرب الوطنية • وهذا ما حصل في لبنان • انقسام السكان الى فئات تتقاتل • غير ان اشكاليـــة الانقسام اخـذت في لبنان طابعـا خاصا : الطائفية • انقسام السكان الـــى طوائف متقاتلة • أي ان الانتماء الطائفي هو الـــذي حـــدد عـند اندلاع شرارة الحرب الشكل العام للانتمـــاء • و « الاقتتـــال الطائفي » هو شيء متوحش ، همجي ، غير عادل ، نستطيع ان نعود الى جميع التعابير الاخلاقيـــة التي في القاموس ونكتبها وتكون صحيحة • غير ان هـذا الاقتتال الطائفـي لم يكن لان اللبنانيين ما زالوا قبائـل تعيش خارج دائرة الرأسمالية •الانقسام الطائفي يترنح ، لقد استنفد تماما مثل سلطة الرأسمالية الوسيطة التي استنفدت• سلطة دولة مفبركة لا اساس لها سوى ارادة المستعمر ورضوخ الطرف الاخـر لهـذه الارادة عـندمـا لم يكن يملك المقومـات او القوى الحقيقية التي تستطيع رفضها • الرسمالية اللبنانية هي رأسمالية متوحشة تقوم على الوساطـــة والكومسيون والسمسرة والشعوذة والنصب والاحتيال والسرقة • رأسمالية تراكم تجاري هو وليد الشطارة الغبية القائمة على قهر العـرب واذلالهـــم وسرقتهم • انتفخت هذه الرأسمالية كالجثة ، لذلك عـندما وجدت انهـــــا مهددة مثلت بالجثث ، قتلت بوحشية نادرة ، سحقت، كانت في مأزقهـــــا التاريخي لا تجد المخرج ولا الخـــلاص من نهاية محتومة ، فاقتربـت مـــن الانتحار • الرأسمالية الوسيطة تخلع قفازها الناعم وتظهر على حقيقتها بوصفها رأسمالية همجية • الشكل الطائفي يدمـر نفسه في الصراع فيما تدمـــــر الرأسمالية الوسيطة سلطتها التي تتساقط بحثا عـن اعـادة تركيبهـا • ومـع

تحول الحرب الاهلية من حرب مواقع وخطف الى حرب حقيقية بدأ الشكل الطائفي يترنح ، لقد استنفد تماما مثل سلطة الرأسمالية الوسيطة التي استنفدت وجاءت الدبابات كي تعيد تركيبه حاملة معها مؤشرا لبحر الدم وأفق المشانق الذي تبشرنا به البرجوازية المساومة وهي تبحث عن الخلاص من مأزقها بالاندفاع الى منع التغيير وسحق شعلة الحرب الوطنية التي يرفعها الشعب ٠

يقولون : هذه ليست حربا أهلية ٠ هذا اقتتال طائفي ٠والطائفية شيء يمجه العقل والمنطق الحديث ، يغسلون ايديهم بالمياه المعدنية ويدعون الى ايقاف الاقتتال الطائفي عبر اعادة تركيب المائدة الطائفية القديمة مع بعض التعديلات ، يعللون ذلك بالقيم والاخلاق والشرف ٠ وهم لا يخافون على القيم بل على فتات المائدة ٠ فبعد انهيار المائدة لن يبقى مكان لفتات ٠

يقولون : هذه ليست حربا أهلية ٠ فالحرب الاهلية يجب ان تقوم بين اللبنانيين وحدهم ٠ اما هنا فهي بين اللبنانيين كما انها حرب بين اللبنانيين والفلسطينيين ٠واليوم اصبحت حربا لبنانية ـ فلسطينية ـ سورية ٠ من قال أن الحرب يجب ان تفصل على اساس نموذج ما ٠ ومتى كانت الحروب في هذه القارة العربية الممزقة مجرد حروب داخلية ؟ ثورات العشرينات كانت تمتد من جبل العرب الى راشيا ٠ ثورة الثلاثينات الفلسطينية كانت تمتد من فلسطين الى دمشق ٠ حرب ١٩٤٨ كانت حرب مصر كما كانت حرب عشرات المتطوعين الذين ركبوا البحر من بيروت الى حيفا ٠ حرب ١٩٥٨ الاهلية كانت حرب عبدالناصر كما كانت حرب اللبنانيين ٠ كل ما هنالك انه عام ١٩٧٥ قرر الطرفان اللذان يتشكل الكيان اللبناني كصيغة توازن بينهما رفض الصيغة القديمة ٠ والجديد انه في احشاء الطرف العربي تولد فلسطين والتغيير الذي لم يعد يتسع له هذا الزمن ، فقرر ان يراهن على زمنه الجديد ٠

ـ ٣

مع تصاعد الحرب انهارت دولة الكيان وانهار كل شيء ٠ الجيش ينقسم كبار التجار يديرون اعمالهم بين المرافيء ، صغار التجار يفلسون أو يعودون الى تجارة الكشة ، وصحافة بيروت تتحجم الى اقصى الحدود ٠ والتجار الذين جاءوا الى بيروت المتحضرة يغادرون الى اماكن اخرى ٠ الوجه الغالب الذي يبقى هو السلاح المرفوع في وجه الاعداء ، وارادة رغم النكسات تقاتل ٠

انهيار السلطة كان مذهلا · أذهل جميع الناس ما عدا اللبنانيين الذين كانوا يعرفون دولتهم جيدا · فكما كان لبنان فضيحة التجارة الدولية ، لانه بقدر ما تخطى اصولها البرجوازية الحقيقية وكشفها بوصفها شعوذة وصفقات ، أي سرقة عرق المنتجين الحقيقيين ، كشف لبنان حقيقة « الدولة » بوصفها جهازا لا يكون الا لتغطية السلطة الحقيقية بقالب قانوني · فسلطة التوازن الدقيق اللبنانية التي يسمونها « التجربة الحضارية » انكشفت وكشفت حقيقة كل السلطات بوصفها جهاز قمع طبقي · واذا كانت الطبقة السائدة تتخلى عن جهازها « الدولة » في لبنان بهذه السرعة فهذا يعود الى كون هذا الجهاز ليس سوى جهاز توازن وخلفه تقع اجهزة السلطة الفعلية · لقد فضح انهيار الدولة الدول · وخلال مسار الحرب الاهلية فضحت الكثير من الامور · فضح عزيز الاحدب الانقلابات وكشف معناها الفعلي · فالواقع ، انه هكذا في الدول التابعة تحصل الانقلابات كي تنقذ جهاز الدولة من الانهيار وتنتصر · اما هنا ، فكان الانقلاب مسرحية مضحكة تكشف « المغامرين » الانقلابيين وتكشف ذكاءهم الابله · كما فضحت الفاشية الصغيرة الانعزالية جميع الفاشيات · فعوض استعمال الاقبية السرية للقتل والتعذيب ، حولت الفاشية الصغيرة الشوارع الى أقبية والساحات الى سراديب · لقد فضحت التركيبة اللبنانية بانهيارها السلطة ، واجهزتها ، وقدمت خلال سنة ونصف من القتال ، نمزجة جديدة لفهم كيف تتحرك الامور وتتغير المقاييس ،وكيف تستطيع الجماهير متى دخلت المعادلة قلب المعادلة رأسا على عقب ·

مع الانهيارات تساقط « القمع اللبناني » ، قمع السلطة · تحولت الفنادق الى متاريس والاسواق الى جبهات والثقافة الى اشبه ما يكون بلا شيء · بيروت مدينة الصحافة والمعارض والفكر والفن والمطاعم الراقية تختفي مع اختفاء السلطة القديمة · كل شيء يتوقف ما عدا بضعة كلمات يكتبها رجال راهنوا على موتهم وسط شلالات الموت الجميل ، وبقوا ليكتبوا ليس اجمل الاشياء ، بل ربما ، اكثر الاشياء قدرة على الشهادة · لماذا هذه الانهيارات ؟ في بيروت القديمة لم تكن هناك سلطة · كانت الحرية مطلقة الى اقصى الحدود · حرية التجارة وحرية الكتابة · لذلك تحولت بيروت الى ملتقى التجار ووكلاء الشركات وملتقى المثقفين · ملتقى الباحثين عن الربح السريع وملتقى الباحثين عن المجد السريع ·

لكن الحرية لم تكن حرية ،كانت حرية التجار ! ماذا تعني حرية التجار؟ التاجر لا يهتم بالمقدمات ، يبحث عن النتائج · أي ان التجارة لا علاقة لها بالانتاج ، بمعناه الحقيقي بوصفه تراكما للعرق وتراكما للمعرفة

وتراكما لرأس المال · تراكم العرق والمعرفة ورأس المال يقدم هيكلية اجتماعية حقيقية ، أما تراكم الغباء والشطارة فلا يقدم سوى نتيجة واحدة هي ازدياد الثروة او ازدياد التبذير · حرية التجارة تبحث عن النتائج ، والفكر والثقافة الذي ينمو وسطها هو فكر وثقافة النتائج · في جو هذه الحرية اختلطت المقاييس الى حد الجنون · وتحولت الكتابة الى انفصام للشخصية · نمو الصحافة المذهل ونمو النشر ايضا بالشكل العشوائي هو امتداد لتورم التجارة · ان طغيان المظاهر « المتحضرة » لا يلغي جوهر الواقع الذي هو في صراع من اجل الولادة · الكتابة والثقافة التي لا يهمها سوى النتائج تنكشف عندما تطلب المقدمات في لحظة الانفجار حسابها ، لان الكتابة في الجوهر هي ممارسة اجتماعية من طبيعة خاصة ولا تستطيع التحرر من طبيعتها الا بشكل خادع ومؤقت حين تعلو اصوات التجار واصوات حريتهم على اصوات المنتجين الحقيقيين · تصل الحرية المخادعة الى نهايتها : حرية التجار تلغي الحرية وتحولها الى احتكار فاشي للحرية ، وحرية الرأي تلغي الرأي وتحوله الى لغة بلا دلالات او الى معلومات صغيرة وتافهة · لهذا تتنافس الانظمة القمعية على رشوة الصحافة اللبنانية وتتنافس على طلب الغائها · تنمو وسط الغاء الرأي وتنتهي في نفس الدائرة ·

ـ ٤ ـ

الحرية هي وجه اخر للقمع · حرية التجارة ودولة التوازن تحمل اوالية قمع خاصة · فالدولة هي بالدرجة الاولى جهاز قمع · دولة الاحتكار وتنظيم الاحتكار تقوم هي الاخرى بتنظيم القمع عبر اربع اشكاليات متناسقة ·

النموذج وحجب النموذج :

النموذج في الحالة اللبنانية هو المثال الذي تقدمه التجارة الحرة · الاقتصاد الحر ينتج نموذجا حرا · التاجر الذي يفعل كل شيء ببراعة يربح كل شيء ولا يخسر شيئا · ماذا يخسر ؟ مجموعة من قيم الشهامة العربية الباقية داخل اشكالية نمو تحافظ على العائلة كوحدة اجتماعية ! فيقوم بحجب هذه الخسارة عبر تقديم نموذج اضافي : الحضارة الغربية · فتجري اعادة انتاج القيم الحديثة وضرورة رفض القيم البالية وضرورة تمثل الحضارة الحديثة وقيم الحرية الفردية الجديدة · هكذا يحجب النموذج نفسه · التاجر يتحول الى رجل متحصر والمشعوذ الى فيلسوف والقاتل الى قاض · هذه الاشكالية بالغة الطرافة ، فهي التي تتحكم في الوسط

« بيروت » وتمتد تدريجيا الى الاطراف · هكذا تتحول الشعوذة الى سياسة والعلاقات المتوحشة الى حضارة · النموذج هو السلطة التي تمسك بلعبة التجارة بوصف السياسة تجارة ، وحجب النموذج هو مجموعة المباخر الايديولوجية التي تمتد من ميشال شيحا الى توما الاكويني مجسدا في شارل مالك الى الفولكلور البليد · أو المؤسسات ذات الاخراج المتحضر ـ مياه معدنية ـ وخلفها تختفي الخوات والقبضنات واللغة الفرنسية !

التهميش

داخل بنية السلطة ، هناك هامش واسع يجري الدفع باتجاهه · ففي هيكلية السلطة هناك اساسية وطوائف هامشية · وداخل دورة الرأسمال التجاري هناك فئات اساسية وفئات هامشية · الهامش هو الانتاج او ما تبقى منه والذي يندرج داخل الرأسمال التجاري ويعطيه قدرة على الحركة ·هكذا تهمش مناطق الانتاج الزراعي ويجري ادخالها تدريجيا في دورة الرواج، وتهمش فئات اجتماعية كاملة كي تشكل اليد العاملة الرخيصة ، وتهمش قطاعات واسعة من السكان على المستوى الثقافي كي تتحول الى معلمين صغار ومستهلكين صغار للثقافة السائدة · وحين يحاول الهامش اختراق المركز فانه يضرب بقسوة ·

التصفية

ادوات القمع اللبنانية هي ادوات شكلية : الجيش ، الدرك ، المكتب الثاني، هي اشكال استقطاب لمجموعة من الهامشيين في سبيل اسكاتهم · كل القمع في لبنان هو قمع شكلي ، جميع اجهزة المراقبة ترتشي، جميع ادوات المحافظة على المجتمع تشارك في اعمال غير قانونية · وحده بوليس السير يقف وسط الشارع يسجل محاضر الضبط بالسائقين دلالة على وجود السلطة · حتى محاضر الضبط لا يعاملها الناس بوصفها سلطة تريد فرض القانون بل بوصفها سرقة · هذا النموذج البائس للقمع ليس قمعا · لكن اجهزة القمع تتحول من شركات مساهمة الى اجهزة قمع فعلية في حالة واحدة : عندما يحاول الهامشي كسر هامشيته والوصول الى الاساسي · عندها تتحرك الة التوازن اللبنانية بأسرها ، ويصبح الجيش جيشا · يتحول التجار الى قتلة واللصوص الى قضاة متحضرين · « من اطلق النار ؟» في مذبحة عمال غندور · الفقراء او البوليس ؟ والدليل على ان العمال هم الذين اطلقوا النار هو موت عاملين ! لقد قتل العمال بعضهم لان المخربين اندسوا في صفوفهم ! او بطرد جميع المعلمين الابتدائيين خلال اضرابهم الشهير · القمع

يتحول الى قمع فعلي عندما يهدد الهامشي التوازن · هذا هو تاريخ علاقة السلطة بالشعب الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨ وحتى ولادة المقاومة ·

التوازنات التقليدية

هي ضابط المجتمع وضابط السياسة · هي القمع الفعلي الذي يختفي خلف كل اشكال الحرية · فالتوازن اللبناني يقوم على قواعد ثابتة ، ولا يمكن احداث خلل فيه الا عبر خلخلة قواعده · والخلخلة تحصل في لحظة انهيار التوازنات العامة التي تحكم المشرق العربي · في هذه اللحظة يحاول الهامشي عبر التحالف مع احد الاطراف الاساسية اختراق التوازن وتغيير معادلاته او تدميره · التوازن اللبناني هو القمع ، هو الذي يغطي اشرس انواع القمع الذي مورس عمليا بغطاء ليبرالي مبتذل ·

ـ ٥

عند اندلاع الحرب الاهلية الوطنية ، كان واضحا أن التوازن بدأ ينهار، وأن اطرافه تريد ضربه من اجل ان تقيمه من جديد على اسس ملائمة · انهارت المؤسسات ودخلنا احدى اشرس الحروب في التاريخ ، انهارت سلطة التوازن بالغلبة وجميع اجهزتها لتقوم سلطات اخرى تتصارع · ولم يعد لبوليس السير البائس من دور يقوم به فذهب الى البيت · في ذروة هذا الانهيار ، انهارت جميع القشور · وبقي الواقع الفعلي الذي يحاول النموذج طمسه · في هذا الوقت تحولت بيروت من مدينة الثقافة العربية حيث يتجمع المثقفون العرب ويكتبون الى مدينة خالية الا من بعض الذين راهنوا على البدايه الحقيقية · ما هي علاقة الثقافة التي انهارت ببوليس السير البائس الذي ذهب الى منزله ؟ لماذا تحولت بيروت من مدينة الثقافة العربية الى مدينة تقاتل بعد ان انهارت « ثقافتها » أو اختفت ؟

يمكننا أن نقدم مجموعة تفسيرات لهذا الواقع الجديد :

التفسير الاول ، هو أن الثقافة العربية هي ثقافة مازوكية · فعندما انهار البوليس في لبنان وسقط القمع ذهبت الثقافة الى حيث البوليس والقمع · فهي ثقافة لا تستطيع أن تعيش الا في ظل القمع والاضطهاد ، وتمارس تعذيب النفس بامتياز · الواقع ، ان هذا التفسير لا يقنع احدا · فالحرية اللبنانية وخاصة حرية الكتابة والصحافة (بوصفها مصدرا لجلب رؤوس الاموال العربية التي تساهم في الازدهار) كانت بلا رقابة تقريبا · فانهيار السلطة

لا يغير كثيرا · فلم يكن هناك قمع لحرية الرأي حتى تتعوده الثقافة وتذهب الى حيث القمع ·

التفسير الثاني ، هو أن لا مكان للكلمة وسط دوي المدافع واطلاق الرصاص· الكلمة تخاطب العقل والعواطف النبيلة والرصاصة تخاطب نزعات القتل · الكلمة بناء والمدفع هدم · من قال ان الكلمة بناء ، الكلمة هدم ايضا والمدفع بناء هو الاخر · وتعطينا الثورات والانتفاضات امثلة بالغة الدلالة على دور الكملة والملصق والاغنية والقصيدة والقصة والمقالة والبيان ··· الكتابة لا تغير التاريخ وليست بديلا عن الرصاص · لكنها في لحظات التحول تبحث عن دورها وسط التحول · وهي كما نفترض ليست لغة الازمنة الراكدة كالمستنقعات ·

التفسير الثالث ، يشير الى ان انهيار السلطة قد خلق سلطات مسلحة ·وهي سلطات قمعية لا يمكن للكلمة الحرة ان تعيش في وسطها · الواقع ان الفاشية الانعزالية الصغيرة التي لم تستقطب احدا ، ما عدا بعض الكتاب السابقين والسفاحين اللاحقين امثال سعيد عقل وشارل مالك فرضت في المناطق التي تسيطر عليها الغاء كاملا للثقافة لانها فاشية لا تستطيع كغيرها من الفاشيات التعايش مع الحرية · اما في المناطق الوطنية فان اشكال الحرية الفعلية التي لا تظهر عادة في التاريخ بهذا الزخم الا خلال الانتفاضات الجماهيرية والثورات فقد كانت عامة وشاملة · الحرية بمعنى حرية التغيير، وبمعنى تعايش ازمنة مختلفة في لحظة التغيير ·

الواقع ان هذه التفسيرات الثلاثة خاطئة · فعلاقة الثقافة ليست مع بوليس السير البائس ، بل يجب البحث عن علاقتها بالتجارة والرواج · فبانهيار التوازن الذي على قاعدته تقدم التجارة والرواج انهارت بيروت القديمة وانهارت قيمها بأسرها · وظهر الواقع ليس بوصفه زمنا جامدا ، بل بوصفه زمن التغيير · هنا انكشفت اللعبة · سقط القناع ، وسقطت مع القناع جميع المساحيق والالوان ، ولم يبق سوى الحقيقي بتواضعه الشامخ وهو يبحث عن لحظة التغيير ·

٦ ـ

لم تكن بيروت التجارة والفنادق ضحية ،بل كانت القاتل · وليست الجماهير ضحية بل هي الذي يثور ويغير ·هكذا في زمن التحولات بكل امجاده ولحظات زهوه ، كانت الاعراس تولد في مأتم الفقراء وهم يدفنون موتهم · وكانت

اجساد المقاتلين الجميلة تعانق الدم القليل وهو يمتد على قمة الجبال ويتساقط شلال اوجاع على المدن ٠٠ وكانت بيروت غابة حقيقية وبنادق حقيقية وارادة تغيير ٠ اما الذين اكلوا فتات المائدة ، فعندما سقطت المائدة سقطوا ٠عندما سقط قمع نظام التجارة والكوميسيون سقطوا ، وبقيت كلمات تصلح ان تكـون عنوانا لموتنا ، وبقيت كتابة كانت البنادق تحولها الى ممارسة ٠

نتساءل عـن الكتابة في زمن الحـرب ، ونؤكد انالكتابة هي تلخيص لكثافة الحركة التي في الواقع ، حيث الكلمات اشارات لما تصنعـه التجربـة ٠ ان الكتابة في زمن التغيير انخراط في التغيير وتغيير في الكتابة ٠

صـــور

عباس بيضون

« يا صور · لقد تبدلت نبرتنا ، حين نزلنا اليك انتزعت من حناجرنا الوتر
الفلاحي ، وها نحن بالكلمات التي تعلمناها منك لا نستطيع أن نصفك ·
لا نصفك لانك ما زلت تبحثين في جلدك عـن فمك المندمل
ولانك تنطقين بزفير ساخـن عـلى وجوه مخاطبيك القليلين
لانك بلا صوت تحكين يابستك ورملك
وتلقين بلا تحية يدك عـلى شمال البحر
هذا هو جسدك يضيع ولا مصباح عـلى جلدك يقرع فوق طرقك الهاربة
ستتاكلين وستتجمع حجارتك كل عـام
بعـد أن تهبط أوتادك ستصبحلك كل عـام جثة حجرية
ستقعين عـند البحر بينما تلمع مطابخك من بعيد
لقد قامت خصاص سريعـة تحت سقوفك الساقطة
لكن النوافذ التي تفتح في رمتك
لا تدعـو المتنزهين ولا التلاميذ
رأسك بين كتفيك واكتافك تنحني
ولن تستطيع النسوة المنتظرات تحت الادراج وفي الغرف العـالية
قدوم الابناء والازواج المتخلفين في الحانات
لن تستطيع الكلاب الجائعـة
ولا أرضك التي تغـلي بالفئران
أن ترفع قناطرك المصطكة
أن تمنع طرقك من السقوط في الخنادق ودورات المياه
والتجول في الادغـال الداخلية انفاقا حـرة

أن ينزع النجوم من عـيون الثقوب وعـيون الحشرات
ويفك الشوارع من عـقدة ابهامك الضيقة
ستقعين ايتها الام المسنة ولن تقوم مدينة بعـــد الان
ستنزلين على اضلاعـك كالمدخنة الهاوية
وترقدين على الشاطيء ورأسك في الرمال ككلب البحر
لن يكلمك احد فمن يحدس انك تتكلمين وسط نسمتك المتعثرة
ووسط مصابيح السيارات المسلطة عـلى حـدودك
من يحدس أن حرفا اصغـر من جناح ذبابة
ينزل مغبرا بالبارود وسط الرصاص الذي يدرز نوافذك
ويصمت في الـدم الذ يلطخ الابواب
من يحدس أن فمك الذي ضاع في جوفك كخاتم في بئر
ينطق في عاصفة رعدية وموجة ترفع السواحل
لن يكلمك أحـد ولن تتبدل مياهك بعـد الان
ستكونين في طرف العـالم وسيرجع الجميع قبلك
الحدائق التي ترافق البحر لن تجروء على اقتحام احجارك السود
والطيور المهاجرة تخشى ان تعتق لف يغيومك المدخنة
سحابة أزهار الليمون التي تصحـب المسافرين
ستهبط على تخومك القريبة
ولن يصل المسافرون
ولن تتبدل سماؤك
سيبقى لك الهواء الذي يتلكأ عند مداخل الازقة ٠
يفور دائما بالملح والرمل والذباب
ينزف على الاواني والسواقي والانقاض
ساقطا هنا وهناك ، بطيئا ،مذ دوخته ملوحة الضفاف
وها هو يبذر قمح المتوسط عـلى جلودنا
ويترك في عقود العرق النازفة
ثقل دمـــوع البحر

★ ★

كنت جزيرة وحصنا وخانا للمسافرين
لا يتسع نهارك للبناء ، ولا يكفي ليلك للاحلام
لم تكن نجومك كبيرة ، ولا قمرك لامعـا
لذا كان بحارتك يسقطون على السلالم
وجنودك يجفون في الابراج

على القوارب المبتعـدة كنا نرى السماء الواسعـة
ونغـني ونتناسل كحشرات الكروم
نرقص في النسيم الخفيف ، ونرفع قصائد وحبا
للواتي لا يصعـدن الى الشرفات
تكف الرطوبة رياحك
لذا لا تشتعـل على سفوحك النيران الكبيرة
طيورك لا تحلق عاليا ، وابناؤك لا يذهبون بعيدا
لك قلب سمكة وروح طير بحري
لذا تتركين موتاك على الصخور
وتسقطين من ضربة المجذاف

انت حذاء البر المندسة بين شقوق الموج
تحمل طرق البر المزارعـين اليـــك
وتحمل طرق البحر الغزاة
فتطفح السلال بعيون الفلاحين
يمر عليك الجنود الفارون
ومـــن نوافذك
يطلقون على الناس في الاسواق
هكذا مر عـلماؤك وقضاتك ورؤساؤك
تحت السلاح

بينما فقراؤك يثقبون الاسماك الميتة
بحثا عن ملح المائـدة

حين نزلنا من القرى
نقبوا في جلودنا
عن حبـة قمل وتراب وحنطة
افرغوا بنادقنا من كل حبة باقية
اوقفونا على موائد وعرضونا على السكارى
قطعونا على صخرك بعيدا عـن نجوم الحقل
ربطونا الى السفن حمالين وعبيدا
على الحبال عصروا القلوب المدورة كتفاحات الجبل
واطلقوا الامواج الصغـيرة على جثث الغواصين
هكذا كنا في اسواقك نرقص بين الطلقات
نمشي وعيوننا في الارض
كأنها تبحث عن زر ضائـع ورأس أبره

هكذا بتنا بقلوب خصية وجووه كالنعـال
نخشى أن نبتعد فيك الى الحد الذي تصل اليه جرذان الليل
ننكر اصوات البرق والريح والمطر
لنتعـلم كل يـــوم
لهجة سرطان البحر المتعـفن في المياه

هذه احلامك تجمد حالما تخرج من ثقوب رأسك المدببة
وها هي تتكاثر كحجارة رمادية في حوضك الضيق
تبتعدين عـن يد البحر المعانقة
وتغتسلين من الزبـد
لكن تبقى مشاعـل عارتك تخطو على الامواج
هل تهمسين بكلمة ٠٠ هل تحطمت على فمك صدفة ؟
هل ارتعشت عظامك لحظة ، أم الدمعـة الاخيرة تقرع في حجر القلب
انت صور التي سقطت من جيب التاريخ
كيف تبقين على الرمال كالعلبة الضائعة ؟
من يدفعـك ثانية الى البحر
من يحمل شجرة الى شوارعك المسقوفة
ما زالوا يحجزون الميناء في قفص
ما زال الصيد متصلا عـلى جبينك
وجبينك ينتن من رائحة الصيد والدماء الباردة
ما زالوا يخوفون التلاميذ من البحر ، والصيادين من الكتب
نحن الذين نتكلم من جثتك
نفتح نوافذنا في رمتك المتصخـرة
نرى الدماء تنزل من العصي والسكاكين وورق اللعـب
لكن نبقى الى أن يصلنا التيار ، الىان يلمس قلبك
لا نفارقك كأمراء البحر ولا طيور اليابسة
فنحن لسنا شيئا سوى قناطرك وصخورك وأسماكك
وانت مركبتنا ، ندفعـك للجبل والبحـــر
لكن نسقط تحت عجلاتك في نهاية اليوم
نغني حيث نعـمل
لكن الوقت يمر عـلينا ويغادرنا أعـــمدة ورخاما
والوقت يتوجع وهو يكمل لمسته الحجرية.

امامك نحن نصطف جزرا متباعـدة
وانت تنقلين عـلينا قدمك الى المياه
في الليالي تسرع القوارب والفصول : ولن تموتي
ستحلقين ايتها الام على جسورك ستحلقين بينما تهبط جسورك الى الاودية

* *

المرأة الفلسطينية والثورة
١٩٤٨ - ١٩٦٧

غازي الخليلي

تأثر وضع المرأة الفلسطينية في هذه المرحلة بما طرأ من تغييرات واسعة على بنية المجتمع العربي الفلسطيني ، اثر قيام الكيان الصهيوني على الجزء الاكبر من ارض فلسطين ، واقتلاع وتشريد غالبية الشعب الفلسطيني من ارضه ، فبعد العام ١٩٤٨ وجد ما يزيد عن ٩٠٠ الف من الفلسطينيين أنفسهم بلا مأوى وبلا مورد رزق ثابت ، موزعين في اكثر من مكان ، في فلسطين المحتلة وفي الضفة الغربية وقطاع غزة وفي عدد من الاقطار العربية المجاورة (١) · ومن بقي من الشعب الفلسطيني مقيما على أرضه غير المحتلة فقد تأثر بموجة التهجير الواسعة هذه وبسياسات الالحاق السياسي العربية لهذه الارض · حيث الحقت الضفة الغربية بالنظام الهاشمي في شرق الاردن ، ووضع قطاع غزة تحت الادارة المصرية · اما الذين بقوا في فلسطين المحتلة والذين كان يبلغ عددهم نحو ١٦٠ الف نسمة (٢) ، فقد اخضعوا للحكم العسكري الاسرائيلي المباشر ، ولسياسات اسرائيل العنصرية ·

لقد نجم عن سياسات الاقتلاع والتشريد والبعثرة هذه وسياسات الالحاق السياسي العربية لما تبقى غير محتل من الارض الفلسطينية ، تغييرات واسعة في بنية المجتمع العربي الفلسطيني ، انعكست على وضع المرأة فيه · وكان من ابرز هذه التغييرات **تفتيت البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية** للمجتمع العربي الفلسطيني ، فالاقتلاع من الارض افقد الفلاح الفلسطيني صلته الانتاجية بالارض ، وحوله الى انسان عاطل عن العمل ، او انسان يتعاطى اعمالا

★ هذه الدراسة جزء من كتاب « المرأة الفلسطينية والثورة » الذي سيصدر عن **مركز** الابحاث ·

هامشية غير انتاجية ٠ كذلك فان العامل الفلسطيني الذي وجد نفسه خارج ارضه بدون عمل ، اضطر الى البحث عن أي عمل لاعالة اسرته ٠ فمثلا ، بلغ عدد الفلسطينيين العاملين في سوريا في العام ١٩٥١ والمسجلين لدى « الاونروا» فقط ، ١٥ر٦٠٠شخص ، كان من بينهم ١ر٦٠٠ بائع ـ معظمهم باعة متجولون ـ أي ما نسبته ١٠ر٢ ٪ من مجموع العاملين اضافة الى ٤٠٠ شخص كانوا يقومون بمهن غير منتجة ـ خدمات ـ أي ما نسبته ٢ر١ ٪ من مجموع العاملين، في حين بلغ الذين يتعاطون الزراعة والصيد ٥ر٩٠٠ شخص اي ما نسبته ٣٨٪ من مجموع العاملين (٣) ٠ وبين الفلسطينيين في لبنان نجد صورة مشابهة تقريبا ، فمن اصل ١٩ر٠٢٧ شخص كانوا يعملون في العام ١٩٥١(من الفلسطينيين المسجلين لدى الاونروا فقط) بلغ عدد الباعة ١ر٦٥١ شخص أي ما نسبته ٨ر٥٤ ٪ من مجموع العاملين ، كما بلغ عدد الذين يتعاطون مهنا غير منتجة ـ خدمات ـ ٦٢٤ شخص أي ما نسبته ٣ر١١ ٪ من مجموع العاملين ، في حين بلغ الذين يعملون في الزراعةوالصيد ٦ر٦٥٨ شخص أيما نسبته ٢ر٣٥٪ من مجموع العاملين (٤) ٠

وتشير احصائيات « الاونروا » للعام ١٩٥١ ، ان مجموع العاملين من اللاجئين الفلسطينيين المسجلين في العام ١٩٥١ لديها (بما فيهم العاملون من اللاجئين داخل الكيان الصهيوني والذين بلغ عددهم انذاك ٢٥٧٤ شخصا) بلغ ١٠٠ر١٦٠ شخص ، كان عدد الذين يعملون في الزراعة والصيد منهم ٩٠٠ر٦٣ شخص أي ما نسبته ٩ر٣٩ ٪ من مجموع العاملين ٠ وبلغ عدد التجار والباعة ٧٠٠ر١١ شخص اي بنسبة ٣ر٧ ٪ من مجموع العاملين ٠ والجدول التالي يوضح عدد العاملين وتوزعهم بحسب المهنة للعام ١٩٥١ ٠ (٥) :

	العدد « بالالف »	٪
العاملون في جميع المهن	١ر١٦٠	١٠٠
١) المهن الفنية والعلمية	١ر٣	٨ر٠
٢) الاعمال الادارية والكتابية	١ر٥	٣ر٢
٣) تجار وباعة	١١ر٧	٧ر٣
٤) الزراعة والصيد	٦٣ر٩	٣٩ر٩
٥) البناء	٧ر٣	٤ر٥
٦) النقل والمواصلات	٦ر٨	٤ر٢
٧) اصحاب الحرف والصناع وعمال الانتاج	٤٥ر	٢٨ر٧
٨) الخدمات	٦ر٧	٤ر١
٩) لا مهنة لهم :	١١ر٧	٧ر٣

ملاك	٩ر٧	٦ر٠
تلاميذ	ر٢	١ر٢

توضح هذه الاحصائيات الاهتزاز الاقتصادي ـ الاجتماعي الكبير الذي اصاب المجتمع العربي الفلسطيني بفعل الاقتلاع والتشريد ٠ فبعد ان كانت غالبية الشعب الفلسطيني تتعاطى الزراعة *، انخفض عدد هؤلاء الى اكثر قليلا من الثلث من مجمو ٠ لعاملين ، ولو كان هذا التغيير وليد تطور اقتصادي، لكان مقياسا للتقدم ، الا انه كان وليد الهجرة والاقتلاع من الارض ،وهما هجرة واقتلاع افقدا الشعب الفلسطيني تركيبه الطبقي المتوازن ، بامتصاص مجالات العمل غير الانتاجية ، النسبة الكبرى من القوى العاملة الفلسطينية٠ ولقد استمر هذا التركيب الطبقي غير المتوازن للمجتمع العربي الفلسطيني في السنوات اللاحقة ، مع انخفاض نسبة الفلسطينيين الذين يتعاطون اعمالا انتاجية مباشرة ٠ فمثلا بلغت نسبة الذين يعملون في الزراعة والصيد في الاردن وسوريا في العام ١٩٦١ ، ١ر٣٤ ٪ من مجموع العاملين ،وانخفضت نسبة اصحاب الحرف والصناع وعمال الانتاج من ٧ر٢٨ ٪ في العام ١٩٥١ الى ٣ر٢٤٪ في العام ١٩٦١ ، في حين زادت اعداد الذين يعملون في الاعمال الادارية والكتابية والخدمات (٦) ٠

ولم يكن حال العرب الفلسطينيين الذين بقوا على ارضهم في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بافضل من حال بقية الشعب الفلسطيني التي اقتلعت من ارضها ٠ فقد تأثر الوضع الاقتصادي ـ الاجتماعي لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة بعاملين اثنين ، هما :

١) ازدياد الكثافة السكانية

فالاعداد الكبيرة من المهاجرين الذين لجأوا الى الضفة الغربية وقطاع غزة ،جعلت من غير الممكن استيعاب القوى العاملة لهذه الاعداد في مجالات العمل الانتاجي ، فالمساحة القابلة للزراعة في الضفة الغربية كانت لا تتجاوز الثلاثة ملايين دونم من الارض من اصل مساحة الضفة الغربية الكلية والبالغة ٥٦٤٢ كم٢ ، وثلثي هذه الاراضي القابلة للزراعة كانت اراضي بعلية (٧) وكان على الضفة الغربية ان تعيل سكانها البالغ عددهم حوالي ٤٠٠ الف نسمة ، وما يوازي هذا العدد تقريبا من اللاجئين ، في وقت فقد عدد لا يستهان به من القوى العاملة في الضفة الغربية

★ في العام ١٩٤٤ كان سكان القرى يمثلون ٦٦ ٪ من مجموع السكان العرب في فلسطين ٠

مجالات عمله في مدن الساحل الفلسطيني بعد قيام الكيان الصهيوني ٠ اما في قطاع غـزة ، فقد كان الوضع اقسى وامر ، حيث استقبل القطاع اكثـر من ضعـف عـدد سكانه الاصليين ، فبلغـت نسبة اللاجئين الى سكانـه الاصليين ٢٢٢٪ ٠ هذا في حين كان ٢٠ ٪ فقط من السكان الاصليين فـي القطاع يعملون في زراعة مساحة القطاع ، بينما كان هناك حوالي ٨٠٪ من سكان القطاع يزرعـون الاراضي الواقعـة ضمن الاراضي المحتلة او بمهـن تعتمد على انتاج الاراضي التي احتلت عـام ١٩٤٨ ٠ ولذلك وضع سكـان القطاع في السنوات التي اعقبت عام ١٩٤٨ لم يكن بأفضل من وضع اللاجئين «٨» ويذكر محمد علي خلوصي في كتابـه « التنمية الاقتصاديـة فـي غـزة (فلسطين) ١٩٤٨ ـ ١٩٦ . ص ٦٥ » ، ان كشوف طالبي الاعانات من السكان الاصليين بلغ ٧٠ر٠٠٠ في العـام ١٩٤٩ ، ولم ينخفض هذا الرقم الـى ٣٥ر٠٠٠ الا في العـام ١٩٦٠ ٠

لقد نجم عـن هذا الوضع ازدياد العاطلين عـن العـمل ، وانخفـاض نسبة الاجور ، وهجرة اعـداد كبيرة من القوى العاملة للعـمل في اقطـار البترول العربية (٩) مما ادى الى احداث خلل كبيرة في البنية الاقتصاديـة ـ الاجتماعيـة للمجتمع العربي الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠

٢ ـ سياسات الالحاق السياسي العربية

حال الحاق الضفة الغربية الى النظام الهاشمي ، ووضع قطاع غـزة تحت الادارة المصرية ، دون تمكن الشعـب الفلسطيني من اعـادة بناء وحدتـه السياسية وبنيانه الاقتصادي الاجتماعي على ارض وطنه ٠ ولـو قـام نظام وطني ديمقراطي عـلى ما تبقى غـير محتل من الارض الفلسطينيـة ، لكان بالامكان ايجاد حلول ثورية للمشاكل الاقتصادية والاجتماعيـة التـي نجمت عـن اقتلاع الشعـب الفلسطيني من ارضه وتفتيت بنيته الاقتصاديـة ـ الاجتماعية ، وذلك باتباع سياسة تنمية اقتصادية مكثفة لاستيعـاب القـوى البشرية العـاملة من الشعـب الفلسطيني عـلى ارضها ٠ لقد عـمل النظـام الهاشمي على تكريس عملية التفتيت هذه ، فشرع القوانين التي تمنع قيام مؤسسات اقتصادية كبيرة في الضفة الغربية ، وحرمها من مشاريع التطوير الزراعي،واتبع سياسة تقوم عـى تهجير اكبر عـدد ممكن من القوى البشرية العـاملة الـى خـارج الضفة الغربية ،وذلك خدمة للسياسات الصهيونية والاسبريالية فـي العـمل عـلى تبديد الشخصية الوطنية للشعـب الفلسطيني ، وتذويب الشعب الفلسطيني في الكيانات العربية ٠ وفي قطاع غزة ، لم تقم الادارة المصريـة باية مشاريع اقتصادية انتاجية ذات قيمة لتخفيف عـبء البطالة الكبيرة التي كانت متفشية بين سكان القطاع مما زاد من هجرة القوى البشرية العـاملـة

خـارج القطاع ٠

لقد كانت القيادة الوطنية الفلسطينية بعـد العـام ١٩٤٨ مشتتة ومبعثرة، وعاجزة عـن القيام باي دور وطني بارز ، فقسم منهـا سار وراء سياسـات الالحاق السياسي العربية فارتهن للسياسة الاردنية او المصرية ، وقسم منهـا استمر عـلى هامش الحياة السياسية وارتضى حياة المنفى بدون اي فعـل٠ وقسم اخـر اهتم بمصالحـه الاقتصادية ، فعـمل عـلى تنمية ثروات ومصالـح اقتصادية له فـي اقطار اللجوء العربية ٠ وفي ظل غياب قيادة وطنيـة للشعب الفلسطيني ، سارت سياسات الالحاق ومحاولات تبديد الهـوية الوطنيـة الخاصة للشعـب الفلسطيني . دون ان يرتفع صوت في وجهها ، حتى كانـت الثورة الفلسطينية في العـام ١٩٦٥ ، التي اعـادت صياغـة هذه الشخصيـة الوطنية من خـلال النضال ٠

التوزيـع الجغرافي

اضافة الى الاقتلاع والتشريد وسياسات الالحاق ، فان التوزيع الجغرافي للشعب الـفلسطيني على اكثر من بلد وفي اكثر من مكان ،ساهم الى حـد كبير في تفتيت البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للمجتمع العربي الفلسطيني ٠ فالمجتمع العربي الفلسطيني لم ينتقل فقط منوضع انتاجي يسيطر فيه عـلى ادوات انتاجه الى وضع لا يملك فيه السيطرة عـلى شيء بل واجه ايضـا محاولات تقسيمه الى عـدة مجتمعـات عـلى عـدد التجمعـات الفلسطينية في الاقطار العربية ،وهي تجمعـات خضعـت لتأثيرات سياسية واقتصاديـة واجتماعية متباينة نجمت عن التباين في اوضاع اقطار اللجوء العربية ، وعـن التباين في سياسات هذه الاقطار ازاء العرب الفلسطينيين المقيمين علـى ارضها ٠ ولولا توفر ظروف موضوعية وذاتية ، كانت تدفع باتجاه مواجهـة هذه المحاولات واحباطها ، لفقد المجتمع العربي الفلسطيني ما تبقى لـه من وحدته كمجتمع ، وهي وحـدة نماها وغذاها **نضال الجماهير الفلسطينيـة** من اجل العـودة الى وطنهم وشعورهم بالاغتراب الاجتماعـي في المجتمعـات العربية التي وجدوا وسطها ٠ كذلك فهـي وحـدة نماها وغذاها وجـود **المخيم الفلسطيني كوحدة اجتماعية ـ سياسية** ، حافظت عـلى شكل مـن اشكال التماسك الاجتماعي للشعب الفلسطيني ٠ وعلى ارضية هذا التماسك الاجتماعي ، احبطت الجماهير العربية الفلسطينية مشاريع الاسكان والتوطين الاستعمارية لغالبية الشعب الفلسطيني في اقطار اللجوء العربية ٠

لقد كان التوزيع الجغرافي في نظر الصهيونية والامبريالية والرجعية

العربية ، مقدمة للقضاء على الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني ، واذابة تجمعاته الصغيرة في البلدان العربية عبر مشاريع للاسكان ، او عبر مشاريع للتطوير الاقتصادي ـ احيانا ـ في هذا القطر العربي او ذاك لدمج التجمعات الفلسطينية دمجا كليا في الحياة الاقتصادية للمجتمعات العربية التي وجدت وسطها · ولذا لم يكن صدفة اقامة المخيمات الفلسطينية في اقطار اللجوء العربية على مقربة من المدن وفي عدة امكنة متباعدة · ففي لبنان مثلا اقيمت اكبر المخيمات حول المدن الرئيسية في بيروت وطرابلس وصيدا وصور · وفي الاردن اقيم اكبر مخيمين حول مدينة عمان (الوحدات ومخيم الحسين) · وفي الضفة الغربية اقيم اكبر مخيم في عقبة جبر قرب اريحا ، وذلك تمهيدا لتوطين القسم الكبير من الفلسطينيين في منطقة الغور · ومحاولات الاذابة والدمج كانت تجد ارضا مؤاتية لها في السياسة التعليمية التي انتهجتها « الاونروا » ازاء الفلسطينيين · فالسياسة التعليمية « للاونروا » كانت تستهدف فقط تزويد الجيل الشاب من الفلسطينيين ببعض المعارف والعلوم التي تؤهله للقيام ببعض الاعمال العادية ـ تعليم ، اعمال ادارية وكتابية ، ومهن بسيطة ـ في اقطار البترول العربي ، وذلك امعانا في المزيد من التشتيت للشعب الفلسطيني ، والمزيد من التفتيت لبنيته الاقتصادية ـ الاجتماعية ·

المخيم كوحدة اجتماعية ـ سياسية

عاش اللاجئون الفلسطينيون في اقطار اللجوء العربية على شكلين ،فقسم منهم عاش وسط المدن والقرى التي لجأ اليها ، وكانت غالبية هذا القسم من سكان المدن والقرى في فلسطين · وقسم اخر ، كان في غالبيته من سكان القرى، عاش في مخيمات على اطراف المدن والقرى التي لجأ اليها · و « كان المخيم هو الوحدة الجغرافية ـ الاجتماعية الجديدة او الوسط الاجتماعي الفلسطيني الذي تشكل بعد العام ١٩٤٨ · فالمدن والقرى التي ذهب اليها اللاجئون لم تكن تمثل بيئة اجتماعية فلسطينية صرفة ، بل هي اوساط قائمة بذاتها ، دخل اليها الفلسطيني ليتكيف مع واقعها الاجتماعي والاقتصادي · اما المخيمات فكانت الوسط الاجتماعي الفلسطيني الذي تشكل لدى وجود اللاجئين فيه» · (١٠) والمخيم بهذا المعنى لم يكن وحدة اجتماعية ـ جغرافية معزولة كليا عن المجتمع المحيط به ، بل نجد ان اشكالا من التداخل مختلفة ومتباينة قامت بين المخيم كوحدة جغرافية ـ اجتماعية وبين المجتمع المحيط به ·مما اوجد نوعا من التاثيرات المتبادلة بين الطرفين · وهي تأثيرات كانت اقل بكثير من تلك التي تعرض لها اللاجئون الذين سكنوا المدن والقرى وسط تجمعات قائمة بذاتها · وبهذا شكل المخيم الاطار العام للعلاقات الاجتماعية لعدد كبير من الفلسطينيين · فحسب احصاءات « الاونروا » كانت نسبة من هم

في المخيمات الى مجموع اللاجئين المسجلين لديها اكثر من الثلث تقريبا · ففي العام ١٩٥٤ بلغ عدد سكان المخيمات من اللاجئين المسجلين لدى «الاونروا» ٣٠ ر٣٠٥ اي ما نسبته ٤ر٣٤٪ من المجموع ، وفي العام ١٩٦٢ ارتفعت النسبة الى ٩ر٣٨٪ (١١) وعلى الرغم من ان المخيمات الفلسطينية قامت في اكثر من بلد عربي وفي مناطق متباعدة عن بعضها ، فاننا نلاحظ وجودخصائص مميزة لمجتمع المخيم اينما كان · وهي خصائص تقيم شبها كبيرا بين اي مخيم فلسطيني واخر في اي بلد عربي · من هذه الخصائص : (١) ان سكان المخيمات في غالبيتهم من اصل قروي (٢) ان المخيم كوحدة اسكانية عبارة عن رقعة جغرافية ضيقة تضم سكانا من عدة قرى ، يقيمون عليها بشكل مكتظ في وحدات سكنية حقيرة ملاصقة لبعضها واوضاع صحية سيئة (٣) ان المخيم لا يشكل وحدة انتاجية ، فلا ارض حول المخيم يعتاش السكان من زراعتها ، ومجالات العمل وسط المخيم ضئيلة جدا ، لا تتعدى محلات البيع الصغيرة او بعض الورش الصغيرة ولذا لا يمكن وصف المخيم بالقرية او البلدة الصغيرة ، كما « لا يمكن اعتباره حيا فقيرا على غرار الاحياء الفقيرة حول المدن الكبيرة ، لان المخيم يعتبر خارج اطار المدينة ويجمع سكانه خصائص وطنية مما يجعلهم جماعة سكانية متمايزة شبيهة بالجماعات الاثنية في المدن » · (١٢) ولذا فالعلاقات الاجتماعية بين سكان المخيم ليست علاقات انتاج ، بل هي علاقات تقوم على التضامن الاجتماعي ـ السياسي اكثر مما تقوم على اي شيء آخر · (٤) لا يوجد بين سكان المخيم تمايزات اجتماعية حادة · فاغلبهم يكاد يتساوى في الفقر ، اما الميسورين نسبيا من موظفين وغيرهم ، فان التمايز بينهم وبين باقي الاهالي ليس صارخا ولا يصل ، بحكم طبيعة العلاقات ، الى التناقض الحاد ·

تولد عن هذه الخصائص نمطا من العلاقات الاجتماعية غير ثابت في البداية· فبانعدام علاقات الانتاج التي تحدد العلاقات الاجتماعية بين الناس ، لم يكن امام مجتمع المخيم حتى يحافظ على شيء من تماسكه الاجتماعي الا التمسك بعلاقات البلد الاصلي في فلسطين ، فسادت علاقات تقوم على اساس الترابط بين سكان القرية الواحدة كحد اعلى وبين الاقرباء من الحامولةاو العائلة الواحدة كحد ادنى · ولذا فان سكان القرية الواحدة اخذوا يسكنون حيا واحدا في المخيم كانوا يطلقون عليه اسم قريتهم · وضمن هذا الحي توزع الاقرباء في مساكن متقاربة للحفاظ على وحدة الحامولة او العائلة الواحدة كحد ادنى · ولذا فان سكان القرية الواحدة المخيمات ، قامت علاقات شبه عدائية بين سكان القرى المختلفة في المخيم الواحد ، واحيانا كانت تقوم مشاجرات بينهم لاتفه الاسباب ، وكان يتحزب افراد الحامولة الواحدة او القرية الواحدة ضد احدى الحامولات

او احدى القرى في هذه المشاجرات · وهذا دليل على استمرار نمط العلاقات شبه الاقطاعية التي كانت سائدة في القرية الفلسطينية · الا ان هذا النمط من العلاقات كان هشا ولا يقوم على اي اساس مادي ، فانهيار البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للمجتمع العربي الفلسطيني بعد النكبة ، لم يكن انهيارا ماديا فقط ، بل كان ايضا انهيارا اصاب البنى الفوقية للمجتمع باهتزاز كبير · وجعل من غير الممكن استمرار نمط علاقات القرية بكل قيمها وعاداتها مع انهيار الاساس المادي للمجتمع · كان التشبث بالعلاقات القديمة ، باطرها ، وقيمها وعاداتها ، نوعا من الحفاظ على الوجود الاجتماعي في البداية · لكن هذا التشبث بالتراخي مع نمو عوامل موضوعية جديدة فرضت تغييرا في العلاقات السائدة · ومن هذه العوامل ، الحاجة الاقتصادية ، التي فرضت على رب العائلة التخلي عن كثير من قيمه وعاداته وسلطته العائلية احيانا ، في سبيل تأمين حاجات الاسرة الاقتصادية · فالفتاة التي كانت تحرمها التقاليد من العمل ، اجبرتها الحاجة الاقتصادية على كسر حدود التقاليد والخروج الى العمل خارج البيت · وهو خروج سوف لا تقتصر تأثيراته على كسر حدود التقاليد في هذا المجال فقط ، بل وايضا مع ما يحمله هذا الخروج من نمو شخصية الفتاة داخل الاسرة وفي المجتمع نفسه ، باعتبارها اصبحت عضوا منتجا تعتمد عليها الاسرة في تأمين جانب من اسباب معيشتها · ومن هذه العوامل ايضا ، القضية الوطنية ، فسكان المخيمات الذين أتوا من اصول طبقية كادحة في معظمهم ، كانوا اكثر الناس معاناة وتأثرا بالاغتصاب الصهيوني لارضهم، ولذلك فانهم كانوا اكثر الناس اندفاعا وحماسا في النضال من اجل عودتهم · ولهذا فان القضية الوطنية ، او النضال من اجل استرداد فلسطين والعودة ، كان يشكل اطارا للعلاقات اوسع واعم واكثر ثباتا من اطار علاقات القرية او العلاقات العشائرية · ولم يكن من الممكن لهذا الاطار الجديد من العلاقات ان ينمو ويتكرس ويذيب في داخله اطار العلاقات القديمة ، الا مع نمو النضال الوطني ، وصيرورته جزءا هاما من الحياة اليومية للانسان الفلسطيني · ولذا فان اطار العلاقات ـ الوطني ، لم يتقدم على حساب العلاقات القديمة الا في اوائل الستينات من هذا القرن ، مع بداية النمو الثوري في المجتمع الفلسطيني، وطغيان الثورة على الحياة اليومية لمجتمع المخيم · وبذلك تحول المخيم الى وحدة اجتماعية ـ سياسية ، وليس مجرد وحدة جغرافية ـ اجتماعية وبهذه الصفة اكتسب المخيم تماسكه الاجتماعي ـ السياسي ، وحلفظ على وجوده باعتباره من اهم مرتكزات الثورة الفلسطينية بشريا واجتماعيا وسياسيا ·وهذا الوضع كان يطرح باستمرار امكانية احداث تغييرات اجتماعية واسعة ضمن مجتمع المخيم · ولو توفرت الرؤية الثورية ، وتوفر الجهد الثوري لامكن احداث مثل هذه التغييرات بشكل اوضح بكثير مما هي عليه الان ·

انعكست هذه التغييرات التي طرأت على بنية المجتمع العربي الفلسطيني على وضع المرأة في هذا المجتمع · ومن خلال استعراضنا السابق وجدنا أن ابرز هذه التغييرات كانت انهيار الاساس المادي للمجتمع ، أي الفقدان الكلي لوسائل الانتاج من ارض وغيرها · وهو انهيار رافقه بالضرورة ، اهتزاز كبير في البناء الفوقي للمجتمع مما فرض احداث تحول ليس بسيطا في العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع العربي الفلسطيني قبل النكبة ، بكل ما كانت تنطوي عليه هذه العلاقات من قيم وعادات وسلوكيات* · والتحولات في البناء الفوقي لا تتم عادة بنفس سرعة التحولات التي تجرى في البناء التحتي ـ الاساس المادي ـ للمجتمع ، بل تأتي بطيئة ·

وعلى الرغم من ان ما طرأ من تغيير على البناء التحتي للمجتمع العربي الفلسطيني كان فجائيا وصاعقا بفعل النكبة · فان التحولات في البناء الفوقي حافظت على وتيرة بطيئة من النمو ، حيث تداخلت عوامل اخرى الى جانب انهيار الاساس المادي ، تحكمت سلبا او ايجابا في نمو قيم وعادات وسلوكيات جديدة تتلاءم والتطورات الجديدة التي طرأت على المجتمع العربي الفلسطيني· من هذه العوامل : التداخل والاحتكاك بين التجمعات الفلسطينية في الاقطار العربية ومجتمعات هذه الاقطار · وهما تداخل واحتكاك لم يفرزا دائما نتائج تدفع بالاسراع في التحولات في البناء الفوقي · فبعض المجتمعات العربية كانت لا تزال تعيش اوضاعا متخلفة ، كانت تحد من قدرة المجتمع العربي الفلسطيني على الخروج من اطارات هذه المجتمعات وقيمها · في حين ان مجتمعات عربية اخرى ـ كالمجتمع اللبناني ـ كانت اكثر انفتاحا وتقبلا لما طرأ او يطرأ من تحولات

---

* عندما نشير الى انهيار الاساس المادي للمجتمع العربي الفلسطيني ، فاننا نعني بذلك غالبية الشعب الفلسطيني التي اجبرت على مغادرة ارضها · والتي عانت كثيرا من فقدانها الاساس المادي لوجودها الاجتماعي ·لقد بقي قسم من الشعب الفلسطيني مقيما على ارضه في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي فلسطين المحتلة·ولكن كما اوضحت فان هذا القسم على الرغم من احتفاظه باساسه المادي لوجوده ، فانه تأثر بموجة الهجرة الواسعة، كما انه تأثر بماطرأ من تحولات على غالبية الشعب الفلسطيني · ولذا فانه على الرغم من ان التعميم في حالة كهذه قد يكون خطأ فاننا نرى ان ما واجهه الشعب الفلسطيني بمجموعه يكاد يكون واحدا ، فكما عانى اللاجىء فقد عانى ايضا ساكن الضفة الغربية او قطاع غزة ، كما عانى ايضا العرب الفلسطينون داخل الارض المحتلة من التعسف الصهيوني ·

في البنية الفوقية للمجتمع العربي الفلسطيني · ومن هذه العوامل ايضا ، **العلاقات الاجتماعية التي فرضها المخيم كوحدة جغرافية ـ اجتماعية ، ثم كوحدة اجتماعية ـ سياسية** · فالمخيم كان اكثر حرصا في الحفاظ على علاقاته القديمة بكل قيمها وسلوكياتها · وكان يبدو ذلك اكثر ما يبدو في الموقف من المرأة · فالمرأة في المخيم ، حتى لو خرجت للعمل خارج البيت، فانه كان من الصعب عليها الخروج عن سيطرة العائلة ومراقبتها ،فكانت تخضع لسيطرة العائلة في كل شؤونها الخاصة او العامة · والعامل الثالث من هذه العوامل ، هو **العمل الثوري** ، فالنضال السياسي او العمل الثوري بشكل عام ، بما كان يفرضه من تكريس اطار للعلاقات الاجتماعية اوسع واشمل واعم من اطار العلاقات القديمة ، ساهم بشكل او باخر في الحد من سيطرة التقاليد والعادات القديمة · وانجذاب المرأة الفلسطينية الى حلبة الصراع الوطني والثوري، جعلها اكثر قدرة على كسر حدة التقاليد من حولها ، واكثر جرأة على مواجهة المجتمع بثقة اكبر في النفس وباستقلالية في الرأي ـ الى حد ما ـ ولكن لا بد هنا من الاشارة الى ان مساهمة العمل الثوري في اخراج المرأة من واقعها التلقيدي ، كانت تتاثر الى حد كبير بافق قيادات العمل الثوري غير الواضح من مسألة تحرير المرأة ، وبتخوف هذه القيادات ـ احيانا ـ من طرح هذه المسألة ، طرحا علميا وثوريا ·

كانت هذه العوامل الثلاث ، تؤثر بحدود من خلال العامل الاساسي وهو انهيار الاساس المادي للمجتمع · وهو انهيار القى بثقله على **الاسرة الفلسطينية** وفرض عليها تكيفا مع الوضع الجديد · فالفقدان الكلي لوسائل الانتاج احدث بالنسبة للاسرة الفلسطينية « وضعا اقتصاديا جديدا من التدهور والتردي اجبرها على القبول بالتغير والبحث عن وسائل انتاجية غير مشروطة بان يلعب رب الاسرة الدور الاساسي فيها · فالعامل الموسمي الذي كان يعيل اسرته في فلسطين اصبح بعد الهجرة عاطلا دائما عن العمل ، بحيث ادى هذا التوقف الى التطلع نحو الابناء من بنات وذكور كي يساهموا في انقاذ الاسرة من الجوع والفقر والمرض · ولقد ادى هذا بدوره الى تغيير في مستوى الادوار داخل الاسرة واصبح الابن كما اصبحت الابنة التي اخذت على عاتقها مسؤولية حماية الاسرة بما فيها رب الاسرة الاساسي من الفقر والجوع والمرض تمسك بزمام الدور الرئيسي (اقتصاديا) في الاسرة وتوجيهها ··· كما ادى فقدان الارض كوسيلة انتاجية كانت تجمع افراد الاسرة للعمل فيها من رجال ونساء واطفال » · ادى الى اجبار الاسرة على الحاق ابنائها بالمدارس التي باتت تشكل بالنسبة لها المخرج الوحيد للازمة الاقتصادية التي تعاني منها الاسرة · «١٣» لقد ادى كل ذلك

الى تكسير حدة التقاليد التي كانت تحيط بالمرأة سواء من ناحية السماح لها بالعمل في مجالات عمل لم تكن تسمح بها الاسرة سابقا ، او من ناحية فتح مجالات التعليم امامها ، لتكون اكثر تأهيلا وقدرة على القيام باعمال تدر دخلا اكبر ٠ ولذلك فاننا نلاحظ في هذه المرحلة ازدياد عدد الطالبات في مراحل التعليم المختلفة بشكل لا يقل كثيرا عن عدد الطلاب كما كان الحال قبل العام ٩٤٨ ١٠ وكانت نسبة التفاوت بين عدد الطالبات الى الطلاب تضيق سنة بعد سنة لتصل الى وضع متقارب في اواسط الستينات ٠ وهذا يدل على ازدياد اقبال الفتيات على التعليم ٠ في العام ١٩٥٤ بلغ عدد التلاميذ في مدارس «الاونروا » في غزة والاردن وسوريا ولبنان ٧٤٨ر٩٠ في المرحلة الابتدائية ، كان منه م٤٠١ر٣٠ اناث اي بنسبة ٥ر٣٣٪ من مجموع التلاميذ ٠ وفي المرحلتين الاعدادية والثانوية كان عدد التلاميذ ٣٨٤١ منهم ٢٣٩ من الاناث فقط اي بنسبة ٢٢ر٦ ٪ ، (١٤) وهذا التفاوت الكبير بين عدد التلاميذ الذكور الى عدد التلاميذ الاناث يعود الى عدم وجود فتيات مؤهلات لمرحلتي الدراسة الاعدادية والثانوية يوازي او يقارب عدد الطلاب، وهذا التفاوت اخذ يضيق في السنوات اللاحقة مع تخرج اعداد كبيرة من الفتيات اللواتي أنهين الدراسة الابتدائية واصبحن مؤهلات لاكمال دراستهن الاعدادية والثانوية ٠ ففي العام ١٩٦٣ بلغ عدد التلاميذ في مدارس الاونروا في كل من غزة وسوريا والاردن ولبنان ٩٣٢ر٣٠ تلميذ في المرحلتين الاعدادية والثانوية ، كان منهم ٣٧٦ر١١ اناث اي بنسبة ٧٧ر٣٦٪ وفي المرحلة الابتدائية كانت نسبة الفتيات الى مجموع التلاميذ ٨٥ر٤٤٪ حيث بلغ عدد التلاميذ ٣٠ر١١٧ تلميذ كان منهم ٤٩٣ر٥٢ من الاناث ٠(١٥)

وهذا يدل على ان الفتاة الفلسطينية قطعت شوطا كبيرا في الحصول على فرص متكافئة مع الرجل في مجالات التعليم ، ولم يعد الاهل يعارضون او يمانعون في سفر الفتاة الى بلد عربي اخر لاكمال تحصيلها العلمي في الكليات الجامعية ، بل على العكس من ذلك فقد كانت نسبة كبيرة من الاسر تشجع فتياتها على اكمال تحصيلهن العلمي ، لان الحصول على شهادة علمية اصبح هو المدخل للحصول على وظيفة ودخل جيد ٠ ولا شك ان وضعا كهذا يقلص من حدة اخضاع الفتاة لاسرتها ، ويكسبها نوعا من الاستقلالية في الرأي وفي العمل ٠ ولهذا فاننا نلاحظ في هذه المرحلة تزايد عدد الاناث العاملات في مجالات العمل المختلفة ولا سيما في اقطار البترول العربية التي كانت تمتص العدد الكبير من المتعلمين الفلسطينيين في مدارسها بشكل خاص ٠ ففي العام ١٩٦٥ كان يعمل في

الكويت ٢٢٥٨ فلسطينية معظمهن كن يعملن في التدريس وبلغت نسبة الفلسطينيات الى الفلسطينيين الموظفين في الكويت ٢٨ر٩١٪ في العام ١٩٦٦ ٠ (١٦) الا ان ما يجدر ذكره هنا ، ان معظم العاملات الفلسطينيات في اقطار البترول العربية كالسعودية والكويت ، كان في التدريس ، والغالبية منهن كن معلمات في مدارس ابتدائية * ، وهذا يدل على ان حاجة الاسرة الاقتصادية كانت تفرض على الفتاة العمل قبل اكمال دراستها الجامعية ٠

لقد نجم عن فتح مجالات التعليم والعمل امام المرأة الفلسطينية ، بعض التغيير في نمط العلاقات السائدة داخل الاسرة الفلسطينية ، ولكنه لم يكن تغييرا كبيرا الى حد يمكن القول ان انقلابا جذريا حدث في وضع المرأة الفلسطينية سواء داخل الاسرة او في المجتمع ٠ ان ما حدث كان بمثابة مؤشر على اهتزاز العلاقات القديمة وعدم قدرتها على استيعاب التطورات الجديدة ٠ وهو اهتزاز كان اكبر واوضح في الاسرة التي من اصل مديني عنها في الاسرة التي من اصل قروي ٠ كذلك فانه كان اوضح واكبر في التجمعات الفلسطينية التي تقيم خارج المخيمات منه في تلك التي كانت تعيش في المخيمات ٠ وهذا هو الذي يفسر لنا ما نلاحظه من استمرار للسلوكيات والعادات التقليدية لدى بعض الاسر الفلسطينيين ازاء المرأة بهذه الدرجة او تلك من الحدة او الصرامة ، ومن بداية تلاشي هذه السلوكيات والعادات لدى اسر اخرى ، بهذه الدرجة او تلك من المرونة ٠ ووجود ظواهر كهذه يدل على ان المجتمع العربي الفلسطيني يمر في مرحلة انتقالية ، ويؤكد ان الخروج من اطار العلاقات الاجتماعية القديمة ، وتحديدا فيما يتعلق بالمرأة ، امر يتطلب زمنا معقولا ويحتاج الى جهد ثوري ٠ولذا فان حصول

★ لا توجد احصاءات عن العاملين من الفلسطينيين في اقطار البترول العربية قبل العام ١٩٦٧ باستثناء الكويت ، وجميع الاحصاءات هي بعد هذه الفترة ٠ اضافة الى ذلك فان نسبة كبيرة من الفلسطينيين حاملي الجنسية الاردنية يصنفون هناك كاردنيين وليس كفلسطينيين ٠ ولذلك فاننا في ايرادنا لبعض الاحصاءات لاعتمادها كمؤشر ، سنأخذ العام ٦٨ ـ ٦٩ كاساس لهذا المؤشر ٠ وسنعتبر المصنفين كاردنيين ، فلسطينيين ٠ في العام الدراسي ٦٨ ـ ٦٩ بلغ عدد المدرسين « اردنيين وفلسطينيين » في السعودية ٨٣٣٠، كان من بينهم ٢٥٩٠ من الاناث ، منهن ٢٤٦٨ كن يدرسن في مدارس ابتدائية ٠ وكان يدرس في الجامعات السعودية ٤٤ كان منهم ٢ من الاناث ٠ وفي البحرين كان يوجد في العام الدراسي ٦٨ ـ ٦٩ ٣٠٠ مدرسا كان منهم ١٢١ من الاناث ٠ وفي ابو ظبي كان يوجد ١٨٧ مدرسا كان منهم ٧٧ من الاناث ٠ وفي قطر بلغ عدد المدرسين « فلسطينيين واردنيين » في العام الدراسي ٦٧ ـ ٦٨ ، ٣٦١ مدرسا و ٢٤٩ مدرسة ٠

ـ جميع هذه الاحصاءات مأخوذة عن احصاءات فلسطينية ص ٢٢٩ و ٢٧٤ و ٢٨١ و ٢٧٨ ٠

الفتاة على قسط من التلعيم ودخولها معترك الحياة كعضو منتـــج . لـــم يخلصاها بشكل كامل من سطوة المجتمع بقيمه وتقاليـــده السلفيه ولكـــن بهمـا ومن خـلالهمـا شقت المرأة الفلسطينية بدايات جيدة ، للتحرر مـــن بعض اشكال اضطهادها · وهو تحرر لم يكتسب صفة شمولية بعـد ، ولا يزال محصورا في اطار النسوة المتعلمات او اللواتي يعملن ، في حين ان جمهـــرة النساء لا تزال تعيش تحت سيطرة اشكال من الاضطهاد اقسى من تلك التـــي تواجهها المرأة المتعلمة او العـاملة · وهذا يعـني ، انه عـلى الرغـم مـن المعطيات الجديدة التي طرأت على بنية المجتمع العربي الفلسطيني بعد النكبـة ، والتي كانت تدفـع في الاسراع بوتيرة التحولات في البنية الفوقية له باتجـاه ثوري ، فأن المجتمع العربي الفلسطيني لا يزال يزخر باشكال وظواهـر عديـدة عن استلاب المرأة وقسرها في بوتقة النظرة التقليدية للرجـــل ·

نشاطات المرأة الثورية

شاركت المرأة الفلسطينية في مختلف النشاطات الثورية في هذه المرحلـــة ، عبر اشكال من النضال مختلفة ومتفاوتة · وعـلى الرغـم من ان اشتـــراك النساء في النشاطات الثورية في هـذه المرحلة ، كان ارقى واعـــم ، ممـا كان عـليه اشتراكهن في المرحلة السابقة ، فان مدى مشاركتهن لم يكن بمستوى ما طرأ عـلى المجتمع العربي الفلسطيني من تغييرات وتطورات ، ولم يبلـغ تلك الدرجة التي تجعـل من مسألة اشتراك المرأة في العـمل الثوري مسألـة عـادية ، او مسألة لا تثير استغـراب المجتمع المحيط بهـا ، سواء كـــان استغراب الاعجاب بنشاطها الثوري او استغراب الاستهجان به والنفـــور منه · فالمرأة المناضلة والتي تساهـم بفعـالية في النشاطات الثورية كانـت لما تزل حالة طلائعية ومحصورة الى حـد كبير بين النسوة اللواتي نلن قسطا لا بأس به من التعليم والثقافة ، او بيـــن النسوة اللواتي كـــن يعشـــن في عائلات يغـلب عـليها الجو الوطني ويغـلب عـلى معـظم افرادها التعاطـي بالعـمل السياسي الوطني والثـوري · اما المرأة العـاملة في مصنـــع او القروية او المقيمة في مخيم ، وربة المنزل ، والى حـد ما . المتزوجة ، فقـد ظلـت بعـيدة عـن التعـاطي بالعـمل السياسي او الاشتراك في النشاطـات الثورية ولو فـي حدودها الدنيا ، باستثناء فترات المد الوطني التي كانـت تجرف اوسع الجماهير الى حلبة الصراع الثوري · ففي هـذه الفترات ،التي كانت عبارة عـن هبات جماهيرية ، كانت الجماهير النسائية تشارك ـ بحدود ـ في النشاط الثوري ، ولا سيما بالتظاهرات ، التي كانت تضم المرأة ـ الام وربة المنزل ، جنبا الى جنب مع المرأة المتعلمة أو الحزبية ومع الطالبـــة · **وكانت التظاهرات في كثير من الاحيان ، هي الشكل النضالي السائد وشبـــه**

الوحيد الذي كان يتيح اشتراك اوسع الجماهير النسائية في النشاط الوطني والثوري · ونقول بكل اسف . ان هذا الاشتراك الواسع للجماهير النسائية في النشاط الثوري عبر التظاهرات ، والذي كان يدل على وجود رغبة لدى النساء للاشتراك بفعالية في النشاط الوطني او الثوري ، لم يكن يجري تطويره او الاستفادة منه في اشراك عدد اكبر من النسوة في اشكال نضالية اخرى · ولذا فان مثل هذا الاشتراك الواسع لم يكن ليتجاوز حالة الطفرة التي كانت تهب مع حالات المد الوطني لتغيب غيابا شبه كلي مع حالات الجزر الوطني وسيادة اجواء الارهاب والقمع · وسيادة مثل هذه الظواهر في النضالات السياسية للمرأة لم يكن سببه المرأة كما يقول بذلك الكثرة من الرجال الذين لا يرون في اشتراك المرأة في العمل الثوري ، الا سعيا من المرأة للبروز واستعراض نفسها امام الرجال ، بل يعود الى الرجل نفسه الذي لا يزال يرى في المرأة مجرد تلك « الحرمة » او «الولية » التي تقع عليها مسؤولية الحفاظ على شرف العائلة · وهو لذلك يخاف عليها ، لانه يخاف أن يلوث شرف العائلة اذا تعرضت للاعتقال او الاختلاط بالرجال من جراء نشاطها الثوري · لقد كانت النساء بشكل عام ، يبدين اندفاعا نحو العمل الوطني او الثوري اذا اتيحت لهن الفرصة ، وما كن ليتقاعسن· واللواتي اتيحت لهن الفرصة ابدين مقدرة وكفاءة لا تقل عن مقدرة وكفاءة اي من المناضلين من الرجال · فهذه رجاء ابو عماشه التي كانت تقود التظاهرات ضد حلف بغداد وسقطت شهيدة في القدس · وهذه ناديا السلطي التي اشتركت في نسف مبنى مجلس الاعمار الاردني في عمان في العام ١٩٥٨ وتعرضت للاعتقال ولابشع انواع التعذيب ، ولم يمنع كونها امرأة من انتعتقل وتعذب · وكثيرات تعرضن للاعتقال والتعذيب في الاردن في اواخر الخمسينات والنصف الاول من الستينات ، منهن سعاد هريش ونهيل عويضه ووداد قمري، اللواتي اعتقلن في الاردن في العام ١٩٦٦ لنشاطهن السياسي وانتمائهن الى حزب سياسي ·

فالمرأة اذن عندما تتاح لها الفرصة لا تتوانى ولا تتقاعس عن تأدية واجبها الوطني ، ولكن ما يحول دون اشتراك المرأة الواسع في النضال هو المجتمع بقيمه وتقاليده · المجتمع الذي قد يعجب في بعض الاحيان ، بصورة المرأة الناضلة والثائرة ويرى فيها مجالا للفخر والاعتزاز ، ولكنه لا يستسيغ ولا يقبل تحمل ما يفرضه وجود امرأة كهذه من تغيير في انماط السلوك ازاءها وفي انماط التعامل معها ، بما يتيح لها انماء شخصيتها المستقلة واكتساب ثقتها بنفسها · بل نجد على العكس من ذلك ، ان المجتمع كان يفرض حدودا وضوابط للتعامل مع المرأة المناضلة

والثائرة ، لا تختلف عن تلك الحدود او الضوابط التي يفرضها على المرأة القابعة في البيت ، والتي لم تكتشف شخصيتها وكيانها من خلال انغماسها النضال او من خلال احتكاكها المباشر بالمجتمع الواسع من حولها · ولذلك فان مجتمعا كهذا كان يحاسب المرأة المناضلة بقسوة على اي خطأ قد تقع فيه بحكم ما يفرضه الاحتكاك والاختلاط بالمجتمع من تصادم مع المشكلات الاجتماعية ، وهو تصادم لا يخلو بالضرورة من الوقوع في بعض الاخطاء ، ومن سلوكيات لا تتوافق مع السلوكيات السائدة ازاء امور كثيرة ·

لقد تأثرت المرأة الفلسطينية بنكبة ١٩٤٨ وعاشت هول النكبة وعمق المأساة · عاشت هول النكبة عندما فقدت الارض والبيت ، فكانت تشعر بالانتماء الى الوطن كأي رجل ، كانت تدرك انه لا بد من النضال لاستعادة هذا الوطن ، وهو نضال يفرض عليها تبعات ومسؤوليات · وهذا الادراك تمثل في اكثر من صورة نضالية ، منها ، **صورة المرأة ـ الام** ، التي كانت تربي اطفالها وتربي معهم الشعور بالانتماء الى الوطن والقضية · صورة المرأة ـ الام التي كانت تتجاوز امومتها وشعورها كأم ، عندما كان يعتقل او يستشهد ابنها من اجل القضية · وكثيرات هن الامهات اللواتي كن يستقبلن نبأ استشهاد ابنهن في معركة مع العدو الصهيوني او خلال تظاهرة وطنية بالزغاريد · صحيح أن الام والزوجة والاخت كن في حالات عديدة عامل شد الى الوراء بالنسبة الى الرجل ، يذكرنه دائما بمسؤولياته العائلية ويطلبن منه التخفيف او الحد من نشاطه الوطني والثوري لانه « رجل العائلة » ومعيلها · ولكنه صحيح ايضا ،ان موقف الام او الزوجة او الاخت هذا ، لم يكن الا وليد كون الرجل هو المسؤول الى حد كبير عن اعالة العائلة ، ولذا فان هذا الموقف اخذ بالتراجع مع وجود اكثر من مصدر رزق واحد للعائلة الواحدة عندما اخذت الزوجة او الاخت ، والام ـ احيانا ـ تعمل · كذلك فان هذا الموقف كان يضيق تأثيره ويتراجع كثيرا اثناء فترات المد الوطني ·

كان المجتمع بقيمه وتقاليده السلفية عاملا من اهم العوامل التي انتصبت امام المرأة وحالت دون اشتراكها بفعالية في النضال من اجل قضيتها الوطنية ، وكانت المرأة المناضلة تعاني من جراء ذلك الكثير ، فكثيرا ما كانت تقع فريسة الصراع بين الالتزام بواجبها الوطني وما يفرضه هذا الالتزام من تطور في شخصيتها وعلاقاتها مع العائلة والمجتمع ، وبين الالتزام بقيود العائلة والضوابط التي تفرضها حول المرأة ·

اضافة الى عامل المجتمع كعامل معرقل لاشتراك المرأة في النشاطات الثورية بفعالية ، برزت عوامل اخرى ضاعفت من التاثيرات السلبية لهذا العامل. ومن هذه العوامل :

١) **التوزيع الجغرافي للشعب الفلسطيني** : وضع التوزيع الجغرافي للشعب الفلسطيني ، التجمعات العربية الفلسطينية في اقطار اللجوء العربية وسط مجتمعات عربية مختلفة ومتفاوتة في تطورها الاقتصادي والاجتماعي ، مما خلق تفاوتا واختلافا في دور هذه التجمعات في العملية الثورية في كل مجتمع ، وذلك على ضوء التحديات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تواجهها هذه التجمعات في الاقطار التي لجأت اليها ، وعلى ضوء الوضع السياسي والحقوقي لهذه التجمعات في كل قطر وجدت فيه . فالفلسطينيون في الاردن والذين كانوا يمثلون النسبة الاكبر من سكانه اعتبروا رعايا اردنيين وجنسوا بالجنسية الاردنية ، وكانوا في مركز التأثير حضاريا في حياة السكان من اصل شرق ـ اردني بحكم التفاوت الحضاري بين المجتمعين الفلسطيني والشرق ـ الاردني . ولقد وجد الفلسطينيون في الاردن انفسهم في مواجهة نظام فاشي قمعي ، كان له دور كبير في العمل ضد القضية الوطنية الفلسطينية ، فناضلوا ضد النظام الهاشمي ومن اجل قضيتهم الوطنية والقضايا القومية الاخرى ، وشكلوا الجسم الاكبر من الحركة الوطنية في الاردن . لقد كانت الساحة الاردنية ساحة نضال ونشاط ثوري جذبت اوسع الجماهير هناك الى حلبة الصراع الثوري . والمرأة الفلسطينية في الاردن لم تكن بعيدة عن هذا الواقع ، بل اشتركت في النضال باشكاله المختلفة وكانت لها مساهمات قيمة في هذا المضمار ولهذا فقد كانت تجربتها السياسية في الاردن انضج واوضح من تجربتها في اي قطر عربي اخر . اضافة الى ان اللواتي استقطبهن العمل الثوري في الاردن كان اكبر منه في اي قطر عربي اخر . وهذا الاستقطاب لم يبق في حدود التأثيرات الكمية ، بل اوجد تغييرا نوعيا في وضع المرأةالفلسطينية هناك ، واوجد نوعيات جيدة لنساء مناضلات ساهمن بفعالية في الثورة الفلسطينية في المرحلة اللاحقة .

اما في قطاع غزة ، فلم تواجه المرأة الفلسطينية التحديات نفسها التي واجهتها المرأة الفلسطينية في الاردن بحكم اختلاف مهمات الحركة الوطنية الفلسطينية هناك عن مهمات الحركة الوطنية في الاردن . فكان مدى اشتراك المرأة هناك في النشاطات الثورية ضئيلا ، واحيانا كان مقتصرا على الجمعيات النسائية الخيرية ذات الافق البورجوازي . وفي اقطار اللجوء

العربية في سوريا وفي لبنان مثلا شاركت المرأة الفلسطينية في النشاطات الثورية عبر الاحزاب والتنظيمات السياسية التي كانت موجودة في هذه الاقطار ، وشاركت في الهبات الجماهيرية ضد الاحلاف الاستعمارية وسياسات التوطين والاسكان للاجئين الفلسطينيين · ولكن هذه المشاركة لم تكن بالمستوى الذي كانت عليه المرأة الفلسطينية في الاردن ·

نخلص من كل ذلك ، الى ان التوزيع الجغرافي على الرغم من انه لم يقض على الوحدة النضالية التي كانت تجمع كل الفلسطينيين اينما كانوا في النضال من اجل عودتهم الى وطنهم ، وما كان يفرضه هذا النضال من خوض نضالات على مستوى القطر نفسه احيانا ، على الرغم من ذلك، فان التوزيع الجغرافي لفرز مهمات نضالية متفاوتة ومختلفة للتجمعات الفلسطينية في هذا القطر او ذلك ، مما اوجد اختلافا وتفاوتا في درجة استقطاب المرأة الى هذا النضال وهما اختلاف وتفاوت لم يؤثرا فقط على وضع المرأة الفلسطينية في العملية الثورية في كل قطر ، بل اثرا ايضا والى درجة معقولة على نسبة انعتاق العدد الاوسع من النساء من نطاق بعض القيود الاجتماعية ·

٢) عدم جدية الاحزاب والتنظيمات السياسية في طرح مسالة تحرير المرأة :

ان اهم ما يميز هذه المرحلة من النضال الوطني الفلسطيني هو غياب الشخصية الوطنية الفلسطينية كشخصية مميزة لها اداتها السياسية والتنظيمية المعبرة عنها · فسياسات التوزيع الجغرافي والالحاق السياسي للارض والشعب ، عملت على طمس الشخصية الوطنية الفلسطينية ،ولم يجر ابراز هذه الشخصية الا في اوائل الستينات وتحديدا مع بداية الثورة الفلسطينية في العام ١٩٦٥· وغياب الشخصية الوطنية الفلسطينية حال دون قيام اية تنظيمات فلسطينية تخبر عن المهمات النضالية المحددة لحركة الوطنية الفلسطينية ، ولهذا فقد ناضل الفلسطينيون في الاقطار العربية من خلال الاحزاب القومية او الشيوعية التي كانت قائمة في هذه الاقطار · ومن ابرز هذه الاحزاب ، حزب البعث ، حركة القوميين العرب ، والاحزاب الشيوعية العربية عامة والحزب الشيوعي الاردني خاصة ·

وعلى الرغم من تفاوت هذه الاحزاب في نظرتها لمسالة تحرير المرأة ، فانها جميعها لم تعط هذه المسالة اهمية ملحوظة ، وكانت محاولاتها في هذا المجال ، لا تتعدى العمل على ضم بعض النسوة الى الحزب او الحديث العام عن ضرورة مساواة الرجل والمرأة · ولم يطرح اي حزب منها

برنامجا محددا لمسألة تحرير المرأة ، كما لم يطرح اي منها حتى في برامجه العامة مطالب نسوية محددة باستثناء بعض الاشارات العامة وغير المحددة التي كانت ترد احيانا في بعض البرامج * وحتى هذه الاشارات العامة كانت تظل حبرا على ورق ولا تجد طريقها الى التنفيذ على صعيد عملي.

فالحزب الشيوعي الاردني مثلا ،والمفروض فيه ان يقدم النموذج الافضل في هذا المجال ، لم يكن وضع المرأة داخله ومجمل مواقفه المعلنة والعملية من المرأة لتختلف كثيرا عن اي حزب قومي بورجوازي اخر . فالحزب كان يخشى او يتخوف من طرح مسألة تحرير المرأة على مستوى واسع مراعاة للتقاليد وخوفا من ان يفقد قاعدته الشعبية ظنا منه ان طرح مسألة تحرير المرأة سيلاقي معارضة شديدة من ارسع الجماهير . ولهذا كان الحزب يبالغ في مراعاة التقاليد وكان يفرض على اعضائه من النسوة تجنب تحدي قيم المجتمع وتقاليده ، وكان يحثهن على أن يراعين في مسلكهن ومظهرهن المستوى العام للفئات الشعبية التي يعملن في اوساطها . ومن هذا المنظار ، فقد كان للنساء في الحزب خلاياهن الحزبية الخاصة واجتماعاتهن الحزبية الخاصة « ولم يكن هنالك اي خلايا حزبية مختلطة الا في حالات نادرة جدا . ونتيجة لذلك فقد اقتصرت مهمة المرأة الحزبية على القيام بالدور التحريضي الذي يمارسه مجموع الاعضاء ، كتسيير التظاهرات ، وتوقيع العرائض ،وطباعة المنشورات والصاقها على الجدران . (١٧) أو القيام بمهمات ضباط الاتصال لايصال الرسائل والمنشورات من مكان لاخر . فقد ظل تنظيم الفتيات في الحزب مقتصرا على الطالبات وبعض النسوة المرتبطات بعلاقة قرابة او زواج باعضاء من الحزب . ونتيجة لهذا الواقع ، فانه طيلة تاريخ الحزب الشيوعي الاردني لم تصل الا امرأة واحدة الى مرتبة عضو لجنة مركزية في الحزب » (١٨)

وبالنسبة **لحزب البعث** ،لم تكن الصورة لتختلف كثيرا . فالمرأة دخلت الحزب من منطلق وطني عام ، باندفاعات ذاتية او نتيجة لعلاقة قرابة او زواج من بعض كوادر واعضاء الحزب . ولم يكن هناك وجود لاي خلايا مختلطة ، وغالبية الفتيات المنتميات الى الحزب كن من المثقفات والطالبات ، وعضويتهن في الحزب لم تكن مستقرة ، فكانت الغالبية منهن تتساقط من الحزب بعد الزواج . ومجالات نشاط المرأة في الحزب لم تكن تتعدى النشاطات

---

* مثال على ذلك ما ورد في البيان الصادر عن المؤتمر القومي السادس لحزب البعث العربي الاشتراكي والمنعقد في العام ١٩٦٣ حيث جاء فيه حول المرأة « ان تحرير المرأة يقع في رأس مهمات الثورة القومية الاشتراكية ، وان بناء مجتمع عصري ديموقراطي متحرر لا يمكن ان يكون تاما وسليما الا اذا واجه قضية تحرير المرأة مواجهة مبدئية وشاملة » .

التحريضية ، والاشتراك في التظاهرات وتوزيع المنشورات وايصال الرسائل ٠

وفي **حركة القوميين العرب** كانت الصورة مشابهة لما عليه في حزب البعث ٠ فالتنظيم النسائي في الحركة كان من الطالبات والمثقفات ،وارتباطهن بالحركة كان نتيجة علاقة قرابة او زواج من بعض اعضاء الحركة ، ولم يكن يوجد اي خلايا مختلطة ٠ فالتنظيم النسائي كان تنظيما قائما بذاته له خلاياه الخاصة واجتماعاته الخاصة ، والمسؤول عنه ليس امرأة بالضرورة ٠ واعلى مرتبة تنظيمية وصلت اليها امرأة في الحركة كانت عضو شعبة اي عضو لجنة منطقة ، حيث وصلت امرأة في مدينة نابلس الى عضو لجنة منطقة في العام ١٩٦٥ ولم تتكرر هذه الظاهرة في اي مدينة اخرى ٠ اما مجالات نشاطات المرأة في الحركة فكانت هي نفسها مجالات نشاطات المرأةفي حزب البعث باستثناء بعض الحالات النادرة جدا ، حيث قامت بعض النساء في الحركة بمهمات وضع متفجرات في بعض الاماكن في الاردن وبمهمات نقل سلاح واخفائه ٠

تعددت **اشكال النشاط الوطني والثوري للمرأة** الفلسطينية في هذه المرحلة بتعدد المهام النضالية امامها وباختلاف الوضع الطبقي للنشيطات من النساء٠ ويمكن اجمال هذه النشاطات بالاتي :

١ ـ **تشكيل الجمعيات والنوادي النسائية :** وهي جمعيات ونواد كانت تقوم بنشاطات اجتماعية لتقديم بعض الخدمات للاسر الفلسطينية التي شردتها النكبة ٠ ولم يكن لهذه الجمعيات والنوادي اية نشاطات سياسية محددة، وكان معظم القائمين عليها من النساء البورجوازيات ٠ ولذلك فان هذه الجمخيات كانت لا تتعدى كونها جمعيات خيرية ، لم تمارس اي نشاط فيما يتعلق بمسألة تحرير المرأة باستثناء القلة القليلة منها والتي اخذت في تجاوز االطابع الخيري او الاجتماعي لعملها ٠ من هذه الجمعيات :

١ ـ دار الطفل العربي ـ القدس ـ اسستها هند الحسيني للعناية باطفال شهداء دير ياسين ٠

٢ ـ دار اليتيم ٠

٣ ـ دار رعاية الاحداث اسستها ليندا ناصر ٠

٤ ـ جمعية المرأة العربية ٠

٥ ـ نادي الشابات العربيات ٠

٦ ـ جمعية المناضل الجريح ـ غزة ٠

٧ ـ جمعية تأمين العمل للاجيء الفلسطيني ـ دمشق (١٩) ٠

٨ ـ جمعية انعاش الاسرة ـ البيرة ـ تأسست في العام ١٩٦٥ باشراف عدد من النشيطات من النساء الفلسطينيات في الاردن ٠ ولم تقتصر مهماتها على المهمات الاجتماعية والخيرية فقط ، بل عمدت الى تأسيس مشاغل خياطة وتريكو لتدريب الفتيات وايجاد مجالات عمل لهن وقامت بنشاط ملحوظ لمحو الامية بين النساء ٠ كما كانت تقوم بتقديم مساعدات للطلبة لاكمال دراستهم ٠ لقد تضاعفت مهمات هذه الجمعية ونشاطاتها بعد العام ١٩٦٩ بشكل اساسي ٠ *

ب ـ **العمل النقابي النسوي :** توزيع الشعب الفلسطيني ومحاولة طمس شخصيته الوطنية بعد نكبة العام ١٩٤٨ ، كان لهما الاثر الاكبر في عدم قيام مؤسسات نقابية فلسطينية خاصة ٠ ولذا فانه الى ما قبل نشوء منظمة التحرير الفلسطينية في العام ١٩٦٤ ، تعثرت كل المحاولات التي كانت تقوم بها نساء فلسطينيات لانشاء اتحاد نسوي فلسطيني ٠ حيث ان النظام الاردني كان يمنع قيام اي اتحاد او مؤسسة نقابية باسم فلسطيني ، معتبرا ان الفلسطينيين في الاردن رعايا اردنيون كما ان الدول العربية الاخرى لم تكن تشجع قيام مثل هذه المؤسسات ٠

ولكن مع الاعلان عن قيام منظمة التحرير الفلسطينية ، بدأت تظهر الى الوجود اتحادات ومؤسسات نقابية فلسطينية ٠ فجرى في العام ١٩٦٥ عقد مؤتمر نسائي فلسطيني في القدس برعاية منظمة التحرير الفلسطينية انبثق عنه الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية باعتباره تنظيما شعبيا نسائيا فلسطينيا مهمته تنظيم وتعبئة المرأة الفلسطينية وتوحيد طاقاتها لخدمة المعركة ٠ *

ج ـ **الانخراط في العمل الحزبي** : التحقت المرأة الفلسطينية بالاحزاب العربية من بعث وحركة قوميين عرب واحزاب شيوعية من اجل الدفاع عن

---

* انظر عرضنا التفصيلي عن هذه الجمعية ونشاطاتها في الفصل الخاص بهذا الكتاب عن المؤسسات النسوية الفلسطينية ٠

★★ عقد هذا المؤتمر في القدس في الفترة بين ١٥ ـ ٢١ تموز ١٩٦٥ بحضور « ١٣٩ » مندوبة يمثلن جميع قطاعات العمل النسائي الفلسطيني ٠

قضيتها الوطنية · ولكن كما اشرنا ، فان نسبة من استقطبتهن هذه الاحزاب كانت قليلة جدا ، وكن في غالبيتهن اما طالبات او نساء مثقفات · اضافة الى ان غالبيتهن كن من اوساط بورجوازية · ولذلك فان تجربة المرأة الفلسطينية في الاحزاب العربية لم تقدم لها الشيء الكثير ، ولم تساهم كثيرا في تقدم مسألة تحررها · والنتيجة المهمة لانخراط المرأة الفلسطينية في العمل الحزبي ، هو بناء عدد لا بأس به من الكوادر النسائية اللواتي لعبن دورا طلائعيا وقياديا في المرحلة التالية اي بعد العام ١٩٦٧ ·

اضافة الى هذه الاشكال من النشاط الوطني والثوري ، فأن المرأة لم تكن غائبة عن مسرح الاحداث مع نشوء منظمة التحرير الفلسطينية ، حيث اشتركت عشر نساء في المؤتمر الوطني الفلسطيني الاول الذي عقد في القدس في ايار ١٩٦٤ باعتبارهن ممثلات للقطاعات النسائية الفلسطينية، وبوحي منهن اتخذ المؤتمر قرارين بصدد المرأة : فقد نص احد قرارات المؤتمر على « العمل على محو الامية ورفعمستوى الاسرة الفلسطينية » كما نص احد القرارات العامة للمؤتمر على « اشتراك المرأة الفلسطينية العربية في جميع مجالات العمل التنظيمي والنضالي ومساواتها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات من اجل تحرير الوطن »(٢٠) · وعلى الرغم من أن هذه القرارات لم تكن تعبر تعبيرا كافيا عن طموحات المرأة الفلسطينية والتقدميين الفلسطينيين ، فجاءت عامة وينقصها الوضوح والتحديد ،فانها كانت تشكل بداية لا بأس بها ·

---

(١) يذكر نزيه قورة في كتابه « تعليم الفلسطينيين ـ الواقع والمشكلات » منشورات مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢١ ، ان سجلات الامم المتحدة تشير الى ان الفلسطينيين الذين هاجروا في العام ١٩٤٨ توزعوا في الاقطار العربية كالتالي ٨٣ر١٨٧ في سوريا ، ١٠٦ر٨٩٦ في لبنان ،٤٦٥ر٣٤١ في الاردن و ١٤٣ ر ٢٠٠ في غزة ، اضافة الى ٣٨٠ ر ٢٤ كانوا لاجئين في فلسطين المحتلة ·

(٢) انظر احصاءات فلسطينية ،اعداد الياس خوري ، منشورات مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١١ ·

(٣) الاونروا ، النشرة الاحصائية ، ايار ١٩٥٠ ـ حزيران ١٩٥١

(٤) المصدر نفسه ·

(٥) يوسف ، شحادة ، الواقع الفلسطيني والحركة النقابية ، منشورات مركز الابحاث الفلسطينية بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ·

(٦) المصدر نفسه ص ٢٨ ـ ٢٩ ·

(٧) قورة ، نزيه ص ٢٢ ·

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢١ ٠

(٩) يذكر نزيه قورة في كتابه « تعليم الفلسطينيين ـ الواقع والمشكلات ص ٢٣ » ان ١٧٦و٩٧٦ شخصا تركوا الضفة الغربية طوعا خلال سنوات ١٩٥٢ـ١٩٦١

(١٠) يوسف شحادة ٠٠٠ ص ١٧ ٠

(١١) احصاءات فلسطينية ٠٠٠ ص ٢٩٧ ب

(١٢) شحادة ، يوسف ٠٠٠ ص ٢٠

(١٣) الرملاوي ، نبيل ، المجتمع والاسرة الفلسطينية في ضوء التغيرات نحو المستقبل ، قضايا عربية العدد ٣ ـ ٤ ١٩٧٥ ص ٨٨ و ٨٩

(١٤) احصاءات فلسطينية ص ٣٧٢

(١٥) المصدر نفسه ص ٣٣٤

(١٦) المصدر نفسه ص ٢٤٩

(١٧) انظر : مقدمات حول واقع المرأة وتجربتها في الثورة الفلسطينية ، ص ٥٤ ٠

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٥٥ ٠

(١٩) المصدر نفسه ص ٠ ٥٢ ٠

(٢٠) أنظر قرارات المجلس الوطني الفلسطيني ، أعداد : : راشد حميد ، منشورات مركز الابحاث الفلسطينية ٠ بيروت ١٩٧٥ ٠ ص ٠ ٤٤ ـ ٤٥ ٠

مدينة الرواج ومخاض الحرب الأهلية

رئيف كرم

١ ـ بيروت واشكالية الرواج في الحرب الاهلية

المدينة حيز تريده المؤسسات السائدة امتدادا ماديا يؤكد سيطرتها. سياستان متكاملتان تحكمان التخطيط المديني :

ـ تثبيت امتلاك الحيز المديني من قبل النظام ودورته عبر تشكله المادي ومقاومة هذا التشكل ـ مقاومة الاسمنت والحديد ـ لكل ما يطرأ عليه ويهدده في عملية نمو التناقضات الداخلية ـ

ـ استيعاب الناس في هذا التشكل ودفعهم للانخراط في زمن توقعه دورة النظام الثنائية ، الانتاج / الاستهلاك

بيروت ، عصب الكيان / النظام الوسيط (١) وحيز تكثيف دورة الرواج(٢). تمركز الخدمات / الكثافة السكانية ـ مدينة بنتها طفرة الذكاء المركنتيلية : سفينة تجارية رست عند اسفل الجبل ـ قاعدة الكيان الوسيط ـ مقدمتها وتشتد لمة بيروت « بالجبل » عبر سيطرة العصبية الكيانية على بيروت وتسويقه . مؤخرتها ابواب مشرعة على الداخل / دائرة الوساطة ـ الريف ، المنطقة الغربية ـ يشدها اليه تبعيته وحاجته . بنيتها الداخلية حيز توازن يتزاحم فيه الناس في دورة الرواج وحركة الوصل والنقل زمن انتصار

رغبات الغـرب بالعنف المباشر وغـير المباشر ، تغـلق حركتهم في محدوديتها وعرضيتها ـ محدودية وعرضية التوازن فـي صراع المركز / الدائرة ـ قيـم الكسب بهالة وهمية من الثبات تنتج حضارة الكيان الطفيلية الازلية / المؤقتة ـ الرواج وتعطيله ٠

البيروتي هو الابن البار لدورة الرواج ٠ يولد من اغتصاب الغـــرب لتخلف العرب زمن الخضو ع٠٠ موقع بيروت ـ ينمو ابنا مدللا في عافيـــة التوازن المفروض ـ الطريق الى الداخـل العربي سالكه ـ يتغذى من انتفـاخ المدينة / مفصل التوازن ـ بيروت افراز دورة المال والبترول ـ ويطفو علـــى السطح بالرغـم من تخمته ، يتحرك برشاقة «الخادم» الغادرة ، يعرف مـــن اين تؤكل الكتف ، يهضم حاضره في تألق المدينة المضيافة وافرازات اغراءاتهـا ـ كوكبة الشرق ـ وحين يعسر عـليه الهضم ويكتشف تفاهة دوره وطفيليته يستعيد من ماضيه رموز « قدسية رسالته » يجترها دورة كاملة للرواج تحيـط بدماغه كما تحيط « الدائرة الالهية » رأس قديس في الايقونات القديمة ٠

بيروت ، هذه الحلبة الرياضية ـ المسالمة ـ لصراع النـــاس فـــي دورة الرواج ، هذا الحيز التزييني السريع العـطب لنظام الخـدمات منها انطلقت الرصاصة التي فجرت الحرب الاهلية بين الاسمنت والالمنيوم والزجاج فيهـــا عرفت الحرب اكبر الصدامات احتداما وتدميـرا ٠ ومن تحـت انقاضهـــا تحاول اصابع الكيان المنهـار ان تنتشل الابن الضال لدورة الرواج ، تشده غيرتها الوطنية لتنصبه بطـل خلاص في ساحاتها العامة ـ تيمنا بانصـــاب رجالات الكيان العظماء ـ يناطح في وقفتهالمعتادة ـ عادته قبول نتيجة رياضية للحرب ـ دوام الثلج على قمة فم الميراب ودوام الخضرة في ارز الجبـــل ٠ وعلى عودته تراهن سلطة الرواج على انبعاث دورتها من جديد متجاهلـــة « الاثقال » التي حملتها الحرب الاهلية الدامية لهـذا «البطل »٠

هل ينفذ البطل الشاطر ـ الشطارة ميزة اصالة للرواج ـ باثقال الحـرب ام يسقط تحت وطأتها ؟ تلك هي اشكالية مأزق النظام في جدلية التـــورط والخلاص التي اوقعته فيهـا حتمية اختلال التوازن في الحرب الاهلية ٠

٢ ـ تحولات بيروت ٠

موقع بيروت المركزي في الكيان الوسيط يجعلها تكثف صـــراع التـــوازن والاختلال في دورة الرواج : تكثف عافيته وتكثف اعتلاله ٠

● زمن الرواج / حيز منبسط ٠

استمرارية الكيان تؤمنها استمرارية غلبة المركز الامبريالي على دائرتـــه

العربية في التوازن · توازن الكيان ينبسط في عـافية دورة الرواج تقنـي لها غلبة عصبية التجزئة · تشبث بيروت بالداخـل الذي يشكل بتركيبتـه التاريخية ضمام الامان للتنمية الوسيطة الطفيلية ـ فائض نهب البتـرول ـ وتشتد لحمة بيروت «بالجبل» عبر سيطرة العصبية الكيانية على بيـ ـروت الشرقية وضواحيها واحكام قبضة غلبتها وركائز شراكتها على بيروت بخرقهـا للمواقع التي تهدد دورة الرواج (٣)فينبسة حيز بيروت افقيا ك شبكة الـرواج المدينية : تعانق الطائفة الغالبة الطوائف المشاركة ، تفكك تكتلاتها في دورة الرواج وتفترها على منبسط المدينة :

اتوستراد جونيه ـ بيروت يحكم قبضة انتفاخ الخدمات ببيروت الشرقية · شبكة الجادات تصل بيروت الشرقية ببيروت الغربية / تمركز مواقع السلطة ـ الوزارات ، البنوك ، لا سيمـا البنك المركزي ـ وتلفها من ناحية البحـر حيث تنمو اكثر فاكثر مدينة اخرى تحاكي بكبريائها « الحضاري » مدن الغرب ـ الروشة ، الرملة البيضاء ، عين المريسة ، الفنادق ـ وتحكم الطـوق حول « بؤر البؤس » تجرفها هامشية على جنبات مسالك الرواج ·

زمن الرواج ، تنتظم بيروت منبسطا من القنوات السالكة ، تسهل عـملية التوزيع والخدمة · تتكاثر المسالك في الزحمة · يتدفق الناس عبرها فتطفـو بهم بيروت فـي خارجها البراق ـ اضواؤها ، عماراتها ، ضجيجها ، ··· تعيش عـافية زمن الرواج في حاضرها ، تشق لبطلها في يومه مسلكه الامن·

● منبسط الرواج / الممرات السالكة ·

الممر السالك ليس حجارة مرصوفة وسيارة تقطعـه وشارعا تحدد عبوره دلائل فقط · الممر السالك كناية عـن مسيرة يومية / خط بياني وهمي لبطـل بيروت يشد به حيزها زمن رواجها ·

يندفع البيروتي في المسلك الضيق ـ يضيق المسلك في زحمة السالكيـن · يدفعه فيه انتماؤه ـ طائفة ، عائلة ،··· يصادم كتفه الاف الاكتاف · يلطم كتفا · يزيحه من دربـه · يلطمه كتف اخـر ، يزيحه · الكتف مراتبيـة وقاعـدة السباق · يتابع الكتف المنتصر مسلكه مخلفا غريمه عـلى قارعـة الممر ـ القبول بالهزيمة مدخـل لتجاوزها ـ تحرسه دلائل القانون ـ قانـون التسابق في دورة الرواج وتمفصله بمراتبية الطائفة والعائلة ـ بتجاوز الحاجـز القانوني / محطة امتحان قدرته عـلى اكمال السباق · تجاوز الشارة الحمراء، يحرمه القانون · تجاوز الامتحان ممكن · امكانيته ضرورة تحلل التجاوز من قبل المبتدع للمنع ابن النظام المدلل · عقوبة التجاوز ـ لو حصلت ـ حاجـز

تجربة للنجاح ـ تمزيق محضر الضبط بين يدي مسؤول ـ نتؤات المسلك يمكن عبورها وان تخلل العبور تململ او وشوشات تلطف النتوءة · يصل البطل الى قصبة السباق ويشهد بوصوله على عافية النظـــام زمن الرواج · تتـــراوح القضية بين وظيفة حاجب في دائرة رسمية وصفقة ملايين ·

ومن يسقط عـند اول نتوءة / امتحان ترذلـه الحركة الجنونية علـــى المنبسط وترميه في بؤرة المنبوذين : يتفرج على تحركات الناس في المدينة مذهولا بتسارعهـا ، معللا النفس بالعودة ـ التحايل ـ يهرب المبيعات ، يستزلـــم ويفرض خوة ، ·· وعندما يكلل بالنجاح ينخرط في سلك البوليس ··

في مسلكه الامن تمتزج قناعته بخارج المدينة المضاء بالف لون ولون ·خيالات تسد رغبته بلذة الامتلاك ـ يمتلك او لا يمتلك ، تلـك مسالـــة اخـــرى ـ تعكس مداخل المحلات الزجاجية مسالك نهاره في الليل · يجـد صورتـه معكوسة في مرايا مدخـل السينما او المسرح او المقهى · تستجمع صورتـــه حولها خارج المدينة في المراة ـ يدخـل قاعـة الملهى ـ ثقافة دورة الرواج ـ ويراجع مع العرض حواجز نهاره ويتجاوزها في العرض مرة اخرى « بنكتة بريئة » ـ ميزة لعروض التنفيسية (٤) ـ يحضر في المشهد / السباق ويمتزج حضوره بحركـة السيارة التي تجتـــاز عواميد المصابيح الكهربائية فـــي الشارع المشع ·

● نتوءات المنبسط / العراقيل ·

مسيرة البطل في الممر السالك تصطدم بنتوءة يعجز عن تجاوزها ـ يفشل البطل عن سلوك الممرات التحتية للمنبسط : التهريـــب ، الاحتيـــال ··· ـ فتنعطف مسيرته عن الممر السالك وتقذفه الدوامة / الرواج الى بؤرة هامشيـــة ـ بؤر نبذ دورة الرواج للتجمعـات التي تعـجز عـن استيعابها ، حـــزام البؤس والحرمان ، المخيمات ··· ـ وهناك يقضم يومه زمن الـــرواج خارج الممر السالك ، ينتظر زمنا اخـر بين امثاله ·

بيروت زمن الرواج حيزان وزمنان ،

ـ مدينة تعيش عافيتها المؤقتة في حاضرها الممتلىء ، زمنها سباق موزعي البضاعـة ـ حركة النقل ـ وسباق الوسطاء ـ الخدمات : مجازبا حـــركة خادم المقهى ـ حركتان تتمفصلان وتغلف مفصلهما ايديولوجية ديموقراطيـــة المؤسسات السائدة ·

ـ مدينة ينتصب انينها خافتا ٠في حاضرها نتوءات تعرقل مسالك الرواج ، وتهدد بتناميها التوازن على منبسط المدينة الاولى ٠

المدينتان تتداخلان ٠ اضواء الاولى تتسلط فتنعكس شعاعـــات الحمراء والروشة و ٠٠٠ على بيوت الصفيح تترك في الظل الثانية ، ويمحي الضـوء الباهر بروز النتوءات امام العين المجردة ـ ايديولوجيا العافية في الثقافـــة ووسائل الاعـلام ٠

هكذا ينعطف المسلك المستقيم عـند ارتطامه بنتوءة قاسية ـ انعـطاف شـارع شارل حلو نحو سن الفيـل عـند ارتطامه بتلة جسر الباشا / المخيم ـ٠
هكذا يجرف منبسط التخطيط المديني بيوت التنك العراقيل ـ كمب طراد ـ٠
هكذا يرتفع الجسر عـند مستنقعـات مياه الامطار ـ جسر جادة كميـــل شمعون على مستوى كمب وطى المصيطبة ٠

وفي كل مرة يتحايل المسلك عـلى النتوءة ، يتجاهلها كما يتجاهل حائـــط الكرنتينا الموازي لجادة شارل حـلو زمن البؤرة المدينية القابعة خلفه ٠

زمن عافية الرواج تخدش النتوءات قدمي بطل السباق ، تجرحـه ولكنهـا لا تمنعـه عـن متابعـة مسيرته المظفرة ، يغلفها بتبريرات لا حد لهـا ، تصل الى حد تحميل منبوذيها مسؤولية الحيف ـ تبريرات عنصرية مثل التخلف الفطري، تعدد الزوجات وكثرة الاولاد ٠٠٠ يصل الى حافة المسلك ـ حدود استمرارية دورة الرواج ـ ويفجع بسقوطه في الهـوة ـ لم يكن يتوقعـها ـ حافة المسلـك الامن ، فراغ رهيب تتجمع فيه همـوم ومصائـب كل الذين اهملتهم عـافيـــة النظام ، وكبلتهم محدودية الرواج في الكيان ، وتنذر بتراكمها بزمن اخر هـو زمن العـلة ٠

زمن العـلة انين / عمق لوقع زمن العافية ٠

● ممر البيت / حيز البطل زمن الحرب

رصاصة تنطلق عند مفترق المراية ، تنتشر كالوهم ، تستقطب الصرخـة تنهدات الحناجر المحبوسة ، تنتهي « لعبة البراءة » ٠ ينقشع الضباب ٠ ينتصب النار والحديد خنادق ومتاريس ٠ تقطع المسالك ، وكتل بشرية تـهدد وتعـد ٠ يختبيء البطـل الابله خلف الحائط السميك في ممر بيته الامن ـ ملجأ من لم يقدر عـلى الهرب من « اللامبالين » ـ تنقشع امام عينيه عبر ثغرة احدثتها قذيفة فـهـي

الحائط نتوءات المدينة ووعورة الممرات التي كانت امس سالكه · يتعالى دخان الاطر المحروقة في الفضاء ـ بعد مقتل معروف سعد / حواجز السخط ـ فيحجب الدخان المتصاعد نقمة ، زرقة السماء · تهب على السفينة رياح الحرب الاهلية العاتية · تترنح السفينة في لجة الدماء والدمار · تخفت اضواؤها ، يخفت ضجيج الرواج ويرتفع ازيز القذائف · وخلف الحائط السميك ينتظر البطل ارتداد العاصفة واتزان السفينة ·

● الاختلال / التوازن ·

انفجرت بيروت في الحرب الاهلية · انفض الغلاف الرقيق لزمن الرواج ـ ايديولوجيا التعايش في السباق ـ · تفسخ المنبسط الافقي اللامتناهي زمن العافية في مسار الحرب ، وعلت العصبيات كتلا عامودية في زمن الصدام·

مسار الحرب الاهلية عطل مفاصل التبادل لثورة الرواج ـ المركز التجاري، المواصلات ، المعاملات ··· ـ بخر مفاصل التعايش ـ اماكن اللهو المشترك ، الثقافة الموحدة ـ عمق مزالق العبور ـ الخطف ، القتل على الهوية ··· ـ ومع انفراط البقية المتبقية من السلطة ، تحولت المزالق الى سدود منيعة ترتد عندها حركة الرواج ـ في خفوتها ـ الى الحيز الامن ـ الكتلة المتجانسة سياسيا / طائفيا ـ ومع ارتداد الحركة برزت العصبية / بطل الحرب الاهلية (٥) · توحد بطل الرواج بالعصبية ومن خلالها كافح مستميتا من اجل اعادة التوازن المفقود والغلبة الكفيلة باستعادة المسلك الامن ·

التوازن لا يقوم الا بالغلبة · الغلبة عملية شد العصبية الغالبة ـ التظاهرات الطائفية التي سبقت اندلاع الحرب الاهلية ـ الشد يحتاج الى محرك يفجره ـ مجزرة عين الرمانة ـ الانفجار مزق زمن الرواج المختل ـ اختلاط مسالك الرواج بمسالك القتال في بيروت منذ ١٩٦٩ حتى اندلاع الحرب ـ في حركة ثنائية ·

حركة باتجاه المركز / الانفجار شدت العصبية الغالبة في بيروت الشرقية وضواحيها · وحركة باتجاه معاكس مزقت تمفصل العصبيات الاخرى بها ، فتباعدت عنها في بيروت الغربية والشرقية وخلقت ضرورة الالتفاف (٦) على المركز / العصبية الغالبة في عملية معقدة : الحركة باتجاه المركز عملية تمتين لموقعه بتمتين عصبيته ـ عمليات التأطير الطائفي / القتل على الهوية خاصة في لحظاتها الحاسمة مثل السبت الاسود ـ والحركة بالاتجاه المعاكس تحاول احكام الدائرة ومحاصرة المركز ـ بدء الهجوم العام الوطني ـ ·

وعندما عجزت الدائرة عن الاكتمال ـ عامل الدخول السوري ـ فتح المركز له ثغرة في الدائرة ـ سقوط النبعة من قبلها المسلخ والكرنتينا ـ وضرب نصف الدائرة تصفية المواقع المعادية في بيروت الشرقية ـ فاحكم لحمة بيروت الشرقية بالجبل وتوحدت به في حركة جديدة : الجابهة المتعادلة٠

بيروت حيزان ـ دائرة مشطورة عند قطرها ـ مرتبطان بنصفي الكيان ، فصلهما جدار جبهات التماس ـ طريق دمشق ـ بيروت ـ وثغرة الامل في المتحف دليل عجز قطب التوازن الجديد ـ الدخول السوري ـ عن تأمين اتصالهما ـ محاولاته ما زالت مستمرة ـ ومع ذلك فانها تترك امكانية التوحيد مفتوحة ٠ تتسع الثغرة وتضيق في جدلية تركيب التوازن الجديد واختلاله ٠ بذلك انتقل موقع الحسم من بيروت الى الجبل وتركت بيروت في انتصاب شطريها ـ الند للند ـ تحيا ابتزاز التوازن المختل ـ اختلال الغلبة ـ فيعمليات القصف المتبادل للاحياء السكنية ـ احياء صرخات التعايش التقليدية ـ وعقم الاشتباكات المحدودة على خط التماس ٠

● رواج زمن الحرب / نسبية الاختلال ٠

في الكيان المرتبط بالرواج اصلا لا يملك المتنازعون ما يختلفون عليه ـ ملكية وسائل الانتاج ـ بل يختلفون على ما يملكون من حقوق وامتيازات في عملية الوساطة ٠

في بيروت الحرب الاهلية في وجهها المعطل للرواج ـ دورته العادية ـ قتل ونهب وتدمير وخرق لسيادة النظام ـ منطق الغلبة ـ المشاركة ـ ودموع تذرف فوق ركام الابنية وبقايا المؤسسات ٠ الوجه الاخر لنفس العملة ـ نفس المنطق ـ تسابق على امتلاك مدخرات بيروت الخاصة ،وفيما بعد ممتلكات الدولة وقذفها ، في دورة جديدة لرواج الحرب الاهلية / الحركة الداخلية ـ داخل المناطق«المحررة» ـ العلنية بالاضافة الى مسالكها السرية ومسالكها غير المباشرة ـ اتصال شطري بيروت عبر مناطق التوازن ـ تكثفت الدورة في بيروت الشرقية ـ مستودعات المرفأ ، المنطقة الصناعية ، مستودعات السيارات ٠٠ فراج تعدد الوسطاء وراجت اقتطاعات الخوة واقتطاعات عبور الحواجز ٠ وراجت جباية الخوة ـ الممتلكات المبنية ، المحلات ،٠٠٠ في تنازع الاطراف لسلطة الاحياء واصبح الاستزلام لطرف مسلك الحرب لبطل الكسب :

زمن التوازن اتفاق · العصبيات المتفاوتة تقبل بغلبة عصبية فتنخرط في مباراة نظامية تباركها تقاليد المنافسة المتفق عليها ·

زمن الاختلال / التفكك اعادة انتاج التوازن والاتفاق ·العصبيات المتفاوتة تطرح مسألة الغلبة في مواجهة منظمة تسيرها تقاليد تحسين المواقع ومن ثم الاتفاق عليها ·

بيروت زمن الحرب الاهلية مدينتان ،

مدينة تقاتل من اجل ان تنبسط دورة الرواج من جديد بعد ان تذيب نيران الحرب الاهلية جليد النتوءات الغريبة على مسالكها ـ ايديولوجيا اعادة انتاج الرواج تتراوح بين تحميل الغرباء / العرب مسؤولية الاختلال وتحميلها للروح الشيطانية التي هبت على منبسط التاخي والتفاهم غيمة صيف لا بد ان تزول : جدلية المواجهة والابتزاز ـ هكذا تجرف الالات الكرنتينا والمسلخ وتل الزعتر والنبعة ، هذه البؤر / النتوءات التي ما برحت تهدد زمن الرواج وتعكر وقعه بتحركات حولت المدينة الصامتة وشوارعها الامنة الى مسيرات تشييع الفلسطينيين الصاخبة في مسالك تهددها غزوات اعدائهم بالتفجير ـ الهجوم الاسرائيلي على المطار وعلى شارع فردان ـ ·

مدينة من اجل ان تنتصب النتوءات في المدينة اعلى من انصاب ارباب الكيان ، تقاتل فتمزق المنبسط المؤقت المغلق للرواج في الكيان وتكثفه في بيروت بعد ان تطفيء قذائف الحرب الاهلية اضواء الرواج الباهرة فتنقشع في العتمة تلك النتوءات المنسية في بيروت الصفيح وزوايا الساحات المنبوذة وبين اوساخ الازقة · هكذا فضحت الحرب الاهلية عيوب زمن العافية:

ابناء بيروت الرواج هجروها في الحرب ، ابنيتها الفخمة « تصغر» زمن العلة · ابناء بيوت الصفيح تمددوا جثثا هامدة تحت جسور المدينة ، تحت انقاض التنك والخشب ومن نجا منهم ـ وهم كثيرون ـ قصد الابنية الفخمة على غير عادته لا يعرف كيف ينعم بسكناها المؤقت ـ حدود الحرب الاهلية ـ وقد خفف من غرابتها عليه افتقارها الى الماء والكهرباء والهاتف والاثاث وتقاليد تملؤها بعافية الرواج · ومع ذلك فهي وان شيدت ناطحات سحاب لزمن الرواج ـ بيع وشراء ـ تصلح لزمن الحرب وتصد كثافة الاسمنت والحديد النار القادمة ، بيروت هذه الغابة من المتاريس «الطبيعية »·

في الحرب الاهلية المدينتان تتعايشان وتتصارعان · غلبة احداهما يرتبط بمصير التوازن واختلاله في الكيان · ومع اشتداد قطبيه في اعادة انتاجه·

الضغـوط الخارجية بمختلف وسائلها ـ يتبدى المنبسط القديم معانقا انتصاب النتوءات ، وتتسع ثغرة الامل في المتحف لتصبح ذلك المنبسط الذي يتوجب عليه ان يتمدد ولكن بصعوبة هذه المرة لا تخفي امكانية استحالتـــه في المخـاض العسير ٠

٣ ـ المخاض

١٥ ايلول ١٩٧٦ ـ بيروت هادئة ، معفية من القصف ٠ عـمال البلديـــة يرفعـون النفايات بالقرب من الروشة ٠ حركتهم بطيئة ، وجوههم قسمـــات غير مبالية ، يؤدون خدمة مجانية ـ مستضعفون مجبرون « عنوة » عـلـى تدشين عـودة الحياة الطبيعـية ـ واثقون انهم اخـر من يعـلم ٠ رائحـة التفاؤل تفوح من تنقلات ارباب التوازن في الرواج ٠ تحركاتهم الجنونية مـن المحيط الى الخليج ـ انطلاقا من دمشق ، مسكينة بيروت فـقدت رونقها ! ـ تصارع الزمن ، تكثفه ، تضغـط الاسبوع المتبقي من عمر العهد القديم المشؤوم ـ التفاؤل ايمان بلبنان ـ وتبسط حرائر السعـد امام العـهد الجديد ٠

مولودان للعـهد الجديد ٠ كلاهما يحتاج الى عـملية قيصرية في رحـــم بيروت المخاض : المولود الاول قائد موحد للبلاد يخرج بعـملية عسيرة تقطع خط التماس من المتحف حتى بعبدا ٠ عـملية خـطرة والاصرار على القيـام بها خلاص للمولود بدونها يخرج مبتور النصف ٠

المولود الثاني هو ذلك البطل البريء ابن الرواج ، ذلك المسكين الـــذي قذفته براءته الى المعـركة في الحرب الاهلية بفعـل الغريب الساحر الـــذي انتشله من ممر البيت الامن ، تماما كما رثاه الرئيس الراحل في خطبة الوداع، فانساق يهـدم مدينته الحبيبة بيد ، ويده الاخـرى تمسح دمعـة ندم سالت على جدار منهار ، المولود الثاني يحتاج الى عملية سحرية لا تفي بها عمليـــة طريق المتحف ـ بعبدا ، ولادته تمر عبر نفق وهمي تبدعـه ـ معجـزة !ـ المحبة الكامنة في اليد البناءة القادرة على نحر اكياس الرمل وصبها فنـادق رواج المحبة التي تحيك طبلة الاذن القادرة عـلى دمج اصوات القذائف بترانيم التاخـي الوطني ٠ المحبة المتطلعـة من العين القادرة على اقتناص لحظـة الماضي «الجميل » في سقطة الضحية البريئة الهاوية كما هـوت احـلام الملذات في خبايا بيروت الممزقة ٠ وتمتد تلك العـين تجذبها الحياة الغابرة مع رتـل السيارات التي تشق طريقها في شارع الحمراء (٧) بشائر وتذوب في قطـرات المطر على الورقة الخضراء وترى في « اول الغيث اول الفرج »٠

مستحيل ان يتحول ذلك الابله الذي حاكت دماغه قصبات الكشة الى ذلك المجنون الذي يحمل السلاح ليخرب بيده ملعب احلام الربح والخسارة في لعبة « بريئة » جعلت من بيروت قبلة انظار العالم المتمدن واطماعه وقاتلة للعين السمراء الحاسدة · المولودان تؤمان · يحاران أيهما يخرج اولا · هذا ما بشر به الطبيب الشرعي ، وبيروت مثل الكيان تعيش ماض زمن اخر ·

الحواشي :

(١) راجع « السلطة والتوازن في لبنان»، خالد جابر · شؤون فلسطينية عدد ٥٠/٥١ ١٩٧٥ ·

(٢) بديل الانتاج في الاقتصاد الوسيط ، المرجع نفسه ·

(٣) راجع « التوازنات الشاملة» · خالد جابر · شؤون فلسطينية عدد ٥٧ ـ ١٩٧٦ ولا سيما دور السبعينات في عملية استكمال بناء القاعدة الطائفية لنظام الخدمات ·

(٤) راجع « نقطة الصفر للممارسة المسرحية » · ملاحظات حول العرض البيروتي · رئيف كرم · قضايا عربية عدد ١ ـ ١٩٧٥ ·

(٥) بالتحديد العصبية /الغلبة/ بطل الرواج الخفي · عمليات نبذ الخوارج على العصبية في بيروت الشرقية ·

(٦) عملية الالتفاف ربما كانت سبب الاختلال في السنوات الاخيرة التي تلت احداث ١٩٧٣ · وتهديد حصن تل الزعتر الاختلال في السنوات الاخيرة التي تلت ونهاية التهديد بسقوطه ·

(٧) ابتداء من ١٥ ايلول ، درجت صحيفة النهار على جذب القارىء الى حيز «التفاؤل» عبر صورة فوتوغرافية تبشر بعودة الحياة الطبيعية ـ رتل سيارات ، ازدحام ، قطرات المطر على ورقة خضراء ··· ـ وتتداخل الصورة في عامود «الوضع العسكري» وتطغى على اخبار الجبهات المفصلة باحرف صغيرة ·

الدور الاسرائيلي في أحداث لبنان

ربيع الأسير

« ان اعظم وانجح انتصار هو ارغام العدو على التخلي عن مشروعاته وخططه ، دون ان يتحمل الطرف الاخر اي اذى »

بيليزير

احاط * الغموض لفترة طويلة بحقيقة الموقف « الاسرائيلي » من احداث لبنان ، والاساليب التي استخدمتها الدولة الصهيونية لتحقيق اهداف ذلك الموقف · ولقد افاد « الاسرائيليون » من ذلك الغموض الى حد بعيد ، حيث اعتبر العديد من المراقبين بأن الموقف « الاسرائيلي » هو موقف « المراقب » ازاء « نزاع داخلي » · غير ان تطور الاحداث سرعان ما كشف حقيقة موقف « اسرائيل » وضخامة دورها في تأجيج الصراع في لبنان·

ولئن كانت « الحرب اللبنانية » في أحد وجهيها مؤامرة استعمارية ـ صهيونية تستهدف القضاء على امكانيات تحرر الامة العربية وتوحيدها ،فان الوجه الاخر لها هو وجود نواة تخمر ثوري في المنطقة العربية ، يدفع المنطقة خطوات الى الامام على طريق التحرر والوحدة والتقدم · وبالتالي كانت « الحرب اللبنانية » ، ومنذ بدئها ، صراعا بين قوى الاستعمار والتخلف والمحافظة على اوضاع الاستغلال في المنطقة (وعلى رأسها اسرائيل) من جهة ، وبين قوى التقدم والتحرر في الامة العربية ، وفي طليعتها الثورة الفلسطينية من جهة ثانية · من هنا كان دور «اسرائيل» العمل على انجاح الوجه الاول لهذه الحرب، وقطع الطريق على امكانات تنامي الوجه الثاني ·

« اسرائيل » ولبنان قبل ١٣ ـ ٤ ـ ١٩٧٥

كان لبنان موضع تركيز استعماري دام فترة طويلة من الزمن ، استهدف اعطاءه طابعا مميزا عن المنطقة العربية ، واعداده ليلعب دورا خاصا في تلك المنطقة · ولقد افسحت التعددية الطائفية فيه المجال لخلق وتركيز « مسألة » طائفية كانت دائما منفذا لتمرير جانب من المشاريع الاستعمارية التي تستهدف اضعاف الامة العربية

من اجل استمرار نهب ثرواتها ٠

ولقد حرص النظام اللبناني منذ العام ١٩٤٩ على ابعاد لبنان عن الصراع العربي-الاسرائيلي ٠ غير ان « التوازنات » الخاصة في داخله وذلك القدر من « الحريات » الديمقراطية التي تمتع بها ، وتنامي النضالات الجماهيرية فيه خلال فترة الخمسينات ، ووجود عدد كبير من المهجرين الفلسطينيين (ثاني قطر بعد الاردن) ، ادى الى اكتسابه اهمية متزايدة في المنطقة العربية ، خاصة بعد ان استطاع النضال الجماهيري في لبنان منح تواجد المقاومة الفلسطينية على الارض اللبنانية « شرعية » جماهيرية ، وبعد ان اصبح منبرا تتمكن فيه جماهير المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان ، وحركة الجماهير العربية كلها ، من التصدي لما تحيكه الدوائر الامبريالية من مؤامرات على الامة العربية ٠ ولقد تصاعدت تلك الاهمية بعد تصفية الوجود العلني للمقاومة الفلسطينية على الساحة الاردنية في ايلول ، ١٩٧٠ ، حيث اصبح لبنان مركز التواجد العسكري الرئيسي للمقاومة ٠

وعلى اثر حرب تشرين ، ١٩٧٣ ، نشطت السياسة الاميركية لاحتواء ما نجم عن تلك الحرب من ايجابيات اظهرت الطاقات الكامنة للامة العربية ٠ وعلى الرغم من التراجع الامبريالي في امكنة اخرى من العالم (جنوب شرقي آسيا ، انغولا الخ) فلقد اتسمت السياسة الاميركية بالهجوم في المنطقة باعتبار المنطقة العربية خط الدفاع الاساسي عن وجودها ووجود النظام الرأسمالي العالمي ٠

وفي المقابل فقد حققت منظمة التحرير الفلسطينية مكاسب هامة على الصعيد السياسي ، عندما تمكنت من انتزاع شبه اجماع عالمي على الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني الذي تمثله ، كما تمكنت من انتزاع قرار يعتبر الصهيونية نوعا من العنصرية٠ وفي الوقت نفسه ، تصاعد العمل الفدائي داخل الارض المحتلة ، وتطور نوعيا بادخال نمط جديد من العمليات (العمليات الانتحارية) ٠ واصبح واضحا ان المقاومة الفلسطينية هي العقبة الاساسية امام « تسوية » تضمن للامبريالية الحفاظ على مصالحها ، كما تعيد للكيان الصهيوني امكانيات استمراره ونموه وتفوقه مجددا بعد اختلال موازين القوى لغير صالحه ، وذلك على الرغم من مراهنة بعض الانظمة العربية والدوائر الغربية لفترة على امكانية زج بعض اطراف منظمة التحرير في « التسوية » ، الامر الذي استهدف ضرب القوى الوطنية ببعضها البعض ، وافراغ المنظمة من مضمونها الثوري المعادي للكيان الصهيوني ، وتوفير تغطية للانظمة العربية خلال مسيرتها التراجعية ازاء ذلك الكيان ٠

وكان من الضروري ان يكون لبنان ساحة الصدام بين الامبريالية والصهيونية من جهة ، وقوى التحرر والتقدم وفي طليعتها ثوار فلسطين من جهة ثانية ٠ وليس من قبيل الصدفة ان يتمكن كيسنجر من دخول معظم عواصم المنطقة من اوسع ابوابها ، في حين منعته الغضبة الجماهيرية في لبنان من دخول بيروت ٠

وظهرت الحاجة الى نمط جديد من المواجهة ، بعد ان فشلت سابقا اليد الاسرائيلية في لجم نمو الثورة الفلسطينية وبعد ان ظهر جليا في ايار ، ١٩٧٣ ، ان النظام اللبناني اعجز من ان يقوم بما قام به شقيقه الاردني ٠ نمط يساهم فيه قطاع كبير من « الجماهير»

اللبنانية ، بحيث يكون هذا القطاع مدخلا لزج قوى اضافية لمواجهة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية والجماهيرية في لبنان ، كي يحدث انقلاب في موازين القوى لغير صالح حركة الجماهير ٠

ولقد عبر رابين عن هذا النمط الجديد من المواجهة في حديث له تعليقا على عملية سافوى البطولية (ليلة ٧٥/٣/٥) التي شنها ثوار فلسطين في قلب تل ابيب عشية زيارة كيسنجر لاسرائيل ، خلال احدى جولاته الهادفة الى تحقيق تسوية مرحلية في سيناء ٠ وأكد رابين في ذلك الحديث أن اسرائيل لن ترد على عمليات المقاومة الفلسطينية ، اذ ان الرد سيأتي في قلب الساحة اللبنانية نفسها ٠

الاهداف « الاسرائيلية » في المخطط الاستعماري الصهيوني :

على الرغم من التحالف الاستراتيجي بين الولايات المتحدة الاميركية و«اسرائيل » ، فان للاخيرة أهدافا « خاصة » تتميز عن اهداف الاولى كنتيجة لتعارضات في المصالح وفي الاساليب والوسائل ، وللتمايز في الادوار ، وذلك بالاضافة الى الاهداف المشتركة ٠

« فاسرائيل » لا ترضى بديلا عن تصفية المقاومة الفلسطينية ٠ اذ ان المقاومة وما تمثله من امكانات وما تحمله من آفاق مستقبلية ، تشكل النقيض المباشر لدولة الاحتلال الصهيوني ٠ وفي حين تراهن بعض الدوائر الغربية على « تدجين » منظمة التحرير الفلسطينية ، وتنادي بضرورة تغيير قيادتها ، وتكتفي بهذا الحد من المكاسب المرحلية لتجنب مخاطر انفجارات في المنطقة لغير صالح الاستعمار فيها لو استمرت التناقضات بالاحتدام ، فان « اسرائيل » تعمل ما في وسعها للقضاء النهائي على منظمة التحرير ، وترفض الاعتراف بوجودها ، حتى ان « اسرائيل » وجهت نقدا للولايات المتحدة الاميركية حين تمت اتصالات اميركية – فلسطينية تتعلق بتأمين رحيل قافلة الرعايا الاميركيين والاجانب من لبنان ٠ ولقد عبر العديد من المسؤولين « الاسرائيليين » عن خط « اسرائيل » الاستراتيجي بالنسبة للموقف من المقاومة الفلسطينية ، والمتمثل بأن « التسوية السياسية في المنطقة مشروطة باجتثاث سرطان منظمة التحرير الفلسطينية »(١)٠

من جهة ثانية ، عملت « اسرائيل » دائما على تعزيز التناقضات ذات الطابع العرقي والطائفي في المنطقة العربية ، من ضمن سياسة تفتيت القوى العربية ٠ وكانت « اسرائيل » ترى في تلك التناقضات تبريرا للطابع « اليهودي » الذي تتسم به٠ كما ان تلك التناقضات تشكل نوعا من الضمانة لاستمراريتها عبر وقوفها عقبة في وجه الوحدة العربية ، وما تحمل هذه الوحدة من تكثيف ودفع للطاقات العربية ، وما تمثله بالتالي من خطر على وجود الكيان الصهيوني ٠ ولقد اثارت « المسألة » الطائفية في لبنان اهتمام « اسرائيل » ، التي وجدت فيها ارضا خصبة ومدخلا لتحقيق املها القديم في اقامة مجموعة من الكيانات الطائفية الهزيلة في المنطقة المحيطة بها ، لا على ارض لبنان فحسب ، وانما في غيره من الاقطار ٠ ومن المؤكد أن احتمالات الانفجارات الطائفية في المنطقة العربية لا تزال قائمة ، وأن كان استمرار وجود المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان والمنطقة يشكل قوة مؤهلة للوقوف في وجهها ٠

ولقد عبرت « اسرائيل » عن حرصها على تفجير التناقضات ذات الطابع الطائفي في اكثر من مجال · حتى ان وزير خارجية دولة العدو ايبان دعا الى مساعدة السيحيين « لانشاء دولة خاصة بهم »(٢) · في حين اكد يوريافنيري مدير عام وزارة الخارجية « الاسرائيلية » في محاضرة له ان « المثل الذي ضربته اسرائيل يشكل عاملا مشجعا لطوائف وقوميات في الشرق الاوسط يميزها قاسم مشترك هو عدم استعدادها للقبول بالسيطرة العربية ـ الاسلامية على المنطقة » (٣) ·

من ناحية اخرى ، استهدفت « اسرائيل » ضرب القوى العربية ببعضها البعض ، بعد اختلال موازين القوى في المنطقة لغير صالحها ، ولاعادة تفوقها العسكري الذي كان يشكل ركنا هاما من اركان نظرية الامن « الاسرائيلية » ، وعامل ردع اساسي لاستمرارها في المنطقة العربية · ولقد اشار الكاتب « الاسرائيلي » زئيف شيف ، قبل اندلاع الاحداث في لبنان ، الى ان « العدو الرئيسي والخطر هو الجيوش العربية ، وليس المخربون » (٤)· وتعكس هذه المقولة ذعر « اسرائيل » من الطاقات الكامنة في الجيوش العربية ، والخوف الدائم من ان تؤدي الوحدة العربية ، او وحدة الارادة على الاقل ، الى زج تلك الجيوش في المعركة مع اسرائيل · وعلى الرغم من ان « اسرائيل » تدرك ان الانظمة العربية مستعدة الان واكثر من اي وقت مضى لتقديم تنازلات لصالح الامبريالية والكيان الصهيوني ، فانها تدرك ايضا ان امكانات التغيير في المنطقة العربية ما تزال قائمة ، وان وقوع تغيير ايجابي سيدفع تلك الجيوش مجددا الى المعركة ·

ولقد كانت « لاسرائيل » دائما مطامع في الارض اللبنانية (وبشكل خاص ارض الجنوب) ، نظرا لخصوبتها وغزارة مياهها · كما ان الحدود مع لبنان هي الحدود الوحيدة التي لم يطرأ عليها أي تعديل على أثر حرب ١٩٦٧ ، بعد ان احتلت « اسرائيل » اراض عربية جديدة شكلت نوعا من الحزام الامني حول « المناطق الاسرائيلية » الصناعية ، ذات الكثافة السكانية العالية · لذا فان « اسرائيل » ترى ان من مصلحتها خلق حزام امني على تلك الحدود ·

لقد كانت « اسرائيل » حريصة دائما على ان يقبل بها في المنطقة كأمر واقع لا يمكن تغييره ولكنها تحرص كذلك على ان تقبلبها الجماهير في المنطقة العربية، وليس فقط الانظمة· ولم تكتف « اسرائيل » بذلك ، بل عملت على ان يجد فيها جزء من جماهير المنطقة (من الاقليات الطائفية والعرقية الخ ···) حليفا وصديقا بحيث لا تبقى وحيدة في خضم بحر معاد ·

من ناحية اخرى ، ارادت « اسرائيل » في « الحرب اللبنانية » القضاء على تجربة التفاعل الرائعة بين المقاومة الفلسطينية وحركة الجماهير في لبنان · فبقاء تلك التجربة سيؤدي بالضرورة الى تعميمها وانتشارها على امتداد المنطقة العربية ، الامر الذي سيقود الى زج طاقات الامة العربية باسرها في معركة التحرير ، وبالتالي الى زوال الكيان الصهيوني في فلسطين · ولقد ادى ذلك التفاعل والعطاء المتبادل الى تنامي الطرفين ، بحيث اصبح من المتعذر على النظام اللبناني تصفية او احتواء الاثنين معا ، او الانفراد بطرف ومن ثم الانتقال لتصفية الاخر ·

« اسرائيل المراقبـــة » :

حاولت « اسرائيل » ان تظهر بمظهر « المراقب » للاحداث في لبنان طيلة فترة طويلة من الحرب اللبنانية · كما حرصت ان يبقى دورها العلني ضمن حدود « حث » العالـــم على « انقاذ الاقلية المسيحية » من الاخطار التي تتهددها ·

ولقد ظهر هذا الحرص عبر ترك التناقضات تتفاعل داخل لبنان ، وعدم القيـــام حتى بعمليات « الردع » التقليدية · فيعلق يشعياهو بن فورات على العملية الاسرائيليـــة المحدودة في « عيتا الشعب » (حزيران ، ١٩٧٥) ، بتوجيه نصيحة « بعدم التوغـــل عبر الحدود ما دام لبنان ساحة لحرب داخلية » ، واحباط « ضربات المخربين دون القيام بعمليات تفتيش داخل القرى اللبنانية في الظروف الحالية » (٥) · غير ان السياســـة « الاسرائيلية » لجأت في فترة المراقبة الى نوع من المحافظة على التوازن بين عمليـــات « ردع » محدودة ضد القرى اللبنانية (كفركلا ، عيتا الشعب ، بليدا الخ ···) وبين المحافظة على صفة « المراقب » للاحداث · وكانت « اسرائيل » تأخذ في الاعتبار عدة عوامـــل ، منها مدى احتدام المعارك الداخلية في لبنان ، لاتخاذ قرارات تتعلق بشن عمليات «الردع» ·

كذلك حرصت « اسرائيل » منذ اندلاع الاحداث على تصويرها وكأنها صراع بيـــن المسيحيين والمسلمين الذين يساندهم الفلسطينيون ، وعلى تحريض العالم « المسيحي » لانقاذ لبنان · واستهدفت « اسرائيل » من وراء اضفاء الطابع الطائفي على الصراع الدائر في لبنان اذكاء التناقضات ذات الطابع الطائفي ، والمساهمة في تمييع حقيقـــة الصراع · ولقد لخص رابين الصورة التي حاولت « اسرائيل » ان تعطيها للصراع في لبنـــان ، و « الدروس » التي تعلمتها «اسرائيل» من ذلك الصراع ، في مأدبة عشاء فيني‌يورك‌في‌مطلع العام ١٩٧٦ · قائلا « ان العرب من الديانتين حاولا ان يعيشا معا في سلام ، ولكن جهودا خارجية ، خصوصا من المنظمات الفلسطينية حاولت ان تضفي الطابع الاسلامي على لبنان»· اما الدروس فكانت « ان العالم العربي لا يتسامح مع اية اقلية ذات استقلال ذاتي » ، وان « العالم كان اعمى بالنسبة للعديد من الحوادث اللااخلاقية » ، واخيرا « مراقبة صمت العالم المسيحي في الوقـــت الذي كان فيه المسيحيون يتعرضون للاعتداء لانهـــم مسيحيون ··· » (٦) ·

من جهة ثانية ، حرصت « اسرائيل » على نفي اي علاقة بالاطراف الفاشية اللبنانية ، متهمة الفلسطينيين باطلاق مناورة دعائية «لاتهام الكتائب بالتعامل مع اسرائيل » حيـــن كشف النقاب عن صفقة اسلحة « اسرائيلية » للاطراف الانعزالية (٧) ·

وعمدت « اسرائيل » في تلك الفترة الى اطلاق تحذيرات عديدة من تدخل خارجي في لبنان · واعلن الون في تصريح نشرته مجلة « نيوزويك » الاميركية انه لا يستبعد حدوث تدخل عسكري « اسرائيلي » في لبنان خاصة « اذا حدث غزو سوري » · الا انـــه زعـــم انه ما دامت الصراعات في لبنان محصورة داخل نطاق « الطوائف » فانـــه لا يعتقد ان « اسرائيل » ترغب في القيام بأي تدخل (٨) · واكد رابين في حديث الى التلفزيـــون « الاسرائيلي » (١٩٧٥/١٠/١٤) ان « اسرائيل معنية تماما بالمحافظة على امنها في حـــال قيام سوريا بالتدخل في لبنان » ، وقال ان اية محاولة للتدخل في لبنان « ستخلق وضعـــا

هو بمثابة اعتداء على امن اسرائيل » وهدد بان « اسرائيل » ستتدخل عسكريا في لبنان لمواجهة هذا الاعتداء (٩) ٠

الا ان تعديلا على الموقف « الاسرائيلي » من التدخل السوري بدأ يطرأ بعد فترة ٠وأكدت صحيفة « التايمز » في عددها الصادر في ٢١ ـ ١٠ ـ ١٩٧٥ ان « اسرائيل » وافقت على عدم اتخاذ أية خطوة تتعلق بالازمة اللبنانية « حتى في حالة تدخل سوري » دون استشارة الولايات المتحدة الاميركية ٠

ونشرت « النهار » في عددها الصادر في ١٩٧٦/٤/١٢ نبأ عن اجتماع عقد بين ملكولم تون السفير الاميركي في « اسرائيل » وآلون ٠٠٠ اشار معلقين « اسرائيليين » الى ان الهدف الاساسي من الاجتماع كان « تهدئة المخاوف الاسرائيلية » بالنسبة الى دخول قوات سورية الى الاراضي اللبنانية ٠

وبعد ان حددت مصادر عسكرية اسرائيلية نهر الليطاني كحدود يبدأ التدخل العسكري الاسرائيلي في حال اختراقها من قبل القوات السورية ، أكد مسؤولون « اسرائيليون » ان « الخط الاحمر » ليس بجغرافي ، وانما يتعلق بعوامل واعتبارات اخرى ٠

ولقد كشفت « الواشنطن ستار » نبأ مفاده ان سورية تشاورت مع « اسرائيل » عن طريق السفارة الاميركية في كل من دمشق وتل ابيب للتأكد من ان اعمالها العسكرية في لبنان لن تؤدي الى اعمال انتقامية « اسرائيلية » ٠ ونسبت الصحيفة الى مسؤولين اميركيين قولهم : « لا تستطيع أية حكومة اسرائيلية ان تعترف علنا بانها اعطت الضوء الاخضر لسوريا لترسل قواتها الى لبنان ، ولو حتى الى مسافة نصف ميل ٠ وافضل تعبير لما يفعله الاسرائيليون هو القبول » (١٠) ٠

وذكرت صحيفة « دافار » « الاسرائيلية » ان « اسرائيل » تتوافر لديها اسباب وجيهة للالتزام بموقف الترقب تجاه احداث لبنان ، « على الاقل بسبب احتمال حدوث مواجهة عسكرية بين الفدائيين والسوريين ، وحدوث فتور شديد في العلاقات السورية ـ السوفياتية » (١١) ٠ وفي وقت لاحق ذكرت الصحيفة نفسها ان السوريين يواصلون زحفهم العسكري ويريدون انهاء « ما تبقى من الجيوب الفلسطينية وتحطيم جميع اتصالات منظمة التحرير الفلسطينية لوضع عرفات في مأزق » (١٢) ٠

ولقد جاء حرص « اسرائيل » في الفترة الاولى على ابعاد نفسها عن واجهة الصراع، وتمييعها لطبيعته ، نتيجة لفهمها لضخامة العامل التحريضي بالنسبة الى جماهير المنطقة العربية فيما لو تبين ان طرفا من الاطراف يلتقي معها ، ولو موضوعيا ، بالنسبة للموقف من قضايا الامة العربية ٠ فحتى يتمكن اليمين الفاشي اللبناني من تأدية الدور الموكل اليه في المخطط الاستعماري الصهيوني ، لا بد وان يظهر نوعا من الاستقلالية ولو لفترة ، كما لا بد وان يظهر وكأن له قضية بمعزل عن المصالح الغربية و « الاسرائيلية » في المنطقة ٠ وان كان الواقع الموضوعي يسمح « بخلق » تلك « القضية » ، من خلال المسألة الطائفية ذات الجذور القديمة في الواقع اللبناني ، فان العامل الذاتي يجب ان يركز

على « لبنانيته » ، حتى تظل القضية قضية « قتال بين اشقاء » ، وحتى يكون للانظمة مبرر للوقوف على « الحياد » لفترة بالنسبة للصراع الدائر في لبنان ، والذي قد يوازي في ضخامة آثاره نكبة ١٩٤٨ ٠

وسواء كان هناك تنسيق مباشر بين « اسرائيل » واركان النظام السوري او لم يكن ، فلقد كان من المطلوب ان يقتصر دور « اسرائيل » (ولو لفترة) على « مراقبة » التدخل العسكري السوري في لبنان كي تحافظ القضية على طابعها العربي ٠ ومن الثابت ان « اسرائيل » وعت منذ البداية ان قوى النظام اللبناني واليمين الفاشي اعجز من ان تقوم بمهمة تصفية المقاومة ٠ ولقد عبر عن ذلك « اهود يعرى » عندما علق على تجربة الحكومة العسكرية (ايار ١٩٧٥) ، التي استمرت فترة ساعات قلائل لتسقط على اثر انتفاضة جماهيرية واسعة ٠ واكد « يعري » انه « من وجهة النظر الاسرائيلية ، تضاءل الان احتمال حل قضية المخربين في لبنان ، او تقييدهم ، عن طريق مواجهة داخلية في هذا البلد »(١٣) ٠

ولقد ادركت « اسرائيل » ان التدخل العسكري السوري قد يحقق معظم اهدافها ، ان لم يفسح لها المجال لتحقيقها كلها ٠ اذ ان الجيش السوري ، وهو ثاني الجيوش العربية من حيث القدرة القتالية ، اقدر على تصفية المقاومة ، واجهاض تجربة التفاعل بين المقاومة وحركة الجماهير في لبنان ٠ كما ان سوريا نفسها مرشحة لانفجارات تتخذ طابعا طائفيا ، ومن ثم تنتقل تلك الانفجارات الى غيرها من الاقطار ٠ وبالاضافة الى ذلك قد يؤدي اصطدام الجيش السوري مع المقاومة الى انهيار ذلك الجيش وتفتته ، وبالتالي الى اختزال قوة عربية ذات وزن كبير في الصراع العربي ـ « الاسرائيلي » ٠ وبعد ذلك يمكن « لاسرائيل » ان تفرض نفسها كأمر واقع ، كما يمكن لها ان تحقق حلمها بالمزيد من التوسع ٠

ان كل هذه العوامل والحسابات كانت وراء بقاء « اسرائيل في وضع « المراقبة » ، والتدخل في الاحداث عن طريق التهديد بالتدخل (اننا على الساحة ولكن دونما ظهور ٠٠٠ آلون) ٠ وعدم الاعتراض على دخول القوات السورية طالما ان هدفها سحق المقاومة ، وابقاء امكانية التدخل قائمة في كل لحظة رغم عدم الاعتراض المبدئي على دخول السوريين ، حتى تتمكن من الامساك بالفرصة المناسبة عند اللزوم ، والحفاظ على حرية العمل ضد السوريين اذا ما حصل تبدل يستوجب ذلك ٠

« اسرائيل السياح اللطيف »

في ٦ تشرين الثاني ، ١٩٧٥ ازالت مجموعة من الجنود « الاسرائيليين » الاسلاك الشائكة بين العديسة وكفركلا ٠ وفي ١٢ منه ، نشرت صحيفة « السفير » اللبنانية نبأ جاء فيه ان العميد ريمون اده لفت نظر رئيس الوزراء اللبناني رشيد كرامي الى « ابعاد التدبير الاسرائيلي الذي قضى بازالة الشريط المكهرب في بعض نقاط الحدود » ٠ كما قال ان القوات « الاسرائيلية » بدأت تتساهل مع رعاة المواشي اذ تسمح لهم بالاقتراب من الحدود ، وحتى من دخول الاراضي الاسرائيلية بقصد المرعى ٠ وصرح اده ان الشريط المكهرب قد نزع على امتداد ٣ كلم قرب منطقتي رميش وياورن ، وكذلك على امتداد ٢٠٠ متر قرب كفركلا ٠

وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٦ ، امر « وزير الدفاع الاسرائيلي » شمعون بيريز القوات « الاسرائيلية » على الحدود بالسماح « للاجئين المسيحيين من لبنان » بعبور الحدود ٠ ولقد كان ذلك الامر بمثابة اعلان بدء مرحلة جديدة في الموقف والدور « الاسرائيلي » بالنسبة لاحداث لبنان : مرحلة « السياج اللطيف » ٠

وفي ٢٩ كانون الثاني ، ذكرت صحيفة « السياسة » نقلا عن « مصدر في تل‌ابيب » ان اول « لاجيء عربي من لبنان » قد دخل الارض المحتلة ، وهي فتاة عمرها ١٥ عاما (هيلين سالم من القليعة) عبرت الحدود لتلقى العلاج ٠

وتوالت الانباء عن دخول اشخاص لبنانيين الى الارض المحتلة كذلك انشأت « اسرائيل » ثلاثة مستوصفات على الحدود (في المطلة ودوفيفا وحانيتا) وذلك بالاضافة الى توفير «خدمات طبية » داخل الارض المحتلة ٠

وقامت «اسرائيل» بتنظيم عملية توزيع مياه في بعض المناطق الحدودية ، وشراء محاصيل المزارعين الجنوبيين ، كما ابدت استعدادها لفتح مطارها لكل راغب في السفر من لبنان ، ومن ثم قامت بتقديم مساعدات من « الخضر والفواكه الطازجة ومنتجات الالبان » الى ابناء القرى الحدودية ، بالاضافة الى بيع المحروقات ٠ وبعد ذلك اعلنت انها ستسمح للبنانيين بالعمل في البناء والزراعة » ٠

وشكلت « اسرائيل » «لجنة اهلية لمساعدة لبنان » ٠ وقيل انمهمتها العمل على « مساعدة ضحايا الحرب في لبنان »(١٤) ٠

ويقول « ايهود يعرى » في مقاله « السياج اللطيف اسلوب مؤقت » ان « السياج اللطيف يرتكز على استغلال الفراغ الجزئي للحكم في الجنوب ، والضائقة التي يعانيها السكان هناك ، وعلى مخاوف القرويين المسيحيين المعزولين والمنتشرين على طول خط الحدود ، وعلى احجام منظمة التحرير الفلسطينية عن تسخين المنطقة » (١٥) ٠

ولئن كانت « اسرائيل » قد افادت من الفراغ النسبي القائم في الجنوب ، ومن حاجة ابناء القرى الجنوبية للمواد الغذائية والتموين ، تلك الحاجة التي نجمت عن«الحرب اللبنانية » ، فان « السياج اللطيف » يشكل اداة هامة من ادوات تحقيق الاهداف الاسرائيلية ٠ فعبر « السياج اللطيف » تمكنت « اسرائيل » من ان تعطي لنفسها صورة انسانية في العالم ، حيث ظهرت وكانها مهتمة بمصير ابناء القرى اللبنانية ٠

كما ان « السياج اللطيف » ساهم في اظهار « انسانية » « اسرائيل » بالمقارنة مع ما ظهر خلال الحرب اللبنانية من جرائم لا اخلاقية ، وسادية ومجازر جماعية ٠ كذلك مكن «السياج اللطيف» اسرائيل من دخول الجنوب من دون احتلاله ، واقامة علاقات مع جزء من جماهير المنطقة ، اعترف عمليا بوجود اسرائيل عبر التعامل معها ٠ الامر الذي زاد من تعقيدات الوضع وتعقيدات الاحتمالات المستقبلية ٠

« اسرائيل الطرف المباشر في الصراع »

في الفترة الاخيرة من « الحرب اللبنانية » ، بدأت « اسرائيل بلعب دور واضح ومباشر في الصراع · كذلك بدأت الانباء تتسرب عن العلاقات الوثيقة التي تربط بينها وبين الانعزاليين ، وعن الدرجة العالية من التنسيق بين الطرفين ·

فعلى أثر الصدام ما بين الجيش السوري والمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان ، وبعد ان بدأ النظام السوري عملية حصار على المناطق الواقعة تحت سيطرة القوى الوطنية حاولت اسرائيل احكام الطوق حول تلك المناطق ، عبر فرض حصار بحري على الموانىء الجنوبية التي تشكل المتنفس الوحيد لجماهير تلك المناطق ·

كما اقدمت اسرائيل على احتجاز عدد كبير من البواخر بتهمة تهريب السلاح والمقاتلين الى « المخربين » · الامر الذي ساهم في تنامي صعوبات وصول التموين للمناطق الواقعة تحت السيطرة الوطنية · وكانت « اسرائيل » تعمد في كثير من الاحيان الى احتجاز مواطنين عرب واستجوابهم ·

لقد اظهر الحصار البحري الذي قامت به « اسرائيل » على المدن الجنوبية درجة التنسيق (المباشر او غير المباشر) بين كل من الانعزاليين والنظام السوري والعدو الصهيوني · وذلك وسط صمت الانظمة العربية و « تعاميها » و « حيادها » غير المعلن ·

من جهة ثانية ، كشف في الاونة الاخيرة مدى اعتماد الاطراف الانعزالية على اسرائيل بالنسبة للتسليح · ولقد ذكر دين براون ، المبعوث الاميركي السابق الى لبنان ، ان « اسرائيل » اصبحت احد مصادر الامداد الرئيسية « للمسيحيين » ، وذلك في ندوة عقدت في العاشر من آب ١٩٧٦ (١٦) · وكشفت مجلة « درشترن » الالمانية ، في عددها الصادر في ١٢ اب ١٩٧٦ ، النقاب عن ان كميات كبيرة من الاسلحة والذخائر التي استخدمت في عملية اقتحام مخيم تل الزعتر كانت « اسرائيلية » · وقالت المجلة ان « جورج اسكندر » احد قادة « جبهة تل الزعتر » اشار ان الانعزاليين تسلموا طائرات من « اسرائيل » في جونية ، بحيث اصبح بالامكان « قصف تل الزعتر من الجو » ·

اما مجلة « التايم » الاميركية ، فلقد ذكرت في عددها الصادر في ١٣ ايلول ، ١٩٧٦، ان بيريز قام باربع زيارات لجونيه ، حيث اجتمع مع مسؤولين انعزاليين ، وان رئيس الوزراء « الاسرائيلي » رابين رافقه في احدى الزيارات · واضافت المجلة أن كتيبة من القوات « المسيحية والمسلمة » تتلقى التدريب على حرب المدرعات في قاعدة تقع على طرف صحراء سيناء ، وان الكتيبة ستعود بعد انتهاء تدريبها ومعها ٣٨ دبابة اميركية من طراز « شيرمان » · واشارت المجلة الى أن « الاسرائيليين » يدربون ابناء القرى الحدودية ·

وتشير صحيفة « الواشنطن بوست » في عددها الصادر في ٢١ تموز ، ١٩٧٦ الى ان المراقبين العسكريين مقتنعين بان بامكان « المسيحيين » الحصول على امدادهم من السلاح مباشرة من مستودعات حكومة (اسرائيل) ·

واشارت الانباء الى أن اعداد كبيرة من المسلحين الانعزاليين قد دخلوا القرى المسيحية الحدودية (رميش ، القليعة ، دبل ، الخ ٠٠٠) عن طريق الارض المحتلة ، وان اولئك المسلحين ينسقون تنسيقا كاملا مع القوات « الاسرائيلية » في لجنوب ٠

واعترفت نشرة لبنان ، التي يشرف عليها الانعزالي سعيد عقل بأنه في حين لن تدخل القوات «الاسرائيلية» الجنوب، فان « اسرائيل » ستستمر في مد الانعزاليين بالسلاح (١٧) ٠

لقد اضطرت « اسرائيل » الى اتخاذ دور اكثر مباشرة في الصراع في الفترة التي وقع فيها الانعزاليون في مأزق ٠ فقبل التدخل السوري العسكري ضد القوات المشتركة، كان الانعزاليون في وضع تراجعي ، بعد ان منيوا بسلسلة من الهزائم العسكرية ٠ ويبدو ان « اسرائيل » بدأت بشحن كميات ضخمة من الاسلحة للانعزاليين في تلك الفترة بالذات ، وذلك في محاولة منها لوقف التقدم الوطني ، ولوقف الخلل في موازين القوى لغير صالح القوى الانعزالية ، وكذلك لتحقيق ربط قطاع من الجماهير اللبنانية بها ، وظهورها وكأنها حليف وصديق ، لا بل « منقذ » لذلك القطاع ٠

كما ان « اسرائيل » ، بسبب احتدام التناقضات ، وازدياد امكانية الحسم تعد نفسها لمواجهة كافة الاحتمالات ، ولعب دور اكبر في الصراع فيما لو اضطرت لذلك ، وربما ايضا تحقيق احلامها التوسعية في الجنوب ٠ و « اسرائيل » تدرك جيدا هشاشة الانظمة العربية ٠ وهي بالتالي تعي ان تغيرا في الوضع السوري لا بد وان يحدث خللا كبيرا وهاما في موازين القوى ، الامر الذي سيكون له بالضرورة انعكاسات خطيرة على « امن اسرائيل » ٠ ولقد اعلن المسؤولون « الاسرائيليون » اكثر من مرة انهم لن يسمحوا للفدائيين بالعودة للانطلاق من الجنوب مهما كلف الامر ٠ من هنا ، فان « اسرائيل » لا تريد ان ينهار النظام السوري وهي غير قادرة على التصدي للظرف الجديد الناشيء وما يتضمن من تعقيدات ٠ ويبدو ان الانعزاليين اللبنانيين مدركين أيضا لابعاد هذه النقطة ، وبالتالي فانهم يجدون في « اسرائيل » حليفا اكثر مصداقية ، واكثر مدعاة للثقة من النظام السوري ٠

واستفاد « الاسرائيليون » من شريط القرى المسيحية التي دخلها اعداد كبيرة من المسلحين الانعزاليين، لتشكيل نوع من الحزام الامني على الحدود الشمالية للارض المحتلة٠ كما انهم خلقوا بذلك ذريعة لتدخل اكثر مباشرة فيما لو دعت الحاجة بحجة حماية « الاقلية المسيحية » في تلك القرى ٠

اسرائيل « الطرف في واجهة الصراع »

كما كانت « اسرائيل المراقبة » شرطا ومدخلا « لاسرائيل السياج اللطيف » ، وكما كانت « اسرائيل السياج اللطيف » كذلك شرطا ومدخلا « لاسرائيل الطرف المباشر في الصراع » ، فان « اسرائيل الطرف المباشر في الصراع » شرط ومدخل « لاسرائيل الطرف في واجهة الصراع » ٠

وفي حين حاولت اسرائيل طوال الفترة الماضية ان تحقق أكبر قدر ممكن من اهدافها

باقل قدر ممكن من الخسائر والاضرار التي تلحق بها ، فان استمرار الصمود الوطني ، وانهيار حلقات المؤامرة الاستعمارية الصهيونية ، سيعيد اسرائيل بالضرورة الى واجهة الصراع ، وبالتالي ستجد نفسها مضطرة لخوض مواجهة عربية ـ اسرائيلية جديدة ، قد ينجم عنها « الحرب الخامسة » ٠

ويمكن القول بالتالي ان «الدور» الاسرائيلي الحقيقي المباشر في لبنان لم يبدأ بعد، بمعنى ان « اسرائيل » التي تمثل جزءا من الاحتياطي الاستراتيجي بالنسبة للمخطط الاستعماري الصهيوني ، لا تزل الى حد ما خارج المشاركة العملية في الصراع ، ولكنها تستعد ـ ككل قوة احتياطية ـ لدخول الحلبة بكامل قواها ، عندما تظهر في الافق ملامح تغيير موازين القوى في المنطقة العربية لصالح قوى التحرر والتقدم وفي طليعتها ثوار فلسطين ، او عندما تقنع ان اوان « قطف الثمار » قد حان ٠ ووجود هذا الاحتياط واعلانه عن استعداده للتدخل عند اللزوم ، يعطي النظام السوري « مبررا » لمتابعة عمله في لبنان لسحق المقاومة والحركة الوطنية ، بحجة « ضبط الامور » و « حماية الامن القومي » (!) ، ويعطي قادة الانعزاليين بالتالي فرصة للحديث (وهذا اضعف الايمان) عن الاستعداد لتحرير كل لبنان «من الفلسطينيين والشيوعيين» ، مع ان هؤلاء القادة يعرفون ان قوتهم لا تكاد تكفيهم لتأمين الدفاع ٠

وهكذا تتدخل « اسرائيل » مباشرة عبر الحصار البحري ، وتسليح الانعزاليين وتدريبهم ، وخلق الجيب « الانعزالي » (الاسرائيلي) في الجنوب ٠ وتتدخل «اسرائيل» ايضا عندما تهدد بالتدخل ، فتعطي ذريعة لعدم ارسال قوات امن عربية بالحجم الذي تتمكن معه من وضع حد للقتال في لبنان ، كما تعطي ذريعة للنظام السوري ليقوم بالدور المرسوم له في المخطط الاستعماري الصهيوني ٠ الا ان التدخل « الاسرائيلي » سيكبر مع سقوط الحلقة الراهنة في المؤامرة ، او عندما تجد « اسرائيل » ان الظرف يسمح لها بقطف ثمار المرحلة الراهنة من التآمر على الامة العربية وتطلعاتها وآمالها ٠

لقد وجدت « اسرائيل » في قلب العالم العربي لتكون اداة لضرب الامة العربية بأسرها ، والرد الطبيعي على ذلك هو ان تكون جميع القوى العربية معبأة لتهديد « اسرائيل » ، واجبارها على استخدام قواتها لحماية حدودها ، واستنزاف هذه القوات في حرب مستمرة يكون للفلسطينيين فيها مكان اساسي بين اخوانهم من المقاتلين العرب٠ ولكن سياسة الردع « الاسرائيلية » ، ومخططات السياسة الامبريالية الاميركية ، وتشابك المصالح الاقتصادية ، اخرجت بعض القوى العربية من المعركة ، وجعلت البعض الاخر (في الاردن ولبنان) يلعب دوره في حراسة الحدود « الاسرائيلية » ، ويضرب المقاومة التي تهدد هذه الحدود ، وتخلق حولها المناخ الملائم لبناء قاعدة الانطلاق لحرب التحرير الشاملة ٠ وفي هذا المجال تدخل الاحداث اللبنانية ، وضمن هذا المنظور يمكن تقييم التدخل « الاسرائيلي » في هذه الاحداث ٠

الحواشي :

* كتب هذا المقال قبل معركة بحمدون وقمة الرياض وما تلاها من تطورات ، ان على صعيد القرار بارسال قوات امن عربية، او على صعيد تفاقم الاوضاع في الجنوب.

ومن جديد ، اضطرت اسرائيل للعب دور اكبر في الاحداث اللبنانية ، فمن جهة عاد الحديث حول « خط احمر» بالنسبة لقوات الامن العربية . ومن جهة ثانية تصاعدت حدة المواجهة في القرى الحدودية في لبنان . وترمي اسرائيل في الفترة الراهنة الى استكمال الحزام الامني على الحدود،ووضع القوى العربية (قوى مؤتمر الرياض) في وجه الثورة الفلسطينية ، وتعميق « تحالفها » مع قطاع جماهيري لبناني ، بالاضافة الى خلق ذريعة لتدخل اكثر مباشرة فيما لو تمكنت المقاومة من تجاوز الضغوطات التي ستتعرض لها من قبل الاطراف العربية . وتجدر الملاحظة ان انكشاف الدور الاسرائيلي ، وازدياده وضوحا ، يعطي الثورة وحركة الجماهير سلاحا هاما في المواجهة ، كما انه يفقد اسرائيل سلاحا هاما وهو رغبتها المتواصلةفي وضع قوى عربية في وجه الثورة ، وتحقيق اهدافها باقل قدر ممكن من الخسائر .

(١) تصريح « جدعون هاوزنر » ، الوزير بلا وزارة في حكومة رابين. « يديعوت احرونوت » ، ٩ ـ ٣ ١٩٧٥.

(٢) السفير ، ٢١ ـ ١١ ـ ١٩٧٥ .

(٣) النداء ، ٣ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ .

(٤) « هآرتس » ، ٧ ـ ٣ ـ ١٩٧٥ .

(٥) « يديعوت احرونوت » ، ١٦ ـ ٦ ـ ١٩٧٥ .

(٦) السفير ، ٢ ـ ١ ـ ١٩٧٦ .

(٧) السفير ، ٢ ـ ١ ـ ١٩٧٦ .

(٨) « نيوزويك » ، ١٣ ـ ١٠ ـ١٩٧٥

(٩) السفير ، ١٦ ـ ١٠ ـ ١٩٧٥ .

(١٠) الانوار ، ١٣ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ .

(١١) الانوار ، ٣ ـ ٦ ـ ١٩٧٦.

(١٢) السفير ، ٩ ـ ٨ ـ ٩٧٦ ١.

(١٣) « دافار » ، ٢٧ ـ ٥ ـ ١٩٧٥.

(١٤) المحرر ، ٤ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ .

(١٥) « دافار » ، ٢٥ . ٦ ـ ١٩٧٦

(١٦) « موندي مورنينغ » ، ٢٣ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ .

(١٧) لبنان ، ٨ ـ ٩ ـ ١٩٧٦ .

وثيقة :

"مشروع كنيغ" بشأن الموقف من العرب في اسرائيل

(ترجمة من العبرية ، نقلا عن صحيفة « عل همشمار » ، ٧٦/٩/٧ ، ص ٤)

(يسرائيل كنيغ هو متصرف لواء الشمال في وزارة الداخلية ـ الجليل ، الذي يضم اقضية عكا والناصرة وطبريا وصفد ، حيث تعيش اكثرية العرب في اسرائيل)

نص المشروع :

مقدمة :

١ ـ سادت الدوائر المسؤولة عن السكان العرب ، حتى قبل وقت قصير للغاية ، اراء تقول ان قبول هذا الجزء من السكان بوجود دولة اسرائيل هو كامل ، وان اكثريتهم تمر في مراحل متقدمة من التماثل مع الدولة والاندماج في مؤسساتها المختلفة . هكذا،على الاقل ، اتضح « للمهتمين » (بالشؤون العربية من بين اليهود) والمقربين الى المراكز الاجتماعية للعرب ، سكان الدولة ومواطنيها .

٢ ـ وقعت اخيرا عدة حوادث مست بهذه الفرضيات ، ووضعت علامة سؤال كبيرة على ولاء جزء كبير من اولئك السكان للدولة ولمجرد وجودها .

لقد ظهرت حقا شكوك حول طريقة التفكير في شؤون عرب اسرائيل ومعالجتها قبل بضع سنوات ، لاسباب ستوضح فيما يلي ، ولكنها كانت متعارضة مع مفاهيم « المستعربين » ولذلك اسكتت حالا . ويبدو لنا انه لا نقاش الان حول ضرورة البحث في « بديهيات » ، كانت تعتبر اسسا مسلما بها حتى الفترة الاخيرة .

٣ ـ بعد اقامة الدولة ، وجدت البقية التي بقيت من السكان العرب ، نفسها دون زعامة . وتكونت اقلية وجدت نفسها ملزمة بالتكيف مع واقع الدولة اليهودية ،

التي تعيش في حالة حرب مع جاراتها العربيات ، وتثبيت نفسها من خلال استعمال القوة ضدهم ·

اما الحكم العسكري ، الذي تسلم اولئك السكان ، فقد قوى سلطة « الوجهاء » ، وانسجم بذلك مع المجتمع العربي القائم على الحمائل والعائلات · وادى الغاء الحكم العسكري الى اهتزاز نفوذ « الوجهاء » ومن دار في فلكهم · وادى اهتزاز علاقة الفرد بالدولة -- الحكم العسكري ـ الى شعور جيل الشباب بالقوة التي يمنحه اياها مجتمع ديمقراطي من ناحية ، وتحول المجتمع العربي من مجتمع زراعي الى صناعي ، مع ما يتبع ذلك من النواحي الاجتماعية ·

وبالاضافة الى ذلك ، اجبر تمرد جيل الشباب ، احيانا ، المتقدمين في السن على الانضمام الى معسكر المتمردين ، وجعل من الدولة هدفا لنضالهم ، اذ لم تكن الظروف جاهزة لارتباطهم بالمجتمع اليهودي والدولة بشكل سليم ومثمر · يضاف الى ذلك اننا ساعدنا ، من ناحيتنا ، على الخروج عن الطوق بمحاولتنا كسب المتمردين « بوسائل » مختلفة ·

خلال الخمسينات ، كان المجتمع العربي مرتبطا من الناحية الاقتصادية بالاقتصاد اليهودي ، الذي انفتح تدريجيا امام العرب على مصراعيه ، نتيجة لهرب العمال اليدويين اليهود من العمل في مجال الاشغال اليدوية · وادى ذلك الى نشوء طبقة ميسورة اقتصاديا ، اصبح حسن سير اقتصاد الدولة متوقفا عليها ، الى حد بعيد ·

٤ ـ مع الغاء الحكم العسكري ، سلمت الدولة مجال الاهتمام بالقضايا العربية الى متحدثين بالعربية (من بين اليهود) ، الذين اختاروا العناصر الشرسة (من بين العرب) وجعلوا منهم زعماء ، من خلال تدعيم مراكزهم وقواهم للحصول على منافع مادية لهم وللمقربين منهم · وقاموا بذلك متجاهلين المشاكل الاجتماعية في الوسط العربي من ناحية ، وانعدام التخطيط للمدى البعيد بشأن خلق نموذج مواطن عربي موال للدولة من ناحية ثانية ·

وكانت المقاييس لتقييم العاملين في المجال العربي ، على المستوى السياسي والعسكري وفي الشرطة وفي المجال المدني ، هي مقاييس العقلية العربية · ولم تلاحظ على هؤلاء العاملين دائما علائم المقدرة على التفكير والتنفيذ بمستوى يفوق مستوى السكان الذين يفترض معالجة مشاكلهم ، وكان ذلك يجري بدلا من المحافظة على مستوى التفكير المستقل والقدرة على تحليل الظواهر المزعجة من ناحية ، ومحاولة حل المشاكل من خلال تفكير موضوعي يؤمن المصالح اليهودية ـ القومية على المدى الطويل من ناحية ثانية ·

٥ ـ ان واقع لواء الشمال ، حيث تعيش اكثرية عرب اسرائيل ، وموقعه الجغرافي ووضع السكان اليهود فيه يبرز بشكل ملموس المشاكل التي نشأت حديثا ، وما قد ينجم عنها على المدى القريب والبعيد · واحدى الظواهر الاكثر اقلاقا هي فقدان اليهودي لصبره تجاه المواطن العربي ، وفي بعض الاحيان يمكن ان نلحظ عداء ، قد يدفع بعد تحرش بسيط الى انفجار غير مرغوب فيه ،وتصعب السيطرة عليه ، وتكون

له نتائج واصداء سلبية في البلد ، وخصوصا في الخارج · (انظر قرارات منظمةالطلبة العرب الجامعيين في حيفـــا بشأن عـدم القيام بحراسة مساكـن الطلبة ، عندما سمـــح لهم بدفع بدل حراسة) ·

وهناك عامل قوي يؤدي الى مضاعفة هذا التوتر النفسي بين السكان اليهود ، وهو اهتزاز التوازن الديمغرافي في المناطق ، وهو اهتزاز يشعر به كـــل فرد (يهـــودي) ويخشـــاه ·

وفي اطار هذه المذكرة ، سنشير الى عدد من المسائل المعقدة ، من خلال شـــرح ارضيتها ، ونقدم توصيات لحلها ·
اما المواضيع التي ستبحث فهي :

١) المشكلة الديمغرافية ، وظواهر القومية العربية ·

ب) الزعامة العربية وانعكاساتها ·

ج) الاقتصاد والتشغيل ·

د) التعليم ·

هـ) تنفيذ القانون ·

أ ـ المشكلة الديمغرافية وظواهر القومية العربيـــة

١ ـ يبلغ التكاثر الطبيعي للسكان العرب في اسرائيل نحو ٩ر٥ ٪ في السنة ، مقابل تكاثر طبيعي للسكان اليهود بمعدل ٥ر١ ٪ في السنة ·

ان هذه المشكلة شديدة بشكل خاص في لواء الشمال ، الذي يضم عددا كبيرا مـــن السكان العرب · ويبلغ عدد أولئك السكان ، في منتصف ١٩٧٥ ، في لواء الشمال نحـو ٢٥٠ الف نسمة ، بينما بلغ عدد اليهود نحو ٢٨٩ الف نسمة · واذا نظرنا بحسب الاقضية، نرى انه في الجليل الغربي تبلغ نسبة العرب نحو ٦٧ ٪ من السكان · وفي قضاء يزراعيل (أي الناصرة) تبلغ نسبتهم نحو ٤٨ ٪ من السكان · وخلال سنة ١٩٧٤ ، زاد عـــدد السكان اليهود في لواء الشمال ٧٥٩ نسمة ، بينما زاد عدد السكان العرب ٩٠٣٥ نسمة · وبحسب نسبة الزيادة هذه ستصل نسبة السكان العرب في هذا اللواء الى ما يزيـــد على ٥١ ٪ سنة ١٩٧٨ ·

ويشعر القوميون ـ وهذا تقديري أيضا بالنسبة للسكان العرب ـ ان تكاثرهـــم في الجليل يكمن فيه الخطر الذي يهدد مجرد سيطرتنا على المنطقة ، ويفتح المجـــال لدخول قوات عسكرية من الشمال الى اسرائيل ، ويؤثر في تعاظم الشعور القومي لـدى

عرب اسرائيل واستعدادهم للمساهمة في ذلك ٠

٢ ـ حصل لدى السكان العرب في اسرائيل زخم قومي منذ حرب الايـــام الستة ٠ فسياسة الاتصال الحر مع الضفة الغربية وسياسة الجسور المفتوحة ادت الى تجديد اللقاء بين عرب يهودا والسامرة وفلسطينيي شرق الاردن من جهة ، وعرب اسرائيل من جهـــة اخرى ، وخلقت اساسا للوقوف بهامات مرفوعة ، وخلقت ارضية لشعارات النضال القومي في اسرائيل ٠ هذا التطور الحتمي وجد قوة دفع اضافية بسبب نتائج حرب يوم الغفران (حرب اكتوبر ـ ١٩٧٣ ـ المترجم) وتدعم بسبب الاحداث السياسية الدولية التي تم التعبير عنها بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كحاملة للواء النضال من اجـــل القضيـة الفلسطينية ٠

ويتردد في الاونة الاخيرة ذكر قرار الامم المتحدة حول حدود اسرائيل في العـــام ١٩٤٧ والذي بموجبه تقع اقسام كبيرة من هذه المنطقة خارج حدود دولة اسرائيل ٠

ان العربي الاسرائيلي لم يعد محمولا ، فقد انتقل الى حالة التعبيـــر عن قوميتـه كلاميا فقط في هذه المرحلة ٠ وقد ظهر هذا في عدة احداث هذه ابرزها :

أ) في اثناء زيارة رئيس الحكومة الى الناصرة قبل سنة ٠

ب) الهتاف بشعارات تأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية في اثناء المظاهرات والمناسبات الاخـــرى ٠

جـ) موقف الطلبة العرب في الجامعات من موضوع الحراســـة ٠

د) التعبير عن الشعور القومي عن طريق الاقتراع في انتخابات بلدية الناصرة التي جرت في ٩ ـ ١٢ ـ ١٩٧٥ ٠

هـ) تطوع سكان الناصرة غير العادي وغير المتوقع لمساعدة بلدية الناصرة عن طريق تسديد اقساط مستعجلة لخزينة البلدية الامر الذي يساعد حزب ركـــاح (القائمـــة الشيوعية الجديدة) في هذه المرحلة على تسيير ادارة المدينة ٠

و) اجتماع احتجاجي شعبي في قرية سخنين بتاريخ ٧٥/١٢/١٤ وقد اعلـــن رئيس بلدية طمرة في هذا الاجتماع ان على اسرائيل ان تخشى عرب اسرائيل اكثر ممـــا تخشى العرب خارج حدودها ٠

ز) القرارات التي اتخذت خلال اجتماع عقد في الناصرة يوم السبت الموافق ٧٦/٣/٦ وهـــي :

١ ـ اعلان الاضراب العام لدى سكان اسرائيل العرب ليوم واحد ، واعطـــاء ذلك

اليوم اسم « اضراب يوم الارض » ٠

٢ ـ دعوة السكان العرب الى عدم الاكتفاء بالاحتجاج السلبي بل « الاحتجاج عن طريق النضال وانهاء النضال فقط في آخر المطريق ٠٠٠ »

٣ ـ الاضراب عن الطعام امام مباني الامم المتحدة باسلوب الاحتجاج نفسه الذي يجرى بشأن سجناء صهيون ٠

٤ ـ « الحكومة بيتها من الزجاج وعلينا ان نكون اول من يرمي الحجارة لتحطيم هذا البيت » ٠

٥ ـ قول رئيس بلدية معليا ـ مسعد قسيس ـ المعتبر شخصيا « ايجابيا » ، وهو نائب سابقلقائمة تابعة للمعراخ (في اجتماع الناصرة المذكور) : « ٠٠٠ ما هو حق اسرائيل المعنوي في مصادرة الاراضي في هذه المنطقة التي تقع بموجب قرار التقسيم من عام ١٩٤٧ ، خارج دولة اسرائيل » ٠٠

هذه الظاهرة تعتبر جديدة نسبيا وتشير الى رغبة جزء هام من السكان في الاحتجاج ضد الحكم الاسرائيلي ولو بنبرة منخفضة ٠ وهذه حقيقة خطيرة جدا بالمقارنة مع سلوكهم في الماضي ٠

ان عهد انتصارات الفلسطينيين في العالم ومكاسب القوميين في اسرائيل تشير الى اتجاه نحو مواجهة مكشوفة مع المشكلة العربية في اسرائيل ٠ وهذا الاتجاه سوفيتعاظم طالما انفرد حزب ركاح (القائمة الشيوعية الجديدة) في حمل لواء معارضة مؤسسة الحكم الاسرائيلية ٠ (يجب ان نذكر ان كلمة « اسرائيل » لا تظهر في اسم ركاح وليست هذه مجرد صدفة) ٠

٣ ـ توقعات

١) تكاثر السكان العرب (من ٠٠٠ر١٥٠ نسمة سنة ١٩٤٨ الى ما يزيد على ٠٠٠ر٤٣٠ نسمة سنة ١٩٧٥) يعطي القوميين العرب احساسا بالقوة والامل ، بان الوقت يعمل لصالحهم ٠ خصوصا في منطقة مثل شمال البلاد ، حيث يشكل الوجود العربي الكثيففي مناطق متصلة ، حاجزا مانعا ٠

ب) ان سيطرة حزب ركاح على مؤسسات « شبه حكومية » مثل المجالس المحلية ليعطي قاعدة قانونية لنشاطات قومية سياسية علنية وسرية ، من خلال تبني الاساليبالتي كانت متبعة في التجمعات السكانية اليهودية « قبل الدولة » وكذلك اساليب شيوعية مألوفة في العالم ٠ وفي الواقع توجد اليوم عدد من المجالس المحلية تحت سيطرة ركاح وفي رأينا ان هذه المجالس غير مستغلة ، عن سابق تعمد ، للقيام بالوظائف المذكورة ، بسبب غياب كوادر كافية للتنفيذ ، وبسبب فقدان الامكانات التنظيمية الكافية لذلك ٠ وفي

رأينا ان عدد الطلاب في جامعات اوروبا الشرقية الحاصلين على منح من ركاح يتزايد باستمرار بغرض اعداد هذه الكوادر ٠

ج) هناك خوف جدي من انه خلال العقد المقبل ستنفذ عملية استيلاء عربية من الناحية الديمغرافية والسياسية على عكا ومنطقة الناصرة ٠

د) يجب الاخذ في الحسبان انه في احدى مراحل العمل السياسي المعادي قد يطلب بشكل أو بآخر اجراء استفتاء عام في شمال البلاد في الوقت الذي يشكل فيه العرب اغلبية السكان ٠

هذا العمل سيحدث بتوجيه من الخارج ، ولكن القائمين به قد يكونون يساريين ـ قوميين من أوساط السكان العرب في الدولة ٠

هـ) قد يحدث في مرحلة معينة تنفيذ عمل استفزازي مخطط له بواسطة ركاح (او بواسطة عرب بغرض حدوث هيجان لدى عناصر يهودية غير منضبطة ، الامر الذي من شأنه ان يؤدي الى عرض موضوع عرب اسرائيل على المنابر الدولية ، ومن شأنه ايضا ان يدفع المعتدلين من عرب اسرائيل الى حالة يضطرون فيها الى تأييد خطوات متطرفة داخل الدولة وخارجها ٠

و) بدأت تظهر عمليات منظمة لشراء العرب عقارات في مناطق الشمال ويظهر ذلك بشكل بارز في الناصرة العليا وعكا ويظهر بشكل مثير للقلق في مرج ابن عامر ٠

٤ ـ اقتراحات

أ) يجب توسيع وتعميق الاستيطان اليهودي في المناطق التي تبرز فيها الكثافة السكانية العربية ويزيد فيها عدد السكان العرب على عدد السكان اليهود بدرجة تزيد عن الحد المقبول ، ويجب درس امكانية تخفيف عدد السكان في التجمعات السكانية العربية القائمة ٠

يجب توجيه اهتمام خاص الى مناطق الحدود في شمال غرب الدولة ومنطقة الناصرة ٠ التوجه وسرعة التنفيذ يجب ان يخرج عن اطار المألوف الذي كان متبعا تجاه هذه المواضيع حتى الان ٠ وبموازاة ذلك يجب تطبيق قوانين الدولة بغرض تقييد « عمليات الاستيطان » العربية في أقسام الدولة المختلفة ٠

ب) يجب في الوقت نفسه الاهتمام بايجاد زعامة يهودية قوية وثابتة في الناصرة العليا (اليهودية) وفي عكا تكون قادرة على مواجهة التطورات الخطيرة المتوقعة ٠

ج) اتباع سياسة الثواب والعقاب (ضمن القانون) بالنسبة الى القادة والقرى الذين يتكلمون بأية صورة معادية للدولة وللصهيونية ٠

د) من اجل تجريد حزب راكاح من « الزيادة » في حمل لواء النضال القومي وتمثيل عرب اسرائيل ولاعطاء متنفس للجالسين على « الحافة » يجب تأسيس حزب شقيق لحزب العمل يكون التركيز فيه على مبادىء المساواة والانسانيات والثقافة واللغة والنضال الاجتماعي ورفع علم السلام في المنطقة · وعلى المؤسسات الحكومية ان تهيء نفسها من اجل ان يكون لها وجود خفي في هذا الحزب وان تتحكم فيه ·

هـ) يجب اتباع سياسة تنسيق كامل ومطلق بين الوزارات والهستدروت والسلطات المحلية خصوصا في المستوى التنفيذي على الطبيعة والاصرار على التنفيذ بصورة صارمة·

و) بذل كل جهد ممكن من أجل التوصل الى وفاق قومي بين كل الاحزاب الصهيونية حول موضوع عرب اسرائيل بغرض اخراج هذا الموضوع عن مجال الصراعات السياسية الداخلية ·

ب ـ الزعامة العربية وتأثيرها

ا ـ المجتمع اليهودي الديمقراطي والمفتوح والذي وجد السكان العرب الذين بقوا في البلاد أنفسهم فيه بعد قيام الدولة لم يستوعبهم سواء من ناحية التقاليد والانفتاح · واليهود الذين اوكلت اليهم مهمة معالجة شؤون هؤلاء السكان العرب وكان هدفهم جعل هؤلاء السكان مخلصين لمجتمع اليهود الذي قام في دولتهم لم ، ينجحوا في ذلك · بل بالعكس ، هناك دلائل واضحة على ان كل الخطوات اتبعت من اجل الحفاظ على طابعهم الخاص وعزلهم من جهة وعلى محاولات ترمي الى كسب اهتمام انتقائي ومعاملة خاصة ومميزة من جهة اخرى ·

ومع ذلك سمعت التصريحات صباحا ومساء حول المساواة والاندماج وغير ذلك ولكن الافعال كانت مناقضة تماما · هذه السياسة لم تأخذ في الحسبان الطبيعة العربية الشرقية السطحية غير المتعمقة والتي تتميز بعمل الخيال اكثر من عمل العقل ·

التعبير الحاد لهذه السياسة المتناقضة هو « تتويج » ممثلين وزعماء للسكان العرب· حتى اليوم لا يوجد أي مسؤول عربي « ايجابي » منتخب على المستوى المحلي ·

ان المجتمع العربي في اسرائيل، الذى يمر بمخاض الانتقال من مجتمع زراعي ذي اسس قائمة منذ اجيال الى مجتمع صناعي والى تحطيم الاطارات العائلية والدينية والاجتماعية يعاني بالاضافة الى ذلك من الضياع القومي ·

هذا الضياع يتميز بالخطورة ويضع كل فرد امام قرارات حاسمة واحيانا مصيرية · ان مجتمع فترة الانتقال في هذه المراحل في حاجة الى قادة قادرين على ان يكونوا نموذجا شخصيا وان يتملكوا الصفات التي تمكنهم من الاجابة عن اسئلة المرتبكين المخلصين ومن سوقهم الى الحل المعقول على الصعيد الشعبي والشخصي ·

ولكن كما ذكرنا في المقدمة لم يكن هذا الاختبار هو الاساس للحصول على شهادة « زعيم » بل أن الشخص العنيف صاحب السطوة الذي قلما يكون انسانا مستقيما يصبح ممتلا لرافعي لواء عرب اسرائيل ٠

٢ ـ الجيل الثاني الذي تربى في المجتمع الاسرائيلي ويحاول ان يكتسب ولو بصورة سطحية فقط اساليب الحياة الاسرائيلية لا يستطيع ان يتقبل هؤلاء الزعماء ٠ لقد كان من الممكن ملاحظة علامات على ذلك منذ عشر سنين ، وكان من الواجب على المسؤولين المختصين بهذه المواضيع أن يخلقوا شخصيات مقبولة بالنسبة للجيل الثاني وان يخلقوا مع ذلك اخلاصا تجاه الدولة ٠ وفي رأينا انه اذا كان هذا التقصير قد نجم عن عدم مقدرة او عن تعمد ، فان نتائج ذلك من الممكن ان تنطوي على كارثة ٠ ان احد الدوافع الاساسية للتردي الواقع اليوم هو التحفظ على هذه الزعامة (انظر انتخابات بلدية الناصرة) ٠

٣ ـ توقعات

أ) الصراع بين ذوى المناصب المختلفة والجيل المتمرد سوف يتصاعد بينما سيكون الاوائل معتمدين في الاساس على مؤسسات الحكم الهستدروتية والحزبية ٠

ب) ستكون النتيجة أن الصراع على السلطة والمنصب سيتحول الى صراع ضد مؤسسة الحكم والدولة ، والاكثرية ستنتقل باستمرار الى جانب المتمردين ٠

ج) العناصر المعادية للدولة سوف تستغل بشكل واسع هذه الأزمة الاجتماعيةوسوف تجيرها لمصالحها واصداء ذلك سوف تستغل من على منابر مختلفة في الداخل والخارج كنضال اجتماعي وقومي ٠

د) في رأينا ، اذا استمر التدهور على الوتيرة الحالية ، فسوف ينجح حزب راكاح بعشرة نواب في الانتخابات المقبلة للكنيست ٠

٤ ـ اقتراحات

أ) يجب اتخاذ خطوات جريئة يجرى بموجبها تغيير معظم العاملين في القطاع العربي التابعين للاجهزة الحكومية والشرطة والاحزاب بما في ذلك واضعي السياسة ٠

ب) يجب التخلص من « الزعامة » العربية الحالية التي لا تمثل السكان العرب والتأكيد على عدم تضامن الحكم معهم ٠

ج) على أولئك الذين توكل اليهم المهمة البدء مباشرة ببناء شخصيات جديدة ذات مستوى ثقافي واستقامة شخصية تتمتع بمواهب قيادية ، ومساعدتها على تأسيس حزب عربي كما ذكرنا اعلاه ٠

د) يجب تعيين لجنة خاصة (من الاستخبارات العامة) مهمتها تقصي السلوك الشخصي لقادة راكاح والشخصيات السلبية الاخرى ونشر هذه المعلومات امام جمهور ناخبيهم ٠

هـ) اتخاذ خطوات فردية ضد كل شخصية سلبية في كل المؤسسات والمستويات ٠

جـ ـ الاقتصاد والعمل

١ ٠ النمو والرخاء الاقتصادي اللذان مرا على سكان الدولة خلال سنوات وجودها شملا ايضا السكان العرب ٠ وفي الحقيقة يبرز هذا الامر بشكل اوضح في ضوء كون معظم الذين بقوا في حدود الدولة بعد معارك ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ هم من الفقراء٠ان الفارق الشاسع بين العرض والطلب على الايدي العاملة في الاقتصادبكل فروعه وخاصة فرع البناء وورش اصلاح السيارات وكل الاعمال اليدوية بشكل عام ، والتبعية التي تميز فروع اقتصاد كثيرة مرتبطة بهذه الايدي العاملة،اعطت شعورا بالقوة لعرب اسرائيل الامر الذي استغلته الجهات المهتمة بذلك ٠

٢ ٠ المساعدة المتبادلة المألوفة حتى اليوم بين افراد العائلة ، وعدم وجود وعي حول توظيف المال في مشاريع انتاجية اكبر من المشاريع متوسطة الحجم ، ادت الى تراكم فائض اموال نقدية كبير جدا في ايدي السكان العرب ٠ هذه الاموال تخفى عن سلطات الضرائب المختلفة ٠ ويجب التأكيد على انه بينما يشكل عدد السكان العرب ١٤ ٪ ولا تحصل لديهم ظاهرة « اقتلاع » الايدي العاملة عن طريق التجنيد للخدمة العسكرية لمدة ٣ سنوات،فان مجموع الضرائب التي يدفعها السكان العرب هو ١ر٥ ٪ فقط ٠ وهكذا يؤمن السكان العرب بصورة اساسية ، مستقبلهم الاقتصادي ٠ كذلك فان تركيب الاعمار (نصف السكان شباب عامل) له مدلول هام : دخل عال لكل عائلة ٠ وبالاضافة الى ذلك هناك منح حكومية (التأمين الوطني) للعائلات التي يزيد عدد اولادها على الاثنين (٩٥ ٪ من العائلات العربية في اسرائيل) ٠

٣ ٠ هناك موضوع بارز بشكل خاص في المنطقة الشمالية ، بسبب التجمع السكاني العربي الكبير فيها وهو المشاريع التي تقيمها الدولة في المنطقة وتوظف لها اموالا ضخمة بغرض زيادة عدد السكان اليهود ٠ هذه المشاريع تجعل عدد العمال العرب فيها يصل الى نسبة تتراوح بين ٢٥ ٪ و ٥٠ ٪ ٠

الطمأنينة الاجتماعية والاقتصادية هذه ، التي تحرر الفرد والعائلة من القلق والهموم اليومية تمنحهم من حيث يدرون او لا يدرون متسعا من الوقت للتفكير في امور «اجتماعية ـ قومية» وهذه الافكار تستغلها عناصر معادية لتوليد ظواهر الغليان والتذمر على انواعها ولخلق شعور بالقوة وبوجود امكانات الاحتجاج الشعبي ٠

٤ ٠ توقعات

١ ـ تجميع الاموال وخاصة السوداء منها (المهربة من الضريبة ـ المترجم) في ايد

غير مرغوب فيها ، وهي تقدر بمئات الملايين ، من الممكن ، بالاضافة الى الضرر الاقتصادي الناجم عن ذلك ، ان تشكل قاعدة للتبرعات التي تجمعها عناصر معادية (ذكرنا كيف جرى التطوع لدفع الاقساط لبلدية الناصرة) ٠

ب ـ كثرة عدد العمال العرب في المصانع والمشاريع قد يؤدي الى الاسراع في عملية الاحتكاك بين اليهود والعرب ، ومن شأن ذلك ان يتطور الى اصطدامات غير مسيطر عليها ٠ وبالاضافة الى ذلك هناك امكانية سيطرة حزب « ركاح» على لجان العمال ٠

ج ـ ان تركيز السيطرة على قطاعات اقتصادية معينة يمكن العرب من الاضراب او عدم التعاون مما سيؤدي الى اضرار اقتصادية بالغة للدولة وعلى الخصوص اضرار سياسية عن طريق ابراز وزنهم كعامل مهم في اقتصاد الدولة ٠

د ـ هناك مصاعب آخذة في التفاقم بالنسبة لاستيعاب مستخدمين يهود خاصة في الشمال حيث هناك اهتمام خاص بزيادة عدد السكان اليهود على انواعهم ٠

٥ ـ اقتراحات

أ ـ يجب وضع اتفاقات مناسبة مع كل ادارة مشروع او معمل خاضع ل « قانون استثمار رأس المال » في المناطق الحساسة (كما ذكرنا اعلاه) بحيث لا يزيد عدد العمال العرب فيها على نسبة ٢٠ ٪ ٠

ب ـ على سلطة الضرائب اتخاذ خطوات سريعة لتعميق الجباية ولتنفيذها بصورة صارمة وبدون اي استثناء ٠

ج ـ يجب التوصل الى تسوية مع مصادر التسويق المركزية للمواد الاستهلاكية على انواعها ، يكون من شأنها تحييد الوكلاء العرب ووضع العقبات امامهم خاصة في منطقة الشمال بغرض منع اعتماد السكان اليهود على الوكلاء العرب وخاصة في اوقات الطوارىء ٠

د ـ على الحكومة ايجاد طريقة يمكن بواسطتها تجنب اعطاء المنح للعائلات عديدة الاولاد لدى السكان العرب اما بواسطة ربط المنحة بالوضع الاقتصادي او بواسطة مصادرة هذه الاموال من التأمين الوطني واعطائها للوكالة اليهودية او المنظمة الصهيونية بحيث تكون مخصصة لليهود فقط ٠

هـ ـ العمل على ايجاد وضع تهتم فيه المؤسسات المركزية بتفضيل ترسيخ الاطارات والافراد اليهود مكانة العرب ٠

د ٠ التعليم

١ ٠ ان اهم وابرز تغيير في مفاهيم وسلوك السكان العرب يعود الى تعميق وتوسيع

شبكة التعليم في وسطهم ٠

ان التحسن في الوضع الاقتصادي والامن الاجتماعي لدى الفرد والعائلة ، دفع عددا كبيرا من الطلبة الى المدارس الثانوية ومعاهد الدراسة العليا ٠ هذا الاتجاه دفع الى تطبيق رسم التعليم المتدرج (٦٦ ٪) في المدارس الثانوية ٠ ان الدعم المالي وسياسة المنح لطلبة الجامعات اللذان خلقا مجتمعا طالبيا مثقفا ولو بصورة سطحية وريفية ، يشكلان « الخميرة » لكل حركة قومية وخاصة في مثل ظروف عرب اسرائيل ٠ هذا هو الوضع الحاصل (انظر احداث الجامعات)٠ لقد كان من الواجب على المسؤولين عن هذا القطاع توقع هذه الاحتمالات ومن الواجب منذ الان فصاعداً التخطيط الدقيق من اجل التنسيق بين الاجهزة المختلفة ومن اجل القيام بالنشاطات الواجبة بالنسبة لمجموعة الخريجين على انواعهم ٠

٢ ٠ وضع اسس تفضيلية (علامات منخفضة) لقبول الطلبة العرب في الجامعات والمعاهد العليا على انواعها والمواضيع التي يوجهون اليها (الاداب ، العلوم السياسية، علم الاجتماع) وعدم وجود اهتمام وامكانات لاستيعاب الخريجين للعمل ، كل ذلك ادى الى وجود مجموعة كبيرة من « المثقفين » المتذمرين والذين لديهم حاجة نفسية عميقة تدفعهم الى البحث عن متنفس لتذمرهم ٠ هذا الامر يجد تعبيرا له في معاداة مؤسسة الحكم الاسرائيلية والدولة ٠

هذه المشكلة تتخذ طابعا خطيرا جداً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان عدد الخريجين يزيد على ٥٧٠٠ خريج وان عدد الطلبة العرب في المعاهد العليا اليوم يصل الى حوالي ٢٥٠٠ طالبا ٠

٣ ٠ توقعات

أ – بسبب صعوبة الاعتراف موضوعيا بالتخلف المهني سوف يتعمق الشعور بالتذمر وفي الوقت نفسه سوف يزداد باستمرار عدد الخريجين المتذمرين ٠

ب – عند اخذ الطبيعة الشرقية بعين الاعتبار وبسبب الديناميكية الاجتماعية سينتقل هذا المجتمع من الاتجاه نحو الداخل الى التعبير نحو الخارج ، ويجب ان لا نتجاهل امكانات التنظيم والانتقال الى العنف والدلائل الاولية على ذلك اصبحت قائمة ٠

ج – رفع لواء النضال الاجتماعي والقومي والتأييد العلني لمنظمة التحرير الفلسطينية وحتى لمنظمات اكثر تطرفا ٠

د – هناك امكانية معقولة لنجاح بعض القادة على اساس انهم ابناء المجتمع المحلي التقدمي الذي نشأوا فيه وما من شك في ان بعض هؤلاء سيتمتعون بصفات القائد ٠

هـ – يجب عدم تجاهل الصعوبات التي ستواجه الحكومة عندما تريد اتخاذ التدابير

ضدهم في الاوقات الحرجة وذلك بسبب مستواهم الشخصي ٠

٤ ٠ اقتراحات

أ ـ يجب الاحتفاظ باسس خاصة بالنسبة لليهود ازاء قبول الطلبة الى المعاهد العليا وكذلك بالنسبة لاعطاء المنح الدراسية ٠

المحافظة على هذه القواعد سينشأ عنها انتقاء طبيعي وستقلل بشكل كبير عدد الطلاب ، هكذا سيقل عدد الخريجين ذوى المستوى المنخفض مما سيسهل استيعابهم في العمل بعد انهاء دراستهم ٠

ب ـ يجب تشجيع توجيه الطلبة الى المواضيع الفنية والمواضيع الاساسية وعلوم الطبيعة ٠ فمثل هذه المواضيع لا تعطي الا القليل من الوقت للانشغال بالقومية وفي الوقت نفسه مستوى الرسوب فيها مرتفع ٠

ج ـ تسهيل السفر الى خارج البلاد بغرض التعليم ووضع العراقيل امام عودتهم وانخراطهم في العمل فمثل هذه السياسة من شانها ان تشجع هجرتهم ٠

د ـ يجب اتخاذ تدابير صارمة في كل المستويات ضد المحرضين على انواعهم في اوساط المعاهد العليا ٠

هـ ـ اعداد خطة مسبقة لاستيعاب القسم الاكبر من الخريجين حسب مؤهلاتهم ٠ هذه السياسة من الممكن تطبيقها حسب المهلة (عدة سنوات) التي بها يخطط المنفذون لخطواتهم٠

هـ ـ تطبيق القانون

١ ٠ ان وجود القانون وتطبيقه بواسطة الحكم يعبر عن المصلحة الشعبية للمجتمع وتفضيلها على مصلحة الفرد ٠ وفي اطار هذا الموضوع يكون الحرص على الامن الداخلي بكل ما ينطوي عليه من معاني المصلحة القومية والمصلحة اليهودية العليا عامة ٠

ان تطبيق قوانين الدولة في مجتمع يجري بناؤه كما هو الحال في اسرائيل انما هو مشكلة يجب من اجل حلها اتخاذ جانب من اللين والحذر ومنتهى الحكمة ولكن الى جانب ذلك على السلطة التنفيذية العاملة في القطاع العربي ان تؤكد على مراعاة القانون تطبيقه ومنع التدهور ٠

لقد ذكرنا اعلاه كيف اتبعت وسائل متناقضة تجاه هؤلاء السكان العرب ٠ فهؤلاء السكان اصبحوا يعون استنادا الى وقائع انه من الممكن خرق القانون بواسطة اقامة علاقات مناسبة مع اشخاص مناسبين ٠ ان هذه العادات مع ما تسببه من ضرر بالمصلحة العامة بشكل عام ، فانها تظهر علاقات ضعف في الحكم الاسرائيلي في اعين عرب اسرائيل

مما يجعلهم يتوقعون المزيد من التنازلات فيما اذا مارسوا المزيد من الضغط (النمـــاذج على ذلك كثيرة) ٠

٢ ٠ من الصعب ايجاد تفسير مقبول للجباية المنخفضة للضرائب ، لدى كل طبقات السكان العرب بالمقارنة مع ما يجبى من السكان اليهود ٠ وهكذا هو الحال بالنسبة للبناء غير القانوني ٠ وعدم مراعاة القانون فيهذا المجال قد يؤدي الى اضرار خطيرة بالنسبة للامن الداخلي في مناطق واسعة في شمال البلاد وكذلك في المنطقة الوسطى منها ٠

يجب ان نتذكر وان نتعلم من تجارب دول اخرى ذات اقليات قومية أن الليبرالية الزائدة وغير المراقبة لا تؤدي الى النتائج المرجوة بل الى العكس ٠ وبصورة خاصة تنطبق هذه القاعدة على مجتمع مثل الاقلية العربية في اسرائيل (كما فصلنا اعلاه) ٠

٣ ٠ توقعات

أ ــ في مجتمع قائم على القانون ، تنتج عن عدم مراعاة القانون وبصورة علنيـــة ، ديناميكية لمخالفة القانون يتطلب لجم تدهورها جهودا مضنية فيما بعد ٠

ب ــ يجب لفت الانتباه الى انه مع الوقت قد يؤيد يهود كثيرون بسبب دوافع مختلفة مجتمعا يخالف القوانين ٠ واذا ما حاول الحكم جعلهم يطبقون القانون سيتهمونـــه بـ «الاضطهاد » ٠

ج ــ يجب عدم تجاهل عدد السكان العرب ــ ١٤ ٪ اذ ان مخالفة هذه النسبـــة من السكان للقانون قد تتخذ طابع « التمرد » ٠

د ــ عوامل معادية داخل الدولة وخارجها قد تستغل تطبيق القوانين التي لـــم تطبقها السلطات خلال فترة طويلة بحجة الاضطهاد القومي وغير ذلك ٠

٤ ٠ اقتراحات

أ ــ يجب ارشاد كل العاملين في القطاع العربي الى عدم التغاضي عـــن مخالفـة القوانين وعلى وجوب تطبيقها كما جاءت في النص الحرفي ٠

ب ــ يجب اتخاذ تدابير قضائية ضد موظفي الدولة والمؤسسات الاخرى الذين لا يؤدون واجبهم في تنفيذ القوانين ٠

ج ــ تقديم دعاوى وتنفيذ عدد من الاحكام خاصة في مواضيع ضريبة الدخل والبناء غير القانوني لكي يرتدع السكان العرب عن التفكير بامكانية التهرب مـــن السلطـــات القانونية ٠

د ــ يجب تعزيز وجود قوات الشرطة والامن على انواعها في الشارع العربي من اجل

ردع اوساط متطرفة و « محايدة » قد تنجر الى اعمال التمرد والمظاهرات ٠

١ ـ ٣ ـ ٧٦

بعد ٣٠ اذار

اقتـــراح رقم ٢

١ ٠ كتتمة لمذكرتي السابقة وبموجب التطورات واحداث يوم الثلاثين من اذار ومـا اعقبه ارى من واجبي تحليل ذلك وتقييمه وعرض التوقعات المحتملة في المستقبل القريب ، وعدد من المقترحات التي ارغب في تنفيذها عاجلا ٠

النجاح الكلي للاضراب في القطاع العربي هو حقيقة يجب درسها جيدا واخذهـــا كحقيقة قائمة وكمنطلق لكل بحث في هذا الموضوع ٠

ان نجاح الاضراب وحجمه كان لهما عدة عوامل يجب الوقوف عليها وهي :

أ ـ لا توجد اية امكانية لفحص نسبة او عدد العرب الذين حضروا للعمل خـــارج اماكن سكناهم ٠

مع ذلك فانه داخل القرى والمدينتين ، التي يتركز فيها السكان العرب ،كان الاضراب كاملا ٠

ب ـ سيطرة منظمي الاضراب على مؤسسات التعليم بكل انواعها في القطاع العربي، بما في ذلك المؤسسات الكنسية ، كانت مطلقة ٠

ج ـ حملة الاقناع بضرورة الاضراب بدأت بواسطة مصادر « رسمية » كرؤســـاء مجالس محلية وشخصيات عامة تعتبر عادة معتدلة ومتعاونةمعمؤسسة الحكم الاسرائيلية٠ يجب الاعتراف بان هذه الاوساط فعلت ما فعلته بتأثير الانطباع ان موظفين حكوميـــين كبارا يقفون الى جانبهم وان « تدخل » السكان العرب سيقنع الحكومة بان تمتنع عن تنفيذ المصادرة (مصادرة الاراضي) ٠ وقد تنافسوا في هذه المناسبةعلى اطلاق التصريحـــات المتطرفة مفترضين ان من يكون كلامه اقوى ستكون مكاسبه اكبر ٠

د ـ في مرحلة متأخرة جدا وبعد ان اكتشفوا خطأهم لم يستطع الزعماء الرسميون العرب ـ اي رؤساء المجالس المحلية وغيرهم ـ التراجع ، اذ ان التدهور الذي تسببوا فيه جرفهم هم ايضا ٠

ان محاولات اليهود الحيلولة دون الاضراب لم تنجح ٠ وادت الى تباين عميق بيـن السكان العرب وممثليهم المنتخبين بمجرد حدوث الاضراب والاحداث التي رافقته ٠

هـ قام منظمو الاضراب بحملة ارهاب شديدة ضد مخالفي الاضراب وصلت الـــى حد استعمال العنف ونجحوا في ذلك ٠ ان وعود مؤسسة الحكم بتأمين حماية كاملـــة

لكل من يخالف الاضراب لم تكنموثوقا بها وامتنع السكان عن الاعتماد عليها ٠

٢ ٠ مع ان الاضراب بكل ما سبقه ورافقه خطط له ونظم ونفذ على يد ركاح ، حرص الحزب على عدم ابراز نفسه في هذا الدور بغرض الامساك بزمام القيادة عمليا في اوساط القوميين ، وحتى يصبح في الوقت نفسه القائد لكل نشاط قومي عربي في اوساط عرب أسرائيل، في المستقبل ٠

يجب الاهتمام بهذا الموضوع ودراسة دوافعه وعناصره :

أ ـ ان حركة منظمة التحرير الفلسطينية التي تشكل حركة تحرر قومي لعرب فلسطين لم ترسم في برنامجها اهدافا اجتماعية ، فعدا جناح صغير وهامشي ـ جماعة جورج حبش ـ لا يوجد اي جناح يهتم بهذه المواضيع جديا او يشملها بتصريحاته ٠

ب ـ دفع جماهير غير منتمية الى الحزب الى صدام علني وعنيف مع قوات الامن والتسبب باكبر عدد ممكن من الاصابات بين الجمهور بغرض خلق مشاعر الحقد والنقمة لدى السكان والتوتر لدى الحكم تجاه السكان المعادين ٠

ج ـ هناك عملية تقليدية ومألوفة لدى حركات التحرر في آسيا وافريقيا وهي الربط بين النضال القومي والاجتماعي مما يساعد على تجنيد الجماهير لمتطلبات النضال وعلى تأييد الرأي العام العالمي ٠ ومن البديهي ان هناك دولا وكذلك دولة عظمى ذات توجه معين تجد نفسها متورطة ولو على سبيل الدعاية فقط في كل نضال يجري تحت هذه الشعارات ٠

في ضوء ما تقدم يجب توجيه الاهتمام الجدي لهذه الاتجاهات وللظواهر التي قد تنجم عن خلق هذا التجانس بين الرأي العام العالمي والسكان العرب ٠ لذلك سيستمر ركاح في اعتقادي باتخاذ مثل هذه الخطوات خصوصا تحت غطاء قومي ٠

٣ ٠ يجب التأكيد على عدة مكاسب هامة للقومية العربية التي يقودها ركاح كنتيجة ليوم الاضراب وللمشاغبات التي سبقته ووقعت فيه :

أ ـ حدث لاول مرة منذ قيام الدولة وضع ، تضامن فيه كل السكان العرب في اسرائيل عنوعي وبصورة علنية ضد طلب الحكومة ومع مطلب سياسي ـ قومي عربي متطرف ، واستعداد نفسي للعمل من اجل تحقيقه ٠ بالاضافة الى ذلك فان معظم السكان العرب ايدوا ويؤيدون الان ايضا من قاموا باعمال الشغب وهاجموا قوات الامن وهم يتضامنون معهم علنا ويصرحون بذلكعلى الملأ ٠

بـعدد كبير من المجالس المحلية ورؤسائها استعملوا كوسائل وادوات من اجل تطوير وتسيير النضال وحتى اولئك الرؤساء الذين لم ينضموا الى المتطرفين في المرحلة الاخيرة بفعل الضغوط لم يعلنوا عن معارضتهمللاضراب بل طلبوا تأجيله لفترةما ، بغرضاستخدام التهديد بالاضراب كوسيلة ضغط على الحكومة كي تخضع لمطالبهم ٠

ج ـ نجح القوميون وحزب ركاح في تحريض وتوريط الجماهير في صدام عنيف

مع قوات الامن مما ادى الى خلق رواسب عميقة وخطيرة لفترة طويلة · ومما يدل على ان المنفذين نجحوا في التخطيط الدقيق انه رغم الهيجان الذي اصاب الجمهور نجح المخططون في اخراج المنظمين من الصدام العنيف وفي المحافظة على سلامتهم الجسدية وكذلك من الاعتقالات التي اعقبت الصدام ·

د · ان اعمال العنف العلنية على الرغم من النتائج المريرة التي جلبتها للسكان فانها ملأتهم عزة وكبرياء · انهم يعتزون بانهم كانت لديهم الشجاعة للتصادم مع القوات الرسمية للدولة · ويجب الا ننسى ان مثل هذا الاحساس لدى سكان مثل عرب اسرائيل وفي الجو الذي يعيشون فيه ، هو احساس يعطي امكانات كبيرة لاخصائيي الدعاية من اجل ابراز « الكبرياء العربية الجريحة » لعرب اسرائيل ·

هـ – لقد برزت القوة السياسية التي يملكها القوميون العرب تلك القوة التي يعمل حزب ركاح على ابرازها لخدمة اهدافه ومعاركه السياسية المقبلة كما بينا اعلاه ·

و – لقد ادى الاضراب واعمال العنف الى عزل تلك الزعامة العربية الرسمية (المنتخبة) ورؤساء المجالس المحلية الذين لم ينضموا الى الاضراب او اقترحوا تأجيله · لان ذلك الاضراب جرى بصورة كاملة وضد قرارهم الذي اتخذ في اجتماع شفاعمرو · بهذا جرى تسليم الجمهور العربي النشط وخاصة الشباب فيه الى ايدي ركاح ومعاضديه القوميين ·

هنا لا بد من التساؤل هل كان من الحكمة السياسية على المدى الطويل توجيه الضغط الى رؤساء المجالس المحلية في اجتماع شفاعمرو لكي يتصرفوا كما تصرفوا · تجب دراسة هذا الموضوع بكل تأكيد واتخاذ القرارات المناسبة · ان النجاح التاريخي الذي حققه المنظمون وما يمثلونه هو التوحيد المطلق لعرب اسرائيل الذي تم في « يوم الارض» وكذلك الهوة العميقة التي نجحوا في ايجادها كنتيجة لذلك بين السكان اليهود وبين السكان العرب · ان هذه الهوة نتج وسينتج عنها انعكاسات حادة سواء على صعيد السكان اليهود او العرب · وما من شك في ان جهات معادية ستستغل ذلك الامر ·

ز · ترك الاضراب انطباعا قويا لدى المعامل ومؤسسات الخدمات ، بان حسن سير الاقتصاد الذي يديره يهود · هذا الامر ايضا يستغل وسيستغل في المستقبل بغرض خلق مشاعر « الكرامة العربية » التي لا بد ان عرب اسرائيل سيستثمرونها وسيستغلونها ·

٤ · توقعات

أ – الظروف والمعطيات التي تكونت في « يوم الارض » وبعده تعطي حزب ركاح والقوميين امكانات كبيرة لاثارة الشغب في الدولة ولخلق عدم الاستقرار والتوترات الطائفية · ويبدو بديهيا انهم سيعودون الى استخدام التكتيك نفسه والشعارات نفسها بغرض الهاب حماس الجماهير واخراجها الى الشارع كل وقت يريدون ·

ب – سوف تتعزز حملة التخويف فتصل الى التهديد واستعمال القوة ضد العرب

المتعاونين مع السلطة بغرض اسكات اي معارضة او اجهاض اي اصوات معتدلة ٠

جـ ـ في ضوء الاصداء التي خلقتها الاصطدامات الاخيرة في الشارع العربي سوف تدفع الجماهير الى الشارع لغرض واضح : الاصطدام معقوات الامن والعمل على وقوع اكبر عدد من الاصابات لدى المواطنين من اجل خلق روح الثأر لدى السكان تجـاه قوات الامن ومن أجل حدوث أصداء في العالم حول عدم الاستقرار في اسرائيل واضطهـاد السلطات الاسرائيلية المحتلة للسكان العرب ٠

د ـ الاصطدامات الاخيرة ستقوي شعور تضامن عرب اسرائيل مع المتضررين وهـذا سيخلق منافذ للدخول الى اوساط كانت مترددة حتى الان في الوقوف الى جانب المناضلين٠

وبصورة عامة فان مثل هذه النشاطات سيؤدي الى التطرف وتدهور الوضع ٠ ويجب التذكير بأن النظرية السائدة لدى هذه الاوساط تقول ان الوضع الحالي سيء بالنسبـة لعرب اسرائيل وفقط في حالة عدم الاستقرار الشامل في الدولة هناك امكانية للتغيير ، وعلى المدى الطويل وربما على المدى المنظور قد يحدث تفكك اسرائيل من الداخل فتتحول تدريجيا الى دولة فلسطينية ٠

هـ ـ يجب ان نأخذبعين الاعتبار ،كامر بديهي ، ان منظمة التحرير الفلسطينية او قسما ممن يشكلونها سيعمل على تحريك عمليات التطرف هذه مع ان التحريك على الطبيعة سيقوم به ركاح الذي سيعمل اعضاؤه من وراء الستار وبصورة غير منظورة ٠ وسيتركز الثقل الاساسي لهذه الاعمال على القوميين العرب من بين السكان العرب في اسرائيل ،وخاصة طبقات المثقفين الذين يتوقون الى العمل لاثبات « عروبتهم » واستعدادهم للنضال ضـد الحكم الاسرائيلي ٠

و ـ الهوة التي خلقتها الاحداث الاخيرة بين السكان اليهود والسكان العرب ستستغل كاملا وسيبذل كل جهد لتعميقها وتوسيعها ٠ يجب أن نأخذ في الحسبان انه من اجل تحقيق هذا الهدف ستنفذ عمليات استفزاز من كل نوع بما في ذلك الاضرابات والمظاهرات واعمال العنف وحتى عمليات التخريب ٠ وفي رأيي انه في الاصطدامات المقبلة سيجري استعمال الاسلحة النارية على نطاق اوسع وذلك لخلق تأثيرات مرسومة وخطيرة للهوة المذكورة ٠

ز ـ هناك امكانية ايضا لاقامة تنظيم قومي ذي توجه غربي لغرض الحصول علـى تأييد دول واوساط معادية لليسار في العالم ، في كفاحهم ٠

ح ـ سوف تتصاعد عملية السيطرة والتغلغل في المجالس المحلية من اجـل استخدامها في اغراض الدعاية والتغطية والتحويل والظهور بمظهر التمثيل الواسع ٠وفي «يوم الارض» اثبتت هذه الوسيلة نجاحها الكامل في خدمة الاغراض المذكورة ٠

٥ ـ في ضوء التدهور السريع والتوقعات التي فصلتها في مذكرتي السابقة وفي هذه المذكرة اقترح ما يلي :

أ – المباشرة باقامة لجنة فكرية لكي تقترح على الجهات المقررة ثلاث خطط عمل :

١ · للمدى السريع

٢ · للمدى المتوسط

٣ · للمدى الطويل

ب – يجب المباشرة حالا باقامة لجنة تنسيق وزارية على مستوى المديرين العامين يشرف عليها وزير تعينه الحكوطمة لهذه الغرض ويساعده مستشار رئيس الحكومةللشؤون العربية ·

ج – بما ان وزارة الداخلية هي قناة الاتصال الرسمية والعملية الرئيسية مع المؤسسات الرسمية والمنتخبة عند السكان العرب اقترح ان يترأس لجنة التنسيق المشكلة من مديرين عامين ، مدير عام وزارة الداخلية ·

تعقيب على وثيقة "كنيغ" :
اعتراف بسياسة
الاضطهاد القومي والعنصرية

يوسف حمدان

الصحيفة الاسرائيلية التي نشرت هذه الوثيقة الخطيرة هي « علهمشمار» الناطقه الرسمية لحزب مبام الذي يشكل مع حزب العمل : تجمع « المعراخ» الحاكم بالتآليف مع حزبي الاحرار المستقلين والحزب الديني القومي (المفدال)· واول ما يتباور الى الذهن هو السؤال : لماذا سمح لهذه الصحيفة بنشر هذه الوثيقة ؟ هناك احتمالات عدة منها :

اولا : هناك صراع سياسي بين مبام الذي يحاول ان يلعب دور اليسار في حركة العمال الاسرائيلية « والمفدال » الذي يمثل اليمين الديني · وكاتب الوثيقة هو مسؤول في وزارة الداخلية التابعة للمفدال · والحزبان معروفان بالتنافس على اصوات العرب في الانتخابات وبالتباين في المواقف تجاه القضية الفلسطينية بشكل عام ·

ثانيا : حزب مبام اشتهر في الماضي بالدعوة الى الدولة ثنائية القومية (يهودية ـ عربية) في فلسطين · ومع انه تخلى عن هذه الدعوة ، الا انه الحزب الصهيوني الوحيد الذي يضم المكتب السياسي فيه اعضاءا عربا · ويشهد الحزب منذ فترة نقاشا حادا ، خاصة لدى اوساط الشباب فيه حول وجوب الانفصال عن حزب العمل والعودة الى طابعه « اليساري » المستقل الذي استطاع بواسطته تجنيد قوى يسارية اوروبية تقليدية لاسرائيل ·

ثالثا : الوثيقة مقدمة الى رئيس الوزراء · ووزراء مبام والاحرار المستقلين وبعض وزراء العمل يخوضون منذ فترة صراعا حادا يشكلون فيه الاقلية « المعتدلة » صد اكثرية الوزراء المتطرفة التي يبرز فيها وزراء المفدال بشكل خاص ووزراء كتلة «رافي» في حزب العمل وهذه المجموعة من الوزراء يؤيدها رئيس الوزراء رابين ·

رابعا : الوثيقة تدعو الى اقامة « حزب شقيق » لحزب العمل ينادي بشعارات « المساواة » بينما يسيطر عليه حزب العمل بشكل غير منظور بهدف المضاربة على حزب ركاح · وحزب مبام اعتبر نفسه دائما المؤهل لهذا الدور ، واقامة مثل هذا الحزب قد تهدد مصالحه في الشارع العربي خاصة فيما اذا انفصل عن « المعراخ »·

خامسا : قد يكون نشر الوثيقة بدافع اقتناع حزب مبام ، ان سياسة التفرقة العنصرية والاضطهاد القومي التي تدعو الوثيقة الى تعميقها فشلت وادت الى نتائج عكسية بشهادة احداث الناصرة الاخيرة بشكل خاص ، واحداث الجليل بشكل عام ، وبالتالي فان التمادي في هذه السياسة سيؤدي الى نتائج اخطر ·

سادسا : قد يكون نشر الوثيقة وعدم منع ذلك من قبل الرقابة العسكرية يهدف الى دعوة المؤسسات والرأي العام اليهودي الى العمل بموجب السياسة التي ترسمها الوثيقة ضد عرب الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ وخاصة في منطقة الجليل على اساس ان فائدة ذلك اهم من ضرر النشر ·

ومهما تكن الدوافع لنشر هذه الوثيقة فانها بحد ذاتها تنطوي على أهمية كبيرة من نواح عدة :

١ ـ انها تفضح خطورة السياسة العنصرية وسياسة الاضطهاد القومي والاعتداء على حقوق الانسان الاساسية التي انتهجتها وتنوي تصعيدها السلطات الاسرائيلية ضد ابناء شعبنا في الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨

٢ ـ انها تشكل منطلقا لتطوير اساليب النضال الوطني الذي يخوضه ابناء شعبنا داخل الارض المحتلة ، وحافزا لتوفير المزيد من الدعم في كل المجالات من قبل كل الجهات المعنية باستمرار هذا النضال وتطويره في كل الظروف المتغيرة ·

٣ ـ انها تعترف في اكثر من مكان بأن منظمة التحرير الفلسطينية التي تتنكر السلطات الاسرائيلية لوجودها وتصر على عدم الاعتراف بها وتحاول القضاء عليها بكل اسلوب ممكن ، « تشكل حركة تحرر وطني لعرب فلسطين » ـ اي الممثل الشرعي الوحيد لكل فلسطيني موجود على الارض الفلسطينية وعلى كل ارض ·

٤ ـ ان « دولة اسرائيل » مدينة للمجتمع الدولي اكثر من اية دولة اخرى في العالم بالمساواة والديمقراطية واللا عنصرية ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، لان المجتمع الدولي تحمل مسؤولية وجودها على هذا الاساس ٠ اي بحجة تخليص اليهود من العنصرية والاضطهاد وعدم المساواة ! وهذه الوثيقة تعري اسرائيل امام المجتمع الدولي على انها دولة عنصرية ، غير ديمقراطية ، تعتدي على ابسط الحقوق الانسانية للمواطن وتمارس كل الممنوعات التي اقيمت بسببها !

٥ ـ يصادف نشر هذه الوثيقة مرور عام واحد على قرار الجمعية العامة للامم المتحدة (الدورة ـ ٣٠ سنة ١٩٧٥)الذي عرف الصهيونية بأنها حركة عنصرية ،وادان اسرائيل كدولة تمارس التفرقة العنصرية ٠وكما هو معلوم خلق هذا القرار رد فعل دفاعي طغى ضجيجه على القرار نفسه٠ وهذه الوثيقة اثبات صارخ على ان اسرائيل عنصرية وتمارس التفرقة العنصرية ٠ فهي من جهة تعترف بأن سياسة التفرقة العنصرية مورست ، حيث تقول مثلا : « سمعت التصريحات صباحا ومساء حول المساواة والاندماج وغير ذلك ولكن الافعال كانت مناقضة تماما »٠ ومن جهة اخرى يحمل كل اقتراح فيها تقريبا دعوة الى ممارسة التفرقة العنصرية ضد العرب من مواطني البلد ٠ ومن امثلة ذلك :

أ ـ الدعوة لتخفيف عدد السكان العرب وزيادة عدد السكان اليهود٠

ب ـ الحد من التكاثر الطبيعي للمواطنين العرب عن طريق قطع المنح لعائلات متعددة الاولاد ٠

ح ـ وضح العراقيل امام التحاق الطلاب العرب في المدارس العليا وتشجيع هجرة الطلاب العرب والحيلولة دون عودتهم الى وطنهم ٠ ان الوثيقة تدعو الى التقليل من عدد الطلاب الجامعيين العرب وتشكو من وجود ٢٥٠٠ طالب جامعي عربي مع ان هذا الرقم يشكل نسبة حوالي ٤٪ فقط من مجموع طلاب الجامعات في اسرائيل بينما يشكل عدد السكان العرب من مجموع السكان ما يزيد على ١٤٪ ٠

د ـ مع ان عدد السكان العرب في منطقة الجليل سيشكل خلال سنتين ما يزيد على ٥١٪ من مجموع سكان المنطقة ،فان الوثيقة توصي بان لا تزيد نسبة العاملين العرب في معامل ومشاريع المنطقة على نسبة ٢٠٪ !

هـ ـ توصي الوثيقة بافقار العرب عن طريق توسيع وتعميق جباية الضرائب منهم ، والتمييز ضد التجار والوكلاء العرب ٠

و ـ توصي الوثيقة باتباع كل الوسائل لمنع المواطنين العرب من ممارسة حقوقهم السياسية وبتعزيز وجود الشرطة وقوى القمع الاخرى في الشارع العربي ٠

مناقشات :

حول مذكرات القاوقجي

نجيب الأحمد

اطلعت على كتاب (فلسطين في مذكرات القاوقجي (١٩٣٦ ـ ١٩٤٨) اعداد الدكتورة خيرية قاسمية واصدار « مركز الابحاث » ٠ وحفاظا على قدسية نضال شعبنا العربي الفلسطيني ، وامانة للتاريخ ، وكفلسطيني كان لي شرف الاشتراك في ثورات شعبنا ونضاله والتحقت مع المناضلين مقاتلا في ثورة شعبنا عام ١٩٣٦ ، تحت قيادة فوزي القاوقجي ، ولم انه الستة عشر عاما من عمري ، وشاركت القاوقجي قائدا للمناضلين في ثورة شعبنا عام ١٩٤٨ ، ومن خلال ذلك اطلعت وعرفت الكثير من الحقائق والوقائع ، ارى لزاما علي توضيح ما جاء في مذكرات القاوقجي بكل امانة واخلاص ، يقول القاوقجي في مذكراته في الصفحة الثامنة من الكتاب (كان الشعب الفلسطيني الواثق من مشروعية قضيتهمعلقا كل اماله وواضعاكل ثقته في عدل بريطانيا وشرفها) ٠

ان هذا القول بعيد عن الحقيقة وفيه تشويه لنضال الشعب الفلسيني الذي قاوم وعد بلفور والانتداب البريطاني والهجرة الصهيونية وقام بعدة انتفاضات وثورات ومظاهرات واضرابات منذ اعلان وعد بلفور وقدم الشهداء وحمل السلاح ٠وتناسى القاوقجي الشهداء محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير ودماء موسى كاظم الحسيني التي سالت في شوارع يافا وثورة شعبنا التي قادها الشهيد الشيخ عز الدينالقسام واستشهد ورفاقه فيأحراشيعبدبمنطقة جنين،وتناسى القاوقجي انه جاء مجاهدا لنجدة اخوانه في فلسطين بعد مضي اربعة اشهر على ثورتهم واضرابهم المتواصل ٠ وخانته ذاكرته حيث وصل الى فلسطين وغيره من المجاهدين العرب بتاريخ ٢٥ / ٨ / ١٩٣٦ ، وانسحب منها بعد وقف القتال بتاريخ ٢٤ ـ ١٠ـ١٩٣٦٠وما كان الشعب الفلسطيني يوما واثقا في عدل بريطانيا وشرفها وهي التي منحت الصهاينة وعد بلفور وانتدبت على فلسطين لاقامة وطن قومي لليهود على ارض فلسطين العربية٠

ويقول القاوقجي بالصفحة (٥٥) من

الكتاب (ان فخري عبد الهادي اول من اطلق بندقية في سماء فلسطين) ومع تقديري لكل من اطلق رصاصة على اعدائنا في فلسطين الا ان هذا القول مناقض للحقيقة تماما وترفضه روح الشهيد القسام ورفاقه · ويقول القاوقجي بالصفحة السابعة من الكتاب (انه الف مفرزه من دروز شرق الاردن) فلا يوجد في شرق الاردن طائفة درزية ليؤلف منها مفرزة ·

وهناك اخطاء في الاسماء والمواقع ربما تكون اخطاء مطبعية فلا بد من تصحيحها منها قرية غزة والصحيح قرية عنزة وجبل جريش والصحيح جبل حريش وقرية برولة والصحيح قرية بردله ومختار حيوسي والصحيح مختار جيوس والشيخ نمر الوسان والصحيح الشيخ نمر العرسان ·

هذا ما جاء في مذكراته عن ثورة الشعب الفلسطيني عام ١٩٣٦ اكتفيت بالرد على بعض ما ذكرته باختصار ·

اما عن ثورة شعب فلسطين عام ١٩٤٨ فتشويه الحقائق بمذكرات القاوقجي لا يجوز السكوت عنه ، فوزي القاوقجي دخل فلسطين عام ١٩٣٦ لنجدة شعبها كغيره من المجاهدين العرب الذين هبوا لنجدة اخوانهم في فلسطين ولخبرته العسكرية اختير قائدا للمناضلين · اما دخوله الى فلسطين عام ١٩٤٨ فلم يكن كما دخلها مجاهدا متطوعا عام ١٩٣٦ وانما ضابطا عسكريا عين قائدا لجيش الانقاذ من قبل الجامعة العربية رغم اعتراض الهيئة العربية العليا على رفض تسليح الشعب لفلسطيني ، وتسليم قيادته العسكرية للشهيد القائد عبد القادر الحسيني وتحت اشراف الهيئة العربية العليا واعتراض الهيئة المذكورة على شخص فوزي القاوقجي · وعن هذا الواقع جاء بمذكرات القاوقجي بالصفحة (١٤٦) من الكتاب : ما كاد المقدم صفا يستقر بفوجه في القطاع المعين له حتى شعر بنشاط غريب وقوى ضد هذا الجيش تبديه جماعات مسلحة تدعي انها تنتمي الى سماحة الحاج امين الحسيني · وقد ارسل الي المقدم صفا بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ برقية يطلب فيها ان ارسل له المفرزة الشركسية التي كانت لا تزال في قطنا ليتمكن من السيطرة على الموقف· وبعد برهة اطلعني المقدم صفا على اكتشافه مؤامرة لاغتيالي يقوم بها احد عشر شخصا مقابل (١٧) الف جنيه وانه وقع بين يديه واحد من هؤلاء ادلى اليه بمعلومات كثيرة غريبة··· وبالسرعة الممكنة ارسلت الى المقدم صفا المفرزة الشركسية ···)

كانت هذه البرقية ولا شك في ذلك نتيجة للحساسيات والخلافات التي كانت بين قيادة جيش الانقاذ التابع للجامعة العربية وبين قيادة الجهاد المقدس(عبد القادر الحسيني) وهي بدون شك من نسج الخيال او جزء من المؤامرات التي كانت تحاك ضد الشعب الفلسطيني ·

المقدم محمد صفا دخل الى فلسطين على رأس فوج من جيش الانقاذ بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ والبرقية كما يقول القاوقجي وصلته بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ اي بنفس اليوم الذي دخل به المقدم صفا وفوجه الى فلسطين فكيف اكتشف ان هناك مؤامرة لاغتيال القاوقجي وأن جماعات مسلحة تابعة للحاج امين الحسيني تقوم بنشاط ضد جيش الانقاذ بنفس اليوم الذي وصل به الى فلسطين· وهناك اسباب ودوافع وخفايا لا مجال لذكرها الان احتفظ بها للوقت المناسب ·

معركة الزراعة

يقول فوزي القاوقجي في مذكرته عن معركة الزراعة (انه طلب من المقدم محمد

صفا مهاجمة احدى المستعمرات اليهوديه في قطاعه وفي ليلة ١٦ ـ ١٧ شباط ١٩٤٨ قام بهجومه على مستعمرة الزراعة رغم ان الحركات الحربية تكاد تكون غير محتملة بسبب رداءة الجو وصعوبة التحرك في ارض المستعمرة اللزجة التي تضني الجنود · واندفع جنوده الى داخل المستعمرة ودارت بين الفريقين معركة شوارع عنيفة ،وهرعت القوات البريطانية لنجدة اليهود في المستعمرة ، مما اضطر المقدم صفا لاصدار امره بالانسحاب وكانت خسائر جيش الانقاذ في هذه المعركة (٣٧) قتيلا واكثر من ذلك جرحى، اما خسائر اليهود فكانت (١١٢) قتيلا عدا الجرحى · وقد كانت معركة الزراعة رغم انها من المعارك البسيطة عاملا قويا في رفع معنويات العرب في المنطقة) ·

اتمنى من كل قلبي لو ان معركة الزراعة كانت كما جاء بمذكرات القاوقجي لكننا لو طلبنا من قائد المعركة المقدم محمد صفا ان يكتب لنا عنها لما كتب كما جاء بمذكرت القاوقجي،وذكر الحقيقة المؤلمة كما يعرفها جميع من شارك او شاهد تلك المعركة الفاشلة ·مستعمرة الزراعة تقع في الجهة الغربية من غور الاردن جنوب مدينة بيسان واراضيها غورية خصبة عميقة طينية ، وتحيط بالمستعمرة والمستعمرات المجاورة لها برك المياه التي اقامها الصهاينة لتربية الاسماك واستعمالها للدفاع عن المستعمرات وقت الحاجة · وكانت الامطار كما يقول القاوقجي غزيرة حيث فصل الشتاء والجو عاصف ·وفي ليلة ١٦ـ١٧ـ٢ـ ١٩٤٨ ورغم معرفة القاوقجي بالواقع الصعب فقد اصدر امره من دمشق الى المقدم محمد صفا بمهاجمة هذه المستعمرة فنفذ المقدم صفا الامر ·وما ان اطلقت الرصاصة الاولى من جيش الانقاذ على المستعمرة حتى فتح الصهاينة بوابات برك المياه حيث تدفقت المياه منها كالسيل الجارف بالاضافة الى غزارة امطار السماء ، حيث اصبحت الارض مكانا لغوص الجنود بالاوحال وانطلقت الانوار الكاشفة من المستعمرة وجاراتها لتكشف المهاجمين الذين وقعوا في ورطة لا مثيل لها ، الارض الموحلة وغزارة الامطار وشدة الزوابع ورصاص الاعداء · وابدى جنود جيش الانقاذ بسالة فائقة وجهدا كبيرا لكن الوضع كان فوق طاقتهم وهرعت قوات المناضلين لنجدتهم وكانت النتيجة غير ما ذكره القاوقجي ، فالجنة والخلود لهؤلاء الذين استشهدوا بمعركة الزراعة اما قتلى العدو فعلمهم عند الله وليس عند القاوقجي ، وكانت معنويا ت الاهالي بعد المعركة بعكس ماذكره القاوقجي خصوصا انها اول معركة قام بها جيش الانقاذ في المنطقة ·

دخل فوج من جيش الانقاذ بقيادة المقدم محمد صفا الى فلسطين بتاريخ ٢١ـ ١ ـ ١٩٤٨ وقام بالهجوم على مستعمرة الزراعة يوم١٦ ـ١٧ـ٢ ـ ١٩٤٨ ودخل فوزي القاوقجي قائد جيش الانقاذ الى فلسطين بتاريخ ٦ ـ ٣ ـ ١٩٤٨ واتخذ قرية جبع مقرا لقيادته وهي من قرى لواء جنين وتقع بين مدينتي نابلس وجنين ، واقام بها محطة اذاعة خاصة وبعد وصوله اصدر بيانا للشعب يعلن به انه القائد العام والمسؤول عن المنطقة وامنها ، وعلى جميع المسلحين الانضواء تحت قيادته ويقول القاوقجي بمذكراته بالصفحة (١٩٥٨) من الكتاب(منطقة جنين ونابلس وطولكرم او ما يسمونه بالمثلث كان يتجاذبها عمال الملك عبد الله من جهة وعمال المفتي من جهة اخرى)

لم اكن اتصور ان تصل الامور لهذا الحد من التجني على الشعب الفلسطيني وما كان ولن يكون الشعب الفلسطيني عميلا لاحد لا للملك عبد الله ولا للحاج امين الحسيني · وكان في فلسطين حزبان كبيران هما الحزب العربي ورئيسه جمال الحسيني وكان يعرف مؤيدوه بالمجلسيين

نسبة الى المجلس الاسلامي الذي كان يرئسه الحاج امين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا ، وحزب الدفاع الذي كان يرئسه راغب النشاشيبي ، وكان يعرف بالمعارضين بسبب معارضتهم للحاج امين الحسيني والمجلسيين والحزب العربي ، بالاضافة الى بعض الاحزاب الاخرى كحزب الاستقلال وكانت الهيئة العربية العليا تطالب الدول العربية بدعمها بالمال والسلاح لتسلح الشعب الفلسطيني تحت قيادة عبد القادر الحسيني ، قائد الجهاد المقدس • ورفضت الدول العربية طلب الهيئة العربية العليا وقررت انشاء جيش الانقاذ ، واختارت له فوزي القاوقجي قائدا عاما ونتيجة لخلافات قديمةواسباب لا مجال لذكرها الان • وكان حزب الدفاع يؤيد قرار الجامعة العربية لكن جماهير الشعب الفلسطيني كانت تتسلح باموالها الخاصة ما امكنها ذلك ، وكانت الوفود من المدن والقرى والعشائر تجوب البلاد العربية طلبالشراء السلاحالذي منع عنها من الدول العربية • وكان عبد القادر الحسيني والهيئة العربية العليا تساعد هؤلاء لشراء السلاح من مالهم الخاص • وقبل وصول جيش الانقاذ الى فلسطين كان عبد القادر الحسيني قائد الجهاد المقدس الذي اتخذ بير زيت مقرا لقيادته يعمل على تنظيم المقاتلين في جميع المناطق ، ويختار القيادات المحلية في كل منطقة•وكانت قوات المناضلين تهاجمالعدو في القدس وباب الواد ويافا وحيفا والجليل ومرج بن عامر وطولكرم وبئر السبع والخليل وغزة واللد والرملة وفي كل مكان في فلسطين • وقام عبد القادر الحسيني بجولات كقائد للجهاد المقدس على منطقة رام الله ونابلس وجنين وغيرها لتنظيم المقاتلين وتشجيعهم وحض المواطنينعلى شراء السلاح من اموالهم الخاصة • وكان يلقى تجاوبا جيدا ولم يكن في المثلث ولا غير المثلث اي تدخل للملك عبد الله ولا يوجد له عمدء ، لكن الملك عبد الله كان من اكثر الملوك والرؤساء العرب معارضة للهيئة العربية العليا رمؤيدالانشاء جيش الانقاذوتسليم قيادته الى فوزي القاوقجي ، الذي كانت الهيئة العربية العليا تعارض بتعيينه شخصيا قائدا لجيش الانقاذ ، اذا كان لا بد من انشاء جيش الانقاذ • وكان الخلاف على هذا الموضوع بين القاوقجي وعبد القادر لحسيني ، وكل له مؤيدوه وما برقية المقدم محمد صفاالتي مر ذكرها الا نتيجة تلك الخلافات • وكان لبيان فوزي القاوقجي بدعوة المقاتلين في مختلف المناطق اثرها العكسي لدى عبد القادر الحسيني ، الذي زاد من نشاطه في تنظيم المقاتلين في مختلف المناطق ودعمهم • وقد كنت انا شخصيا قائدا للمناضلين فيمنطقة جنين الشمالية ورغم انني سلحت من مالي الخاص عددا لا بأس به من المقاتلين في منطقة جنين ، الا أن اتصالي مع عبد القادر الحسيني كقائد للجهاد المقدس ، قبل مجيء جيش الانقاذ الى فلسطين • وبعد وصول القاوقجي الى فلسطين حصلت على كمية لا بأس بها من المتفجرات من نوع (TNT) من عبد القادر الحسيني ، وباتفاق معه قمت مع اخواني المناضلينبنسف خط مشروع شركة كهرباء روتنبرغ التي كانت المصدر الرئيسي لكهرباء فلسطين • والمعروف ان شركة روتنبرغ صهيونية الملكية•واشترك معيبالعمليةفوزي الجرار•ثمنسفتجسرين على الطريق الرئيسي بين مستعمرة العفولة وحيفا • وقام الصهاينة بنسف جسر على الطريق الرئيسي بين جنين ـ اللجون ـ حيفا بالقرب من قريتي رمانة • وعلى اثر ذلك اعتبر القاوقجي ان قيامي بنسف شركة الكهرباء والجسرين خروجا على قيادته ورفضا لبيانه الذي طلب فيه من المقاتلين الانضواء تحت قيادته•فاصدر بيانا نشره بالصحف المحلية واذاعه من

اذاعته بجبع قال فيه :

ان اعمال الشغب والتشويش التي قام بها نجيب مصطفى الاحمد وفوزي الجرار اعمال تخريبية ساوقفها بيد من حديد وقد اعذر من انذر ٠

التوقيع : قائد عام جيش الانقاذ فوزي القاوقجي ٠

وعلى اثر هذ البيان توتر الجو بين عبد القادر الحسيني وفوزي القاوقجي، وكاد ان يقع اشتباك مسلح بين الطرفين، لكنني وبمعونة الخيرين بذلت جهدا كبيرا لمنع وقوع اشتباكات بين المقاتلين وتوجهت الى دمشق حيث قابلت الحاج امين الحسيني في فندق اوريان بلاس ، وحضر عبد القادر الحسيني ٠ وتم الاتفاق على ضرورة منع التصادم مع جيش الانقاذ والتعاون بينهما ٠ وبعد عودتي من دمشق اجتمعت مع فوزي القاوقجي بجبع وتم الاتفاق على التعاون بين جيش الانقاذ والجهاد المقدس ونجدة كل منهما للاخر وقت الحاجة وتقديم الذخائر ما امكن الى الى الجهاد المقدس ٠ وقد اتفقنا على لقاء يتم بين القاوقجي وعبد القادر الحسيني في بيتي بقرية رمانة ـ جنين للمصالحة والتفاهم ٠ وفعلا قدم جيش الانقاذ كميات من لذخائر للجهاد المقدس وانجده في معركة من معارك باب الواد على طريق القدس .الا ان الملقاء بين القاوقجي وعبد القادر الحسيني لم يتم بسبب استشهاد عبد القادر الحسيني ٠

واصدر القاوقجي قرارا مكتوبا اعتبرني بموجبه قائدا للمناضلين في منطقة جنين الشمالية ٠ واعطاني كتابا موقعا منه ومختوما بخاتمه يحوى القرار المذكور ٠

معركة مشمار هاعيمك

في اوائل شهر نيسان ١٩٤٨ استدعاني فوزي القاوقجي الى مقر قيادته بجبع وبغرفة القيادة وبحضور ضباط اركانه . قال فوزي القاوقجي موجها كلمه لي انني قررت القيام بهجوم على احدى المستعمرات اليهودية واحتلالها ثأرا لهزيمة جيش الانقاذ في معركة الزراعة التي قام بها المقدم محمد صفا وتحطيما لمعنويات العدو ورفعا لمعنويات الشعب الفلسطيني والعربي عامة٠ وقد اختارت مستعمرة مشمار هاعيمك بسبب موقعها المناسب وامكانية تطويقها وعزلها من المنجدات ، واشار على موقع المستعمرة بعصاه على الخارطة المعلقة بغرفة القيادة وقال : لن اسمح لكل المناضلين عشر شخصا مقابل (١٧) الف جنيه وانه وقع بين يديه واحد من هؤلاء ادلى اليه بمعلومات كثيرة غريبة٠٠٠ وبالسرعة الممكنة ارسلت الى المقدم صفا لمفرزة الشركسية ٠٠٠)

كانت هذه البرقية ولا شك في ذلك نتيجة للحساسيات والخلافات التي كانت بين قيادة جيش الانقاذ التابع للجامعة العربية وبين قيادة الجهاد المقدس(عبد القادر الحسيني) وهي بدون شك من نسج الخيال او جزء من المؤامرات التي كانت تحاك ضد الشعب الفلسطيني ٠

المقدم محمد صفا دخل الى فلسطين على رأس فوج من جيش الانقاذ بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ والبرقية كما يقول القاوقجي وصلته بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ اي بنفس اليوم الذي دخل به المقدم صفا وفوجه الى فلسطين فكيف اكتشف ان هناك مؤامرة لاغتيال القاوقجي وأن جماعات مسلحة تابعة للحاج امين الحسيني تقوم بنشاط ضد جيش الانقاذ بنفس اليوم الذي وصل به الى فلسطين٠ وهناك اسباب ودوفع وخفايا لا مجال لذكرها الان احتفظ بها للوقت المناسب ٠

معركة الزراعة

يقول فوزي القاوقجي في مذكرته عن معركة الزراعة (انه طلب من المقدم محمد

صفا مهاجمة احدى المستعمرات اليهوديه في قطاعه وفي ليلة ١٦ ـ ١٧ شباط ١٩٤٨ قام بهجومه على مستعمرة الزراعة رغم ان المحركات الحربية تكاد تكون غير محتملة بسبب رداءة الجو وصعوبة التحرك في ارض المستعمرة اللزجة التي تضني الجنود · واندفع جنوده الى داخل المستعمرة ودارت بين الفريقين معركة شوارع عنيفة ،وهرعت القوات البريطانية لنجدة اليهود في المستعمرة ، مما اضطر القدم صفا لاصدار امره بالانسحاب وكانت خسائر جيش الانقاذ في هذه المعركة (٣٧) قتيلا واكثر من ذلك جرحى، اما خسائر اليهود فكانت (١١٢) قتيلا عدا الجرحى · وقد كانت معركة الزراعة رغم انها من المعارك البسيطة عاملا قويا في رفع معنويات العرب في المنطقة) ·

اتمنى من كل قلبي لو ان معركة الزراعة كانت كما جاء بمذكرات القاوقجي لكننا ٤ ـ ١٩٤٨ ·

وحسب التعليمات تم حشد قوات جيش الانقاذ والمناضلين الذين هم تحت قيادتي في قرية اللجون الساعة الثالثة من صباح ٤ ـ ٤ ـ ١٩٤٨ ·لن فئة الهندسة من قوات جيش الانقاذ المتواجدة في منطقة طولكرم وصلت متأخرة وكانت الشمس في السماء وكادت العملية ان تؤجل ، فقلت للقائد ساتحمل مسؤولية نقل فئة الهندسة · وفعلا وبعد موافقته وضعت المتفجرات في سيارة شحن من سياراتي التي نقلت المناضلين وانبطح على ارض السيارة افراد فئة الهندسة من جيش الانقاذ ومعهم بعض المناضلين من رفاقي ،وقمت بتغطية الجميع بشادر السيارة التي اتجهت صوب قرية ابو زريق على الطريق العام ، باعتبار انها سيارة مدنية مارة باتجاه حيفا ، ونجحت العملية وتم وصول فئة الهندسة وقامت بتفجير الجسر ونسفه · وبالحال امر القاوقجي بقصف المستمرة بالمدفعية وكانت مفاجأة للعدو حيث شوهد اهالي المستعمرة وهم بشوارعها وباعمالهم العادية حين تساقطت عليهم قنابل مدفعية جيش الانقاذ وتهدم من القصف المدفعي حاووز المياه وشبت الحرائق في المستعمرة وكان الدخان يغطي المنطقة ، وقامت المصفحتان بواجب الدورية وقام كل بواجبه وكانت نتائج القصف المدفعي مثيرة للعواطف ونساء القرى المجاورة تختلط زغاريدها مع قصف المدافع المركز · مما شجع الجميع · ودفعت رياح النصر وتباشيره بطاقم المصفحتين باقتحام المستعمرة والتجول في شوارعها الخالية الا من الدمار ولهيب النيران المشتعلة بها · ودفع بالمناضلين حسب الخطة الموضوعة بمحاولة اقتحام المستعمرة واحتلالها ·وفي نشوة النصر والفرح هذه استدعاني القاوقجي الى قيادته خلف الميدان واستفسر مني عن الوضع فقلت له: نريد اقتحام المستعمرة ومناضلونا الان يقفون على الاسلاك المحيطة بها ونريد خبراء لتفجير او كشف الالغام التي لا بد من وجودها داخل الاسلاك وفوجئت بالقاوقجي يقول لي :

يجب وقف الاقتحام حتى المساء وعليك اعادة المناضلين الى مراكزهم في الجبال المحيطة · وسأصدر الامر بالاحتلال في الوقت المناسب · حاولت اقناعه بضرورة الاحتلال الفوري فرفض ،ونفذت التعليمات واعدت المناضلين الى مراكزهم انتظارا لحلول الظلام وقرار القائد العام بالاحتلال· تناول القاوقجي الغداء من المناسف التي جهزها اهالي قرية ابو شوشة المجاورة وغادر الميدان الى قيادته بجبع ، وسلم القيادة في الميدان الى المقدم مهدي صالح ، وحل لظلام ولم يصدر اي قرر بالهجوم والاحتلال وكان الجو هادئا يتخلله بعض الطلقات هنا وهناك ·

وما ان بزغت شمس اليوم التالي حتى طالعتنا الصحف اليومية العربية وبعناوين ضخمة مثيرة ، وتعلن انهيار

المقاومة فيمستعمرةمشمارهاعيمك وتشيد ببطولة القاوقجي وشجاعته·وكانت اذاعة القاوقجي في جبع تعلن انهيار المستعمرة واحتراقها وتردد الاناشيد الوطنية الحماسية · وفي اليوم الثاني وحوالي الساعة العاشرة صباحاخرجت من مطار نهلال الذي تتواجد به القوات البريطانية اربع عشرة دبابة يتقدمها سيارة جيب تحمل علما ابيض واتجهت صوبنا ·

اتخذت الاحتياطات ووصلت الدبابات البريطانية وارتجل من سيارة الجيب ضابطبريطانيوطلبمقابلة فوزيالقاوقجي، ابلغت المقدم مهدي صلح بذلك فطلب مني مرافقة الضابط البريطاني الى قرية جبع لمقابلة القاوقجي·نفذت الطلبورافقت الضابط البريطاني بسيارة الجيب وبقيت الدبابات البريطانية على الطريق العام ·

قابل القائد البريطاني فوزي القاوقجي بقيادته بجبع وقال له انه يطلب هدنة لوقف القتال مدتها (٢٤) ساعة وذلك لنقل الجرحى منأهالي المستعمرة للمستشفيات ودفن القتلى ، ثم اختليا معا وخرج القاوقجي ليبلغني انه اعطى الضابط البريطاني وعدا بوقف الهجوم ووقف اطلاق النار على المستعمرة لمدة (٤٨) ساعة وليس (٢٤)بشرط ان يحضر مختار مستعمرة مشمارهاعميك مع الضابط البريطاني عاري الرس الى المكان الذي تتواجد به الدباباتالبريطانيةعلى الطريق العام قرب مستعمرة مشمارهايمك حيث يتقدم من قائد الميدان المقدم مهدي صالح وبحضورك مطاطيء الرأس ويطاب الهدنة بنفسه باسم اهالي المستعمرة ، فاذا ماقام بذلك يعطى الهدنة ومدتها ٤٨ ساعة ·

اعترضت على القاوقجي ونصحته ورجوته عدم الموافقة على اعطائهم دقيقة واحدة لان غايتهم كسب الوقت لوصول نجدات لهم · وقلت له انه كلة يتوجب على القائد البريطاني ان يتدخل لمنع اهالي مستعمرة مشمارهاعميك من الهجوم على قرية الغبيه التحتا الواقعةشرق مستعمرة مشمارهاعميك والمجاورة لها ، وهي قرية صغيرة هادئة ، وقد طردوا اهلها منها ولكن القاوقجي اصر على رأيه وقال انني قائد ومسؤول « واعرف كيف اتصرف ، عليك ابلاغ المقدم مهدي صالح بقراري وعليه تنفيذه ولا تخف فسادمرهم ان تحركوا ضدناوضد الاهالي المجاورين لهم » ·

عدت مع الضابط البريطاني وحين وصولنا الى تجمع دباباته ذهب الى مستعمرة مشمارهاعميك واتجهت انا الى مقر قيادة المقدم مهدي صالح في قرية المنسة المجاورة ولما ابلغته قرار القاوقجي غضب وتألم لكن عليه التنفيذ ·

لم يحضر المختار بنفس اليوم وانما حضر في اليوم التالي شخص يهودي عارى الرأس حسب طلب القاوقجي برفقة الضابط البريطانيوكانت اذاعة القاوقجي والصحف اليومية العربية تعلن انهيار المقاومة في مستعمرة مشمارهاعيمكوتعلن عن اجراءات تسليمها للقائد الفذ فوزي القاوقجي اليوم وبحضور قائد القوات البريطانية في مطار نهلال ، وكانت الاذاعات العربية الاخرى تردد نفس الاخبار وهرعمراسلو الصحف العربية والاجنبية وجماهير غفيرة من الاهالي من مختلف انحاء البلاد لحضور عمليةتسليم المستعمرة على حد قول اذاعة القاوقجي والصحف المحلية والعربية · وصل الى نقطة اللقاء القائد البريطاني ومعه الشخص اليهودي واذا به راعي اغنام المستعمرة وليس المختار ، وطلب الهدنة من المقدم مهدي صالح لمدة ٤٨ ساعة فاعطيت له وكانت الات التصوير تلعب دورها في هذه المهزلة المضحكة المخزية لكن الذي تحدث لم يكن راعي الاغنام ، وانما الضابط البريطاني بحجة ان اليهودي لا يعرف عربي ولا انكليزي !!

كل عاد الى مكانه وتوقف اطلاق النار

تماما لكن اذاعة القاوقجي والصحف العربية كانت تعلن استسلام المستعمرة ٠

لكنني فوجئت باليوم التالي ان القاوقجي استدعاني الى قيادته في جبع وسلمني كتابا مطبوعا وموقعا بتوقيعه ومختوما بخاتم قيادة جيش الانقاذ وقال لي ارسل هذا الكتاب الى مختار مستعمرة مشمارهاعميك حالا ٠

اطلعت على الكتاب فورا واذا بي افاجأ بنصه التالي :

انذار الى اهالي مستعمرة مشمارهاعميك

ان الحملة التي قمت بها ضدكم ما هي الا بسبب تعديكم على اهالي قرية الغبية التحتا وعلى المارة العرب على طريق جنين حيفا ٠ عليكم التوقف عن هذه الاعتداءات والا اعيد الكرة باشد منها وقد اعذر من انذر ٠

التوقيع

فوزي القاوقجي
قائد عام جيش الانقاذ

استغربت هذه الاجراءات المتلاحقة من القاوقجي واعترضت عليه بألم وحسرة وقلت له لماذا هذا، ولماذا لا تحتل المستعمرة وينتهي كل شيء ٠ وكنت بحالة غضب وعصبية مما اثار غضبه وقال« انا اعرف ماذا اعمل هذه برقية وردتني ومصدر معلوماتها من الاستخبارات البريطانية من تل بيب نفسها تحذرني من ان عشرة الاف مقاتل من لهاغاناه في طريقهم الى نجدة مستعمرة مشمارهاعميك ولابادة جيش الانقاذ والاستيلاء على مدفعيته،وقد وافقت القيادة (اي قيادة جيش الانقاذ بدمشق) على اجراءاتي هذه » ٠ فقلت له وكيف اوصل هذه الرسالة قال لي « سلمها الى صديقنا الشاويش البريطاني قائد مركز البوليس في الجون القريبة من مشمارهاعميك حيث يقوم هو «بايصالها» وكان هذا الشاويش البريطاني يتعاون معناضد اليهود ٠

اخذت الكتاب وتوجهت الى مخفر البوليس في اللجون وسلمته للشاويش البريطاني،ولما عرف واطلع على محتوياته نفجر غاضبا يكيل الشتائم والكلمات البذيئة للقاوقجي وقال لي « انا ارفض استلام هذه الرسالة ولا تستمع منه ادخل انت بقواتك من المناضلين واحتلوا المستعمرة فهي ميتة » ٠

عدت الى جبع وابلغت القاوقجي بما حدث مع الشاويش البريطاني ، فاذاع انذاره من محطة اذاعته بجبع ونشره بالصحف العربية في اليوم التالي ٠ وما ان خيم الظلام في اليوم التالي حتى سمعنا اطلاق نار رشاشات لم تدم طويلا في اعلى تمة في المنطقة وهي قمة الجبل الذي تقع عليها قرية الغبية الفوقا حيث كان عدد من جنود جيش الانقاذ يرابطون هناك كمركز للرصد المدفعي ٠ اتجهت فورا على رأس عدد من اخواني المناضلين لمعرفة سبب اطلاق نار الرشاشات الى القمة ٠ ولم اجد حياهناك حيث وجدت جميع عناصر الرصد المدفعي ومن معهم من اهالي القرية قتلى والبعض منهم مذبوحا بالسكاكين ٠ابقيت قسما ن المناضلين في القمة ٠ وعدت مع عدد اخر لاطلاع المقدم مهدى على ما جرى ، واثناء عودتنا اطلقت علينا النيران من كمين للعدو واشتبكنا معه وانسحب بسرعة ولا نعرف الاصابات التي لحقت به ، واصيب مناضلان بجراح احدهما في صدره والاخر في رجله وتم نقلهما الى المستشفى في جنين ٠ واطلعت المقدم مهدي على الوقائع قال لا استطيع الحركة بدون امر من القاوقجي ، فقلت له اذا انا سأتحرك مع اخواني المناضلين على مسؤوليتنا ٠

ومع بزوغ الشمس تقدمت على رأس عدد لا يقل عن (١٥٠) مناضلا حيث بدأنا بالزحف على المستعمرة بقصد اقتحامها

وكنا نتقدم بالتهليل والتكبير والاهازيج· حلقت فوقنا طائرة اسرائيلية صغيرة اعتقد انها من طائرات التدريب والقت علينا قنبلتين من صنع محلي كنا نسميها (قيزان) انفجر احدهما ولم يصب اي شخص ولم ينفجر الثاني ، فتقدم بوليس بريطاني وهو احد تسعة من البوليس البريطاني الذين تطوعوا مع القاوقجي حيث كان احدهم شقيقا لاحد البريطانيين الثلاثة الذين شنقم اليهود في اشجار الكينا قرب ناتانيا · وطلب منا الابتعاد واطلق النار من بندقيته على (القيزان) الذي انفجر واصابته شظية في يده ونقلناه الى المستشفى في نابلس ·

وبدأت تصل النجدات الاسرائيلية الى المستعمرة · وقامت بحركة التفاف حولنا حيث وصلت قوات منها من الجنوب والجنوب الغربي للمستعمرة ، واحتلت قمم سلسلة الجبال المحيطة بنا واشتبكت مع قوات جيش الانقاذ وقوات المناضلين · وكانت مدفعية جيش الانقاذ بقيادة قائد المدفعية البطل مأمون البيطار (وهو سوري) الذي ابلى بلاء ممتازا ، لكن قوات العدو رغم تكاثرها تراجعت امام القصف المدفعي المركز وبسالة المقاتلين من جيش الانقاذ والمناضلين وهرعت النجدات العربية من جميع انحاء المدن والقرى في جنين وطولكرم ونابلس وغيرها · وفشل العدو بحصار قواتنا وانسحب من جميع المناطق التي احتلها عدا قمة جبل واحدة تمكن من التمركز عليها ، وحاصرناه من الجنوب والشمال والشرق ولم يبق له نجاة الا المنطقة الغربية الى المستعمرات القريبة · لكن القوة المتواجدة على هذا الجبل من العدو صممت على الصمود لوقت طويل فجاء ستة من افراد البوليس البريطاني المتطوعين مع جيش الانقاذ ، وطلبوا من المقدم مهدي صالح اعطاءهم بنادق فرنساوية (قصيرة) وقنابل ملز يدوية وسكاكين ، كما طلبوا منه ان اتقدمهم داخل مصفحة لتغطية زحفهم بالرشاش الى قمة الجبل حيث يطردون العدو ويحتلونه · وبعد قيامنا بذلك وطرد العدو طلبوا ارسال قوة كبيرة لاحتلال الجبل والتمركز به لاهميته الستراتيجية، وكان لهم ما ارادوا · تقدمت داخل مصفحة من جيش الانقاذ وكنت اغطي زحفهم ·ولم يمض وقت طويل حتى تمكنوا من احتلال مركز العدو الذي انسحب من قمة الجبل تاركا خلفه ستة من قتلاه احدهم ضابط برتبة مقدم ، واعتقد ان هذا المقدم الذي قال عنه القاوقجي بمذكراته بانه قتل قائد لقوات الاسرائيلية المهاجمة ·

كانت فرحة كبيرة بهذا النصر حيث تم تطهير جميع الاماكن التي احتلها العدو· لان عكر جو الفرح هذا بالالم والحسرة التي عمت صفوفنا جميعا حين اخترقت رصاصة معادية جبين البطل قائد المدفعية مأمون البيطار الذي استشهد فورا ·

في هذا الوقت كان بامكان فوزي القاوقجي ان يصدر امره باحتلال المستعمرة وكان ذلك ممكنا ، او انسحاب جيش الانقاذ بدون اي عائق حيث جميع الطرق شرقا وجنوبا وشمال ـ شرق مفتوحة ، او الاستمرار بمحاصرة المستعمرة من كل جهاتها لفرصة اخرى مناسبة ، وكان الهدو مخيما على الساحة بعد هزيمة العدو الا من بعض طلقات هنا وهناك متفرقة ·

وفي صباح اليوم التالي وصلت عدة سيارات شاحنة الى مكان المعركة ونزلت قوات منها واتجهت فورا الى الجبل القريب من المستعمرة وكانت تطلق النار على المستعمرة بغزارة ، ومن سيرها كان ظاهرا انها سرية مدربة تدريبا جيدا لم نشاهده في قوات جيش الانقاذ وتمركزت على الجبل القريب من المستعمرة ·وهنا بدأ انسحاب جيش الانقاذ بمدفعيته

ومصفحاته وجنوده . وما ان حل المساء حتى كانت جميع قوات جيش الانقـــاذ واسلحتها بالكامل قد اتمت انسحابها الى مراكزها في جبع وغيرها ، واصبحـت المنطقة خالية منهم تماما ، وتبع ذلـك قيام القوات الاسرائيلية باحتلال قريـة ابو زريق لتي نسفت فئة الهندســة مـن جيش الانقاذ الجسر الواقع بينها وبيـن مستعمرة مشمارهايمك ، واغلق اهلهـا الطريق التي توصل المستعمرة بالمستعمرات المجاورة حتى حيفا ، ونسفـوا القريـة بكاملها وقتلوا من قتلوا وخطفوا عددا من فتيات القرية واقتادوهن الى مستعمـرة نهلال القريبة وقامت قوات العدو بمهاجمة القرى العربية المجاورة والتي عجـزت قوات المناضلين من الدفاع عنها منفردة بدون ذخائر او دعم وانتهت معركـة مشمارهايمك (المسرحيـة والمهزلـة) بالنتائج التالية :

١ ـ تدمير ونسف كامل لقرية ابو زريق العربية وخطف عدد من فتياتها وقتل عدد من شبابها واقاموا مكانها فيمـا بعـد مستعمرة يهودية .

٢ ـ احتلال الصهاينة للقرى العربية وطرد سكانها ونسفها واقامة المستعمرات الصهيونية فيما بعد علـى انقاضهـا والاستيلاء على جميع اراضيها وهي قرى قيرة ، ابو شوشة ، الغبية التحتا ، الغبية الفوقا ، المنسه التابعة للواء حيفا ، المنسه التابعة لقضاء جنين ، مجدو ، اللجون بخربها الثلاث ، لد العواديـن ضارب ومساكن عرب التركمان ، جميع الخرب في تلك المنطقة .

٣ ـ استشهاد قئاد لمدفعية البطل مأمون البطار وعدد من جنود جيش الانقـاذ والمناضلين والاهالي .

٤ ـ انهيار عام في معنويات جيشـ الانقاذ والاهالي .

٥ ـ اعادة الفتيات العربيات من قبضة العدو بشروط غير مشرفة لا مجال لذكرها هنا .... ؟ وتبين فيما بعد ان القاوقجي طلب من الملك عبد الله ارسال نجدة من الجيش الاردني كانت تلبس لباس جيش قال انه مهدد ومحاصر مـع مدفعيتـه ودباباته وان القوة التي مر ذكرهـا وحضرت بالسيارات اخر يوم بالمعركـة وهو يوم الانسحاب ، ما هي الا سرية من الجيش الاردني كانت تلبس لباس جيش الانقاذ وبقيت تحتل احد الجبال القريبة من المستعمرة حتى تم انسحاب جميـع قوات جيش الانقاذ واسلحته بكاملها .

ومنح الملك عبد الله فوزي القاوقجي لقب باشا واصبح فيما بعد ينادى عليه فوزي باشا القاوقجي . ولا بد لي هنا من التذكير بان اربعة طائرات مصرية سبق ان قامت بغارة جوية على مستعمرة نهلال قرب مطار نهلال ، فلاحقتها الطائـرات البريطانية بامر من القائد البريطانـي الذي اعطى الهدنة مـن القاوقجـي ، واستمرت مطاردتها حتى اسقطتها جميعا .

هذه معركة مشمارهاعميك على حقيقتها وبنتائجها وليس كما جاء بمذكرات فوزي باشا القاوقجي وهناك امور وخفايا الوقت غير مناسب لذكرها في هذا المجال .

((تلال مستعمرتي قلندية والنيفي يعقوب))

يقول فوزي باشا القاوقجي بمذكراته بالصفحة (١٩٦) من الكتاب ان قـوات جيش الانقاذ احتلت بناء على امره وتحت اشرافه مستعمرتي قلندية والنيفي يعقوب الواقعتين شمال القدس وقرب مطارها : كان الصهاينة يشددون الخناق على مدينة القدس ويحاصرونها من الجنوب والشمال والغرب ، وكانت القدس القديمة مهـددة بالسقوط بيدهم وكان اهالي القدس وقوات الجهاد المقدس تدافع عنها ببسالة خارقة، لكن السلاح قليل والذخيرة شحيحـة . فارسل الحاج امين الحسيني رسالة لـي

يطلب بذل الجهود مع المقدم مهدي صالح (وهو عراقي) وكان تحت تصرفه عدد من مدفعية جيش الانقاذ لنجدة القدس وفك الحصار عنها وذلك بقصف مراكز العدو بالمدفعية · عرضت الامر على المقدم مهدي صالح فقال انا جاهز لكن لا يوجد عندي من المشاة ما يكفي لحراسة المدفعية ، فعرضت نفسي مع اخواني المناضلين · وفعلا ذهبت مع قوة لا بأس بها من المناضلين مع المقدم مهدي صالح ومدفعيته الثقيلة ليلا حتى وصلنا الى قرية النبي صموئيل المشرفة من الشمال على مدينة القدس وقصفت الاحياء والمراكز الاسرائيلية قصفا مركزا ،وشبت الحرائق في المناطق الاسرائيلية · وفعلا فوجيء العدو بهذا القصف المدفعي وهو لاول مرة ، وفتحت طرق القدس وفك الحصار عنها وأثناء انسحاب المقدم مهدى صالح ومدفعيتهوقواتنا منالنبي صموئيل عائدين الى منطقة جنين مركزنا ، وفي قرية قلندية العربية ، استقبلنا اهلها بالفرح والاهازيج وزغاريد النساء وطلبوا قصف مستعمرة قلندية المجاورة لقريتهم· وفي هذا الجو الحماسي امر المقدم مهدي صالح بقصف مستعمرة قلندية بعدد من القنابل · وبعد قصفها واصلنا عودتنا الى جنين ، لكن بعض المزارعين من اهالي قرية قلندية العربية هرعوا الينا قائلين ان اهالي مستعمرة قلندية هربوا من مستعمرتهم بعد القصف المدفعي وهي خالية ، وطلب مني المقدم مهدي القيام بدورية استطلاع لمعرفة الحقيقة · وتقدمت مع عدد من اخواني المناضلين باتجاه المستعمرة ، وكانت دهشتي عظيمة حين تبين لي صدق قول المزارعين ، حيث لم اجد اي انسان في المستعمرة فابلغت المقدم مهدي صالح ودخلنا المستعمرة بدون قتال ولم نجد فيها اسرائيليا واحدا وهرع اهالي القرى المجاورة ،فسلمنا المستعمرة للجنة من القرى المجاورة ومسلحي تلك القرى وواصلنا عودتنا الى جنين وهذه حقيقة احتلال مستعمرة قلندية ·

اما مستعمرة النيفي يعقوب القريبة منها فقد احتلها الجيش الاردني بعد تدميرها الكامل بالمدفعية فيما بعد ولا علاقة لفوزي باشا القاوقجي ولا لغيره بذلك ·

بعض الحقائق اوردتها وكل املي ورجائي من القائمين على «مركز الابحاث» تأليف لجنة خاصة لكتابة تاريخ نضال الشعب الفلسطيني وثوراتهالمتعددة وتقوم هذه اللجنة بدعوة كل من ساهم او عنده اطلاع على مرحلة نضال شعبنا ، او الاتصال به شخصيا واصدار اعلان لدعوة العارفين والمشاركين ، لتقديم ما عندهم حيث تقوم اللجنة بتدقيق الوثائق والوقائع والرسائل · وبعد التأكد من صحتها تجمع ويصدر من « مركز الابحاث » بعد ذلك كتاب خاص عن كفاح ونضال الشعب الفلسطيني منذ عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٨ ، ويليه كتاب اخر من بعد ١٩٤٨ الى الان ليكون مصدرا موثوقا صحيحاومرجعالكل قارىء وتثبيتا لصحة تاريخ نضال شعبنا ومنعا لكثير من الذين يحلو لهم ان يكتبوا حسب اهوائهم او ما يوعز لهم وهذا ضروري جدا قبل ان يرحل الجيل الذي عاصر قضيته منذ الاحتلال حتى الان ، ويأتي جيل اخر لا يعرف الا ما يقرأ بالكتب وتنطمس الحقيقة ·